منشورات جامعة النجف الدينية
٣

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩هـ

الجزء الثالث

تصدى لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ — ١٩٦٣

al-Nirāqī, Muḥammad Mahdī ibn Abī Dharr

منشورات جامعة النجف الدينية
٣ Jāmiʿ al-saʿādāt

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ ه

الجزء الثالث

تصدى لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ — ١٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(بقية المقام الرابع)

ومنها (١) :

الغرور

معنى الغرور - ذمه - طوائف المغرورين : المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون من أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد .

* * *

وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . ولما كان أكثر الناس ظانين بانفسهم خيراً ، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريّته ، مع أنهم مخطئون فيه ، فهم مغرورون. مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها فى مصارف

(١) أى من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو بجميعها : وهى القوة العاقلة والغضبية والشهوية . وهذه الرذيلة هى الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها .

الخير ، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن أن هذا خير له وسعادة ، مع أنه محض الغرور ، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيراً ، وكذا الواعظ الذى غرضه الجاه والقبول من موعظته ، يظن أنه فى طاعة الله ، مع أنه فى المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

ثم لا ريب فى أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع اليه عن شبهة ومخيلة ، مركب من أمرين : (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ، (وثانيهما) حبها وطلبها باطناً لمقتضيات الشهوة أو الغضب . فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقداً أنه يجلب به الثواب ، تكون له رغبة الى الجاه واعتقاد بكونه خيراً له ، إذ الغنى إذا أمسك ماله ولم ينفقه فى مصارفه اللازمة ، وواظب على العبادة معتقداً أن مواظبته على العبادة تكفى لنجاته وإن كان بخيلا ، يكون له حب المال واعتقاد بأنه على الخير . ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذى يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى ، فيكون من رذائل القوة العاقلة ، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتى الغضب والشهوة . فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث ، أو من رذائل العاقلة مع احداهما .

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الذم الشديد فى الآيات والأخبار ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ

الْغَرُورُ » (١) . وقال ـ عزّ وجل ـ : « وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » (٢) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « حبذا نوم الاكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمق واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين » . وقال الصادق ﷺ : « المغرور فى الدنيا مسكين ، وفى الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى ، ولا تعجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى . وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنك صادق ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك فى العبادة ، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك . وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الاخلاص . وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وأنت غافل عن مضمرات مافى غيب الله تعالى . وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه . وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا اليك . وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة » (٣) .

فصل

(طوائف المغرورين)

إعلم أن فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة ،

---

(١) لقمان، الآية : ٣٣ . فاطر ، الآية : ٥ . (٣) صححناه على مصباح الشريعة : الباب ٣٦ .
(٢) الحديد ، الآية : ١٤ .

وما من طائفة فى العالم مشتركين فى وصف مجتمعين على أمر ، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين . إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون ، كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور . ونحن نشير إلى مجارى الغرور ، والى غرور كل طائفة ، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريها يمكنه أن يأخذ منها حذره ، ويبنى على الجزم والبصيرة أمره . فنقول :

الطائفة الاولى

(الكفار)

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من غره الشيطان بالله ، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان فى قلوبهم : (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد خير من النسيئة . (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من المشكوك ، فلا يترك به . وهذه اقيسة فاسدة ، تشبه قياس ابليس ، حيث قال :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١) .

وعلاج هذا الغرور ـ بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وهو فى غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة ـ إما أن يتبع مقتضى ايمانه ويصدق الله تعالى فى قوله :

---

(١) الأعراف ، الآية : ١١ . ص ، الآية : ٧٦ .

« ما عِندَكُمْ يَنْفَدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ » (١) . وفي قوله تعالى : « وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى » (٢) . وقوله : « وَما عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى » (٣) . وقوله : « وَما الحياةُ الدُّنيا إلاَّ مَتاعُ الغُرورِ »(٤). وقوله تعالى : « فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرورُ » (٥) .

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين ، حتى يزول عن نفسه ما تأديا اليه من الغرور . وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول) : أن يتأمل فى أن كون الدنيا نقداً والآخرة نسيئة صحيح ، إلا أن كون كل نقد خيراً من النسيئة غير صحيح ، بل هو محل التلبيس ، إذ المسلّم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها فى المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء ، وأما إن كان أقل منها فى ذلك وأدون ، فالنسيئة خير ،ألا ترى أن هذا المغرور اذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها فى الحال خوفا من ألم المرض فى الاستقبال ، ويبذل درهما فى الحال ليأخذ درهمين نسيئة ، ويتعب فى الاسفار ويركب البحار فى الحال لأجل الراحة والربح نسيئة . وقس عليه جميع اعمال الناس وصنائعهم فى الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فانهم يبذلون فيها المال نقداً ليصلوا إلى أكثر منه نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال خيراً من واحد فى الحال ، فانسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحيثيات . فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة ، يعلم أنه ليس للدنيا قدر

(١) النحل ، الآية : ٩٦ . (٤) آل عمران ،الآية: ١٨٥ . الحديد ، الآية ٢٠.
(٢) الاعلى ، الآية : ١٧ . (٥) لقمان ، الآية : ٣٣ . فاطر ، الآية : ٥ .
(٣) القصص ، الآية : ٦٠ . الشورى ، الآية : ٣٦ .

محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بانواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممزجة بشيء من المكدرات .

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثانى) باصليه : هو أن يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ ، وأن كل يقيني خير من المشكوك غلط : (أما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة . وليقينهم مدركان :

ـ أحدهما ـ ما يدركه عموم الخلق ، وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء ، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل ، كما أن المريض الذى لا يعرف دواء علته اذا اتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا ، فانه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به . وإن كذبهم صبي أو معتوه أو سوادى . ولا ريب فى أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر الى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادى بالنظر الى أطباء بلد أو مملكة .

ـ وثانيهما ـ ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء ، وهو الوحى والالهام ، فالوحى للأنبياء والالهام والكشف للاولياء ، فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هى عليها ، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظن أن معرفة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لأمر الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه ، كما أن معرفتك لها تقليد للنبى ، هيهات ! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت ، وينظرون اليها بعين البصيرة واليقين ، وان أكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه .

وأما المغرورون بالله ، وهم الذين يقدرون فى انفسهم ويقولون

بألسنتهم : إن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظاً وأسعد حالا من غيرنا ، كما اخبر الله ـ سبحانه ـ عن قول الرجلين المتحاورين ، إذ قال :

« وما أظنُّ السَّاعةَ قائمةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ الىٰ رَبِّي لأجِدَنَّ خيراً مِنها مُنْقلباً » (١).

وباعث ذلك : ما ألقى الشيطان فى روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال الله ـ تعالى ـ :

« وَيقولونَ في أنفُسِهِم لَوْلا يُعَذِّبُنا اللهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المَصيرُ »(٢).

ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء محتاجون ، فيقولون : لو احبهم الله لأحسن إليهم فى الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن الينا فيها ، فلما لم يحسن اليهم فى الدنيا وأحسن الينا فيها فيكون محباً لنا ولا يكون محباً لهم ، فيكون الامر فى الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقى

ولا ريب فى أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله ، إذ ظن أنه كريم عند الله ، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند اولى البصائر على الهوان والخذلان ، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله ، وأن الله يحمى احباءه الدنيا كما يحمى الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة ، ومثل

(١) الكهف ، الآية : ٣٧ . (٢) المجادلة ، الآية : ٨ .

معاملة الله ـ سبحانه ـ مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوى الدنيا عن الأول ويصب نعمها ولذاتها على الثانى ، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر ، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ، ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطعمة والفواكه التى تضره ويسقيه الأدوية البشعة التى تنفعه ، ويهمل الثانى ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهى ، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته ، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته ، كان مغروراً أحمق ، وقد كان الخائفون من ذوى البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، واذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ! وأما المغرورن فعلى خلاف ذلك ، لظنهم أن اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن ادبارها عنهم هوان لهم ، كما اخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله :

« فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » (١).

وعلاج هذا الغرور : أن يعرف ان اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان ، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب الى الله ـ سبحانه ـ والطريق الى هذه المعرفة : إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الأتقياء ، أو التدبر فى الآيات والأخبار . قال الله ـ سبحانه ـ :

---

(١) الفجر ، الآية : ١٥ ـ ١٦ .

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » (١) . وقال الله - سبحانه - : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) . وقال - تعالى - : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » (٣) . وقال - تعالى - : « إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » (٤) . . . الى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ومنشأ هذا الغرور : الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بامثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال :

« فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٥) .

وقال : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٦).

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم : إما بعض بواعث غرور الكافرين - كما

(١) المؤمنون ، الآية : ٥٦ - ٥٧ .
(٢) الاعراف ، الآية : ١٨١ . القلم ، الآية : ٤٤ .
(٣) الانعام ، الآية : ٤٤ .
(٤) آل عمران ، الآية: ١٧٨ .
(٥) الاعراف ، الآية : ٩٩ .
(٦) آل عمران ، الآية : ٥٤ .

تقدم ـ أو ظنهم أن الله ـ تعالى ـ كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته ، ويقولون : انا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والايمان ، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء ـ كما تقدم ـ . وربما اغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم ، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف والورع.

وعلاج هذا الغرور : أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا ، بل هو تمن مذموم ، كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . فإن الرجاء لا ينفك عن العمل ، إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو لم ينكح ، أو نكح ولم يجامع ، او جامع ولم ينزل ، فهو مغرور أحمق ، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يترك المعاصي ، أو تركها ولم يعمل صالحاً ، فهو مغرور جاهل ، كيف وقد قال الله ـ سبحانه ـ :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (١) .

يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال ، كما قال ـ تعالى ـ :

« جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٢) . وقال : « وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) . وقال : « وَأَنْ

---

(١) البقرة ، الآية : ٢١٨ . (٣) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٢) السجدة ، الآية : ١٧ . الاحقاف ، الآية : ١٤ . الواقعة ، الآية : ٢٤ .

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى » (١) . وقال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » (٢).

أفترى أن من استوجر على اصلاح أوانٍ وشرط له اجرة عليها ، وكان الشارط كريماً يفي بوعده وشرطه ، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه ، لجاء الاجير وكسر الاواني وافسدها جميعاً ، ثم جلس ينتظر الأجر زعماً منه أن المستأجر كريم ، افيراه العقلاء في انتظاره راجياً أو مغروراً متمنياً ؟ وبالجملة : سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة ، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق .

ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه ظانا ان الله تعالى يحب آباءه ، ومن أحب انسانا أحب أولاده ، أشد حمقاً من المغرور بالله ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما ، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، وليس يمكن أن يسري من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى ، إذ لا تزر وازرة وزر اخرى ، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه ، كان كمن زعم انه يشبع باكل أبيه ، أو يصير عالماً بتعلم أبيه ، أو يصل الى الكعبة بمشي أبيه ، فهيهات هيهات ! إن التقوى فرض عين على كل أحد ، فلا يجزي والد عن ولده شيئاً ، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، ولا ينفع أحد أحداً إلا على سبيل الشفاعة ، بعد تحقق شرائطها .

ثم العصاة المغرورن ، إما ليست لهم طاعات ، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل ـ كما مر ـ ، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر ، وهم عالمون باكثرية

---

(١) النجم ، الآية : ٣٩ ـ ٤٠ . (٢) المدثر ، الآية : ٣٨ .

المعاصى ، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم ، وهو أيضاً غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الاخرى ألفاً أو ألفين ، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته اكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، واذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها ، كالذى يحج طول عمره حجة ويبنى مسجداً ، ثم لا يكون شىء من عباداته على النحو المطلوب ، ولا يجتنب من اخذ اموال المسلمين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد فى ذكره، ويقول : كيف يعذبنى الله وقد حججت وبنيت مسجداً؟ وكالذى يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائماً فى فضيلة التسبيحات ، ولا يلتفت إلى ما ورد فى عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبة اعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته، لكان عند ذلك يسعى فى كفّ لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته ، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه أجرة نسخ الزائد . فياعجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين !

الطائفة الثالثة

(أهـــل العلم)

والمغترون منهم فرق :

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة ، ليتفاخر فى اندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير أن يكون له فى العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد ، بل يختار تارة ذاك وتارة هذا ، وتكون عقيدته كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا ، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس واعلمهم بالله وبصفاته .

و (منهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة ، أو الشعر أو المنطق ، واغتر به وافنى عمره فيها ، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها ، ولم يعلم أن ما ليس مطلوبا لذاته ويكون وسيلة الى ما هو مقصود لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها ، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه ، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس ، واشتغل باجراء الأحكام ، واعرض عن علم العقائد والأخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصى والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات ايضاً ، بل احكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل ، ولكن ترك العلم الإلهى وعلم الأخلاق ، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصى ، ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من احكم جميع العلوم من العقلية والشرعية ، وتعمق فيها واشتغل بها ، إلا أنه اهمل العمل رأساً ، أو واظب على الطاعات الظاهرة واهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب واخلاق النفس ايضاً ، وجاهد نفسه فى التبرّى عنها ، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية ، ولكن بقيت فى زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان ، وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون ، اذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة ، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة ، إذ سعادة النفس وخلاصها عن العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله ـ تعالى ـ ومعرفة صفاته وافعاله واحوال النشأة الآخرة ، والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها ، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والاعمال ، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم ـ أعنى معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التى هى الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله ـ وظن انه على خير كان مغروراً ، واذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوبا عن الله ، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره ، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه فى المعالجة ، كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل ، مثل المريض الذى تعلم دواء مرضه وكتبه ، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه ، فإنه لا ريب فى ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه ، بل لو كتب منه الف نسخه وعلمه الف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً ، حتى يشترى هذا الدواء ويشربه كما تعلم فى وقته ، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه ، فكيف اذا لم يشربه اصلا ،

فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور ، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها ، واحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، واحكم علم الأخلاق ولم يزكّ نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها ، فهو فى غاية الغرور ، إذ قال الله تعالى :

« قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكَّاها » (١)

ولم يقل : قد أفلح من علم طريق تزكيتها .

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور ، أدى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها ، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها ، وإنما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم . ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا تكبراً ، إنما هو طلب اعزاز الدين ، واظهار شرف العلم ، وارغام انف المخالفين . ومهما ظهرت منه آثار الحسد ، وأطلق لسانه بالغيبة فى أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد . بل يقول :إن هذا غضب للحق وردّ على المبطل فى عداوته وظلمه ، مع أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، وردّ عليه قوله ، ومنع من منصبه ، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن ، بل ربما يفرح به ،ولو كان غضبه للحق لا للحسد على اقرانه وخبث باطنه، لا ستوى غضبه فى الحالين . واذا خطر له خاطر الرياء قال : غرضى من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان ، بل يقول : إنما ذلك لأنهم اذا اهتدوا بى كان الأجر والثواب لى ،

(١) الشمس ، الآية : ٩ .

ففرحى إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق ، هذا ما يظن بنفسه ، والله مطلع على سريرته ، إذ ربما كان باطنه فى الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه فى الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه فى الاظهار ، لا حتال مع ذلك فى اظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك .واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثنى عليهم ويتواضع لهم ، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام ، قال له الشيطان : إن ذلك عند الطمع فى مالهم ، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان ، وكان بحيث يقبل شفاعته فى كل احد ، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين ، يثقل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل . وربما انتهى الغرور فى بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم المحرّمة ، واذا خطر له أنها حرام ، قال له الشيطان : هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدّق به إمام المسلمين ، وأنت إمامهم وعالمهم ، وبك قوام دين الله ، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقى على مصالح المسلمين ،فيغتر بهذا التلبيس، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها فى مصرف غيره . وربما انتهى الغرور فى بعضهم إلى حيث إنه اذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم وقيل له : إن هذا لا يليق بمثلك ، قال : الاكل جائز بل واجب ، إذ هذا مال لا يعلم مالكه ، فيجب التصدّق به على الفقراء ، ويجب على مثلى بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد فى استخلاصه من يد الظالم وايصاله إلى اهله - أعنى الفقراء - واكلى منها نوع قدرة على استخلاصه ، فآكل منه واتصدّق بقيمته على الفقراء ، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدّق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله،وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان فى روعه ،لئلا يضعف اعتقاد العامة فى

حقه ، وربما كان بحيث لا يبالى من اخذ مالهم واكل طعامهم خفية ، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به ، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم فى الباطن مائلا الى الدخول على السلاطين والامراء وتاركاله فى الظاهر. وكان الباعث فى ذلك طلب المنزلة فى قلوب العامة، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه . وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أمّ غيره بمن هو اعلم واورع منه فى مسجده ، أو يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به ، قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن باعثه على الحركة إلى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة ، أو مركباً منه ومن نية الثواب .

وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش ، ومع ذلك يظن أنه مشتغل بامر الخير ، والظاهر فى امثال زماننا ندور الإمام الذى كان قصده من الامامة مجرد التقرب إلى الله ، من دون وجود شىء من حب طلب المنزلة فى القلوب ،أو تحصيل المال ، أو دفع بعض الشرور عن نفسه فى زوايا قلبه ، ولو وجد مثله فهو القدوة الذى يجب أن تشد الرحال من المواضع البعيدة اليه ليقتدى به ، ومثله كلما وجد فى نفسه قصد التقرب والثواب فى الذهاب إلى المسجد للامامة ذهب ،ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف ،وصلى منفرداً ، وهو الذى يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقلتهم ، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً ، من دون أن يجد فى نفسه تفاوتاً فى الحالين .

وبالجملة :اصناف غرور أهل العلم - (لا)سيما فى هذه الاعصار - كثيرة، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى فى

بعضهم الى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للايمان والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوّامو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم - عليه السلام -: «العالم السوء كصخرة وقعت فى فم الوادى، فلاهى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يتخلص الى الزرع».

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغترون منهم كثيرون:

(فمنهم) من يتكلم فى وعظه فى أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه اذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق اليها صار موصوفاً بها، وهو منفك عنها فى الواقع، إلا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين. ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من اقرانه وصلحوا على يديه، وكان اقوى منه فى الارشاد والاصلاح، لمات غماً وحسداً، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض اقرانه، لصار ابغض خلق الله اليه.

و (منهم) من اشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كاف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، طلباً للاعوان والأنصار، وشوقا الى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات فى مجلسه، والتذاذاً بتحريك الرؤس على كلامه والبكاء عليه، وفرحاً بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة

من بين سائر الاقران ، وربما لم يبال بالكذب فى نقل الأخبار والآثار ، ظناً منه أنه أوقع فى النفوس وأشدّ تأثيراً فى رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب فى أن هؤلاء شرّ الناس ، بل شياطين الانس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، إذ الأولون إن لم يصلحوا أنفسهم ، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق الى الغرور بالله ، لأن سعيهم فى ذكر ما يسر به العامة ، ليصلوا به منهم إلى اغراضهم الفاسدة ، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء ، ويزيدهم جرأة على المعاصى ورغبة فى الدنيا ، (لا) سيما اذا كان هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب إلى الدنيا ، ويسر بوصول المال اليه ، ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، وغيرهما من زينة الدنيا . فمثله ممن يضل ويكون افساده أكثر من اصلاحه ، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين ، فهو أشد المغرورين والغافلين .

و (منهم) من هذب أخلاقه ، وراقب قلبه ، وصفاه عن جميع الكدورات ، وصغرت الدنيا فى عينه ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله الى نصحهم واستخلاصهم عن امراض المعاصى بالوعظ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة ، فدعاه الى الرئاسة دعاء خفياً - اخفى من دبيب النملة - لا يشعر به ، ولم يزل ذلك فى قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق: بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات، والتصنع فى الزى والهيئة والشمائل ، وأقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافياً لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع ، فآثروه بابدانهم وأموالهم ، وصاروا له كالخدم والعبيد ، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه ، وذاق لذة يالها من لذة ،

وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فوقع فى أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا ، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به . وعلامة ثوران حب الرئاسة فى باطنه : أنه لو ظهر من اقرانه من مالت القلوب الى قبوله ، وزاد أثر كلامه فى القبول على كلامه ، شق ذلك عليه ، إذ لو لا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك .

وعلى هذا فينبغى ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا اذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم الى الله ـ تعالى ـ ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند انفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم ، واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبال بذمهم اذا كان الله يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترن به مدح الله ، ونظر اليهم كما ينظر الى من هو أعلم منه وأورع ، حيث لاينكر عليه ويراه خيراً من نفسه ، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة ، والى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم ،فإنه لا يبالى كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها ، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها ، دون نظر الماشية اليه بعين المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان ، واشتغل بنفسه وترك النصح ، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص ، لخيف عليه الاعجاب بنفسه فى فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه فى الفرار عن الغرور غاية الغرور ،وهو المهلك الأعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان: « يا ابن آدم ! اذا ظننت أنك بعملك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت فى حبائلى » . ثم لو دفع عن نفسه العجب ، وعلم أن ذلك من الله ـتعالىـ لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله ، وأنه ضعيف عاجز

لا يقدر على شيء أصلاً ، فضلاً عن دفع الشيطان ، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل . ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور ، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها ، ان يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله فى كل لحظة ، وغير آمن من مكر الله ، وغير غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه ، إلا بمجاوزة الصراط والدخول فى الجنة ، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع ـ وكان قد بقى له نفس ـ قال : (أفلتّ مني يا فلان ! ؟) ، فقال : (لا ! بعد) .

الطائفة الخامسة

(أهل العبادة والعمل)

والمغرورن منهم فرق كثيرة :

(فنهم) من غلبت عليه الوسوسة فى إزالة النجاسة وفى الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحكوم بالطهارة فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، واذا آل الأمر الى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما اكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيداً لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة اكابر الأولياء . ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف فى صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء فى التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ، ولا يدرى هذا المغرور أن هذا العمل إن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، وإن كان بدونه بل يحتاط فى التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء الى البشرة ، فما باله يتيقن

بوصول الماء إلى البشرة فى الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط ، مع أن حصول القطع بايصال الماء الى البشرة فى الغسل ألزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط فى الصلاة وسائر العبادات ، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء ، زاعماً أن هذا يكفى لنجاته ، فهو مغرور فى غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة فى نيتها ، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت ، وقد يوسوس فى التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك فى أول صلاته ثم يغفل فى جميع صلاته ، ولا يحضر قلبه ، ويغتر بذلك ، ويظن أنه اذا أتعب نفسه فى تصحيح النية فهو على خير .وربما غلبت على بعضهم الوسوسة فى دقائق القراءة ، واخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار عن مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات وتصحيح المخارج والتميز بين مخارج الحروف المتقاربة. من غير اهتمام فيما عدا ذلك.من حضور القلب والتفكير فى معانى الاذكار ، ظناً منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة ، وهذا أقبح أنواع الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصوم ، وربما صام الأيام الشريفة ، بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار ، ثم يظن بنفسه الخير ، وذلك فى غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالحج ، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع فى الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن أنه على خير .فهو فى غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بقراءة القرآن ، فيهذ هذاً ، وربما يختم فى اليوم

والليلة مرة ، فيجرى به لسانه ، وقلبه مردد فى أودية الأمانى، وربما اسرع فى القراءة غاية السرعة ، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات ، ويتفاخر به على الأمثال والأقران .

و (منهم) من اغتر ببعض النوافل ، كصلاة الليل ، أو بمجرد غسل الجمعة ، أو امثال ذلك ، من غير اعتداد بالفرائض ، زاعماً أن المواظبة على مجرّد هذه النافلة ينجيه فى الآخرة ، فهو ايضاً من المغرورين .

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن ، ظاناً أنه ادرك رتبة الزهاد ، ومع ذلك راغب فى الرئاسة باشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المهلكين باعظمها ، إذ حب الجاه اشد فساداً من حب المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب الى السلامة ، فهو مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد ، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة ، وهو يحبها ، فكيف يكون زاهداً ؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمغترون فيهم اكثر من ان يحصى :

(فمنهم) ارباب البرقات، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسم الدين ، وصرفوا اوقاتهم فى التكدى والسؤال من الناس . ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع أنهم لو ظفروا بشىء من امور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى .

و (منهم) من اغتر بالزى ، والمنطق ، ولبس الصوف ، واطراق الرأس وادخاله فى الجيب ، وخفض الصوت ، وتنفس الصعداء ، وتحريك البدن فى

الطول والعرض ، والسقوط إلى الأرض ، (لا) سيما اذا سمعوا كلاماً فى الوحدة والعشق ، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما . وربما تجاوز بعضهم من ذلك الى الرقص والتصفيق ، وابداء الشهيق والنهيق ، واختراع الاذكار ، والتغنى بالاشعار . . . وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل الى الدرجات العالية ، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع فى الاباحة ، وطوى بساط الشرع والأحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين . وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله ، فهم فيه سواء . وربما قال : ان الله مستغن عن عملى ، فأى حاجة الى أن أتعب نفسى فيه ؟ وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح ، وإنما النظر الى القلوب ، وقلوبنا والهة الى حب الله واصلة الى معرفة الله . وربما خاضوا فى الشهوات الدنيوية ، وقالوا : إنها لا تصدنا عن طريق الله ، لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها ، وإنما يحتاج العوام الى تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، ونحن مستغنون عنه. فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء - عليهم السلام - إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصى يصدهم عن طريق الله ، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غروراً ، وأعظم الخلق حماقة وجهلا .

و (منهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول الى درجات المقربين ، ومشاهدة المعبود ، ومجاورة المقام المحمود ، والملازمة فى عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، ويظن أنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن السماء . وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء

بعين الحقارة والازدراء، يقول فى العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفى العلماء: إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون، ويدعى لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبى ولا ولى، ويدعى كونه واصلا الى الحق فارغا عن أعباء التكليف، لا علماً أحكم ولا عملا هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول الى بعض حطامهم الخبيثة، فهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمق الجاهلين، مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين.

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للبعد عن طريق المروة، ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.

و (منهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة، وقطع بعض المنازل، ووصل الى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات، إما لاعتراض مفسد فى أثناء السلوك، أو لوقوعه فى الأثناء ظناً منه أنه وصل الى الله ولم يصل بعد، فإن لله سبعين حجابا من نور، ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، واليه الاشارة فى حكاية الخليل، حيث رأى أولاً كوكباً، فقال: «هذا ربى»، ثم انتقل الى القمر، ثم عنه الى الشمس، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة. بل هذا ينافى شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التى هى من حجب الله، ويراها السالك فى الطريق، ولا يتصور الوصول الى الله إلا بالوصول الى هذه الحجب، وهى حجب من النور بعضها أعظم من

بعض ، فاستعير لفظ الكوكب لصغره لأقل مراتبها ، والقمر لا وسطها ، والشمس لاعظم مراتبها ، والخليل ﷺ لم يزل عند سيره فى الملكوت يصل إلى نور بعد نور ، ويتخيل اليه فى أول ما يلقاه أنه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراءه امر ، فيترقى اليه حتى وصل الى الحجاب الأقرب ، فقال : هذا اكبر ، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى فى حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ، قال :

« لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي . . . » (١)

فسالك هذا الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يغتر بالحجاب الأول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فإنه - أيضاً - أمر ربانى ونور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو فى أول الأمر كان محجوبا ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله - تعالى - ربما التفت صاحب القلب الى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، فربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة ، فيقول : انا الحق ! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك ، اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد الى القمر ، فضلا عن الشمس ، فهو مغرور . وهذا محل الالتباس ، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون ما يتراءى فى المرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج ، كما قيل :

رقّ الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر

---

(١) الانعام ، الآية : ٧٦و٧٩ .

فكأنما خمر ولا قدح　　　وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح ، فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه ، فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكباً فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد اليد اليه ، فهو مغرور . وأنواع الغرور فى طريق السلوك الى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة .

ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين - مع كذبهم فيما يدعونه ،ونقصانهم فى طريق السلوك ، وجهلهم بحقيقة الأمر ، وعدم قطعهم جل المقامات - يتشبهون بالصادقين من العرفاء فى زيهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم ، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيات هيهات ! إن الوصول الى درجة كل أحد إنما تحصل بالاتصاف باوصافه الباطنة والتخلق باخلاقه النفيسة ، دون التشبه به فى حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم فى الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها الى أن تكون مثلهم ،فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا ، وتعلمت كيفية جولانهم فى الميدان ، وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى والمنطق والحركات والسكنات،وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان، فلما وصلت اليه ، أنفذت الى ديوان العرض ، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع ، وينظر الى حقيقتها ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها ، فلما جردت فاذا هى عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شىء، فقيل لها : أجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته ؟ خذوها والقوها قدام الفيل ، فداسها وتحتها . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان فى القيامة ، اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا إلى القاضى الحق الذى لا ينظر إلى الزى واللباس بل إلى سر القلب وصفاته .

الطائفة السابعة

(الأغنياء وارباب الأموال)

والمغترون فيهم اكثر من المغترين من سائر الطوائف :

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة ، وربما غصب أرض المساجد والمدارس ، وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ، ولذا يسعى فى كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره ، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك ، وأنه مخلص فيه ، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله فى كسب هذه الأموال وفى انفاقها ، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله ، واذا عصى الله واخذها ، كان الواجب عليه التوبة وردها الى اهلها ، فإن لم يبق من اخذها منه ولا ورثته ، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين ، مع انه ربما كان فى بلده أو فى جواره مسكين يكون فى غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما .

و (منهم) من ينفق الأموال فى الصدقات ، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصدق فى السر ، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن يعطى اهل البلاد الآخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده ، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء فى البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيراً منه الى رجل معروف فى البلاد وإن لم يكن مستحقاً ، ليشتهر ذلك فى البلاد ، ولا يعطى قليلا منه الى فقير له غاية الاستحقاق اذا كان خامل الذكر ، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الأجر والثواب ، ولم يدر المغرور أن هذا القصد

احبط عمله واضاع ثوابه .

و (منهم) من يجمع مالا من غير حله ، ولا يبالى باخذ المال من أى طريق كان ، ثم يمسكه غاية الامساك ، إلا أنه لا يبالى بصرف بعضه فى طريق الحج ، إما لنفسه فقط ، أو لأولاده وازواجه أيضاً ، إما للاشتهار ، أو لما وصل اليه : أن تارك الحج يبتلى بالفقر .

و (منهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، ظناً منه أن ذلك يكفى لنجاته ، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لابدّ من ازالتها ، وعلاجه : بذل المال دون العبادات البدنية . ومثله مثل من دخلت فى ثوبه حية ، وقد اشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء ، وغافل بأن الحية تقتله الآن ، ومن قتلته الحية فأى حاجة له الى السكنجبين ؟

وصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب .فضدّه الفطانة والعلم والزهد، فمن كان فطناً كيساً عارفا بربه و نفسه وبالآخرة والدنيا ، وعالماً بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يقربه اليه وبما يبعده عنه ، وعالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، لا جتنب عن الغرور ولم يغرّه الشيطان فى شيء من الامور ، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً فى هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، عرف كون هذه الشهوات مضرة له ,وأن الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر الى وجهه، فلا يسكن نفسه الى شهوات الدنيا ,ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار فى قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار

عن الدنيا ولذاتها ، واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها ، فإن أكل - مثلا - أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا وإلى الجاه والمال ، وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه أحب اليه من رضاء الله ، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل فى علاج الغرور : أن يفرغ القلب من حب الدنيا ، ويغلب عليه حب الله ، حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية وبندفع عنه الغرور . قال الصادق عليه السلام : « واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمنى إلا بصدق الإنابة الى الله ، والاخبات له ، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ، ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمراً ، فاورثت حسرة يوم القيامة » (١) .

ومنها :

طول الأمل

معنى طول الأمل ومرجعه - علاجه - ضده قصر الأمل - اختلاف الناس فى طول الأمل - ذكر الموت مقصر للأمل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت أعظم الدواهى - مراتب الناس فى ذكر الموت .

° ° °

وهو أن يقدّر ويعتقد بقاءه الى مدة متمادية ، مع رغبته فى جميع توابع البقاء : من المال والأهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوتى العاقلة والشهوة، إذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحبه

(١) صححناه على مصباح الشريعة - الباب ٣٦ .

لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : إما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين فى ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب اكثر ، والى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشاب ، أو على صحته وقوته . ويستبعد مجيء الموت فجأة ، ولا يتأمل فى أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض انما يقع فجأة ، واذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ؛ لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه ، وعظم اشتغاله بالاستعداد له ، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل ، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه ، ولا يقدّر نزوله ووقوعه فيه . ويشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه ، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه ؛ لأنه لم يقع ، واذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده ، فهو الأول وهو الآخر !

وأما حبه لتوابع البقاء : من المال والدار والمراكب والضياع والعقار ، فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها فى مدة مديدة ، فيثقل على قلبه مفارقتها ، فيمنع قلبه عن التفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغوفاً بالامانى الباطلة ، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده ، ومراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره فى نفسه ، ويقدّر توابع البقاء من اسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدّر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحيان امر الموت والحاجة

إلى الاستعداد له ، سوّف ووعد نفسه الى أن يكبر فيتوب . واذا كبر أخر التوبة الى أن يصير شيخاً ، واذا صار شيخاً يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، ولا يزال يسوّف ويؤخر الى ان يخطفه الموت فى وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد أن اكثر أهل النار صياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف ! والمسوّف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، إذ الخائض فى الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط ، اذ ما قضى من احد منها لبانته ، وإنما فرغ منها من اطرحها .

فصل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت أن طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا ، فينبغى أن يدفع الجهل بالفكر الصافى من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فإن من تفكر يعلم أن الموت اقرب اليه من كل شىء ، وأنه لابدّ أن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ، ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه ، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدرى به . وأما حب الدنيا فينبغى أن يدفع من القلب بالتأمل فى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة ،وما ورد فى الأخبار من الذم والعقاب فى حب الدنيا والرغبة اليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها ، وقد تقدم ما يكفى لهذا البيان ، وينبغى ـ أيضاً ـ أن يتذكر ما ورد فى مدح ضد طول الأمل ـ أعنى قصر الأمل كما يأتى ـ وما ورد فى ذم طول الأمل . كقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إن أشد ما اخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع

الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ـ ثم قال ـ : إن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبداً أعطاه الايمان ، ألا إن للدين ابناء وللدنيا ابناء ، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن الآخرة قد اتت مقبلة ، ألا وانكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وانكم يوشك أن تكونوا فى يوم حساب ليس فيه عمل ،(١) . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والأمل » . وقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل » .

وصل

(قصر الأمل)

ضد طول الأمل قصره ،وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ، ولذا ورد فى الأمر به والنهى عن ضده ما ورد ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فإنك لا تدرى ما اسمك غداً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر : « إن اسامة لطويل الأمل ، والذى نفسى بيده اما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرىّ لا يلتقيان

---

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم: ٤/ ٣٨٤، وهو يرويه عن علي ـ عليه السلام ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، ولكن فى كنز العمال : ٢ / ١٦٩ ، يرويه : انه من كلام علي ـ عليه السلام ـ نفسه ، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء . وعبارة الكنز أبلغ وأرصن ، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين) ، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضاً (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين)،مروي في نهج البلاغة: رقم ٤١ من باب الخطب ، فراجع

حتى يقبض الله روحي ، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى اقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا اسيغها حتى اغص بها من الموت » ، ثم قال: « يا بني آدم ! إن كنتم تعقلون فعدّوا انفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ! أنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » . وروى : « أنه - صلى الله عليه وآله - قد اطلع ذات عشية الى الناس ، فقال : أيها الناس ! أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ! قال : تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون » . « وقال - صلى الله عليه وآله - : أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ! قال: قصروا من الأمل ، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم ، واستحيوا من الله حق الحياء » . وكان - صلى الله عليه وآله - يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، واعوذ بك من امل يمنع خير العمل » . وكان - صلى الله عليه وآله - يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ، ويقول لعلّي لا أبلغه . وقال عيسى - عليه السلام - : « لا تهتموا برزق غد ، فإن لم يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم ، وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصل

(اختلاف الناس في طول الأمل)

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون : (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبداً ، كما قال الله - سبحانه - :

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١)

(١) البقرة ، الآية : ٩٦ .

وهو الذى انغمر فى الدنيا وخاض فى لذاتها ، وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى اقصى مدة العمر الذى يتصور لأهل عصره ، وهو الذى يحب الدنيا حباً شديداً ، ويشتغل بجمع ما يمكنه فى هذه المدة ، وربما يجتهد بجمع الأزيد منه . (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهى الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ، ولا يقدر لنفسه وجوده فى عام قابل ، فإن بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف ، واذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهى إلى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلى دائماً صلاة المودعين . وروى : « أن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه ، قال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها اخرى » . وكان بعضهم اذا يصلى يلتفت يميناً وشمالا ، ولما قيل له : ما هذا الالتفات ؟ قال : « انتظر ملك الموت من أى جهة يأتينى » .

ثم اكثر الخلق ـ (لا) سيما فى أمثال زماننا ـ قد غلبهم طول الأمل ، بحيث لا يأمل اقل من أقصى مدة السن ، وقلّ فيهم من قصر أمله ، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل ، وفى عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم اكثر من الشبان ، ومن هنا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : حب الشيخ شاب فى طلب الدنيا ، وإن التفت ترقوتاه من الكبر ، إلا الذين اتقوا ، وقليل ما هم » .

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال : فمن اعتنى بجمع اسباب

لا يحتاج اليها فى سنة فهو طويل الأمل ، وكذلك من انتشرت اموره ، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة ، كالسنة وازيد منها ، وكان عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطربا ولا خائفاً فهو طويل الأمل . فعلامة قصر الأمل : أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء ، ولا يسعى اطلب قوت الزائد على أربعين يوماً ، ويصرف أوقاته فى الطاعة والعبادة . ويرى نفسه كمسافر يجتهد فى تحصيل الزاد .

فصل

(ذكر الموت مقصر للأمل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله ، ويوجب التجافى عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود ، ولذا ورد فى فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اكثروا ذكر هادم اللذات » ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « الموت ، فما ذكره عبد على الحقيقة فى منعة إلا ضاقت عليه الدنيا ، ولا فى شدة إلا اتسعت عليه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « تحفة المؤمن الموت » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الموت كفارة لكل مسلم » . وقيل له ـ صلى الله عليه وآله ـ : هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم ! من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اكثروا من ذكر الموت ، فإنه يمحص الذنوب ، ويزهّد فى الدنيا » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « كفى بالموت واعظاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الموت الموت ، ألا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة إلى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اذا استحقت ولاية الله والسعادة ، جاء الأجل بين العينين وذهب

الأمل وراء الظهر ، واذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة ، جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر ، وذكر عنده ـ صلى الله عليه وآله ـ رجل ، فاحسنوا الثناء عليه ، فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « كيف ذكر صاحبكم الموت؟ » ، قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال : « فان صاحبكم ليس هنالك » . وسئل : أي المؤمنين اكيس واكرم ؟ فقال : « اكثرهم ذكراً للموت ، واشدهم استعداداً له ، أولئك هم الاكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « اكثروا ذكر الموت ، فإنه لم يكثر ذكره انسان إلا زهد في الدنيا » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « اذا انت حملت جنازة فكن كأنك انت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع الى الدنيا ففعل ، فانظر ماذا تستأنف » ، ثم قال ـ عليه السلام ـ : « عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم ، ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون » . وقال ـ عليه السلام ـ لأبي بصير ـ بعد ما شكى اليه الوسواس ـ : « اذكر يا ابا محمد تقطع أوصالك في قبرك ، ورجوع أحبائك عنك اذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك ، واكل الدود لحمك ، فإن ذلك يسلي عليك ما أنت فيه » ، قال ابو بصير : فوالله ! ما ذكرته إلا سلي عني ما أنا فيه من هم الدنيا . وقال ـ عليه السلام ـ : « من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان ماجوراً كلما نظر اليه » (١) . وقال ـ عليه السلام ـ : « ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ، ويقلع منابت الغفلة ، ويقوي القلب بمواعد الله ، ويرق الطبع ، ويكسر اعلام الهوى ، ويطفي نار الحرص ، ويحقر الدنيا ، وهو معنى ما قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (فكر ساعة خير من عبادة سنة) ،

---

(١) صححنا ا كثر الاحاديث على الوسائل ـ ج ١ : الباب ٢٣ من ابواب الاستحضار في كتاب الطهارة ـ ، وعلى احياء العلوم : ٤ / ٢٨٣ .

وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها فى الآخرة ، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة . ومن لا يعتبر بالموت ، وقلة حيلته ، وكثرة عجزه ، وطول مقامه فى القبر ، وتحيره فى القيامة : فلا خير فيه . وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (اكثروا ذكر هادم اللذات . . .) ، ثم ذكر تمام الحديث كما مر . . . ثم قال ـ عليه السلام ـ : والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن اكرم عند النزول باولها ، وطوبى لمن احسن مشايعته فى آخرها ، والموت أقرب الأشياء من بنى آدم ، وهو بعده ابعد . فما أجرأ الانسان على نفسه ، وما أضعفه من خلق ، وفى الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ، ولذلك اشتاق من اشتاق الى الموت وكره من كره ، قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) » (١) .

فصل

(العجب ممن ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه ، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات فى العالم ، واسرع الأشياء إلى بنى آدم ، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » (٢) . وقال ـ سبحانه ـ : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٨٤ .
(٢) النساء ، الآية : ٧٧ .

الدُّنيا إلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ » (١) .

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « ما انزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله » . وقال ـ عليه السلام ـ : « لو رأى العبد أجله وسرعته اليه ، لأبغض العمل من الدنيا » . وقال الصادق ﷺ : « مامن أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » . وقد تقدمت اخبار أخر في هذا المعنى .

فصل

(الموت أعظم الدواهي)

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى ، ومن كل داهية اشد وادهى ، وهو من الأخطار العظيمة والاهوال الجسيمة ، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه ، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته ، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته ، وتشتد لأجله رزيته ، ويرى نفسه في اصحاب القبور ويعدها من الاموات ، إذ كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ « لو أن البهائم يعلمون ماتعلمون ما اكلتم منها سميناً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ لقوم يتحدثون ويضحكون : « اذكروا الموت ، أما والذي نفسي بيده ! لو تعلمون ما أعلم اضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » . ومرّ ـ صلى الله عليه وآله ـ بمجلس قد استعلاه الضحك ،

(١) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » . قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال : « الموت » .

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها ، فلا ينفع ذكره فى قلبه . فالطريق فيه : أن يفرغ القلب عن كل شىء إلا عن ذكر الموت الذى بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة ، أو بحر عظيم لابد أن يركبه ، فإنه لا يتفكر إلا فيه ، ومن تفكر فى الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك ، لأثر ذكره فى قلبه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وتنزجر نفسه عنها ، وينكسر قلبه ، ويستعد لأجله . وأوقع طريق فيه : أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ، ونقلوا من انس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان الى مصاحبة الهوام والديدان ، ويتذكر مصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف محى التراب الآن حسن صورتهم ، وكيف تبددت اجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم واوحشت ديارهم ، فمهما تذكر رجلا رجلا ، وفصل فى قلبه حاله وكيفية حياته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وأمله فى العيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمؤتات الاسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله الى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه ، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه اليه على مر الأعوام والشهور وكر الأزمنة والدهور . ثم يتأمل

أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وسيصير حاله فى القبر كحالهم ، فملازمة هذه الأفكار وامثالها ، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى ، تجدد ذكر الموت فى قلبه ، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه ، وعند ذلك ربما يستعدله ويتجافى عن دار الغرور ، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى فى التنبيه والايقاظ . ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا ، فينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد من مفارقته . كما نقل : أن بعض الاكابر نظر يوماً الى داره فاعجبه حسنها،فبكى وقال : والله لو لا الموت لكنت بها مسروراً .

فصل

(مراتب الناس فى ذكر الموت)

الناس بين منهمك فى الدنيا خائض فى لذاتها وشهواتها ، وبين تائب مبتدىء ، وعارف منتهى .

(فالأول) : لا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصده عما يحبه من الدنيا ، وهو الذى يفر منه ، وقال الله ـ تعالى ـ فيه :

« قُلْ إنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ . . . » الآية (١) .

وهذا يزيده ذكر الموت بعداً من الله ، إلا اذا استفاد منه التجافى عن الدنيا ، ويتنغص عليه نعيمه ، ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينفعه ، لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته .

(والثانى) : يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية ، فيفى

(١) الجمعة ، الآية : ٨ .

بتمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور فى كراهة الموت ،ولا يدخل تحت قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ :«من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله . وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو الذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه . وعلامة هذا :أن يكون دائم الاستعداد للموت لا شغل له سواه،وإن لم يكن مستعداً له عاملا بما ينفعه فى الآخرة التحق بالاول .

(واما الثالث) : فانه يذكر الموت دائماً ؛ لانه موعد للقاء حبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا فى غالب الامر يستبطىء مجىء الموت ويحب مجيئه ، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روى : « أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى ، والسقم احب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة ، فسهل على الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه :من يفوض امره إلى الله ، ولا يختار لنفسه شيئاً : من الموت أو الحياة ، والفقر والغنى ، والمرض والصحة ، بل يكون احب الاشياء اليه احبها إلى مولاه ، وهـذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى درجة التسليم والرضى ، وهو الغاية والانتهاء .

تتميم

(المبادرة الى الحسنات)

من علامات قصر الامل وذكر الموت: المبادرة الى الحسنات واشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير ، قال رسول الله

ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ». وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (١) . وكان ـ صلى الله عليه وآله ـ اذا احس من اصحابه غفلة وغرة ، نادى فيهم بصوت عال : « اتتكم المنية ، إما بشقاوة أو بسعادة » . وروى : أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس ! الرحيل الرحيل! . وقال بعض الأكابر : التؤدة فى كل شيء خير ، إلا فى أعمال الآخرة .

ومنها :

العصيان

ولا ريب فى كونه من رذائل قوتى الغضب والشهوة معاً ، لأن بعض انواعه من رذائل احداهما من جانب الافراط أو التفريط ، أو من باب رداءتها ، وبعض آخر من انواعه من رذائل الأخرى . وضده (التقوى والورع) ، وبالمعنى الأعم : اعنى الاجتناب عن مطلق المعصية خوفا من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد فى فضيلتهما ، فتذكر .

ومنها :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية ، وكونه من رداءة قوتى الغضب والشهوة ظاهر .

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٤ / ٣٩٠ . وفى نسخ الكتاب (اولج ومن اولج) .

وضدها (الحياء). وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم ، وهو أعم من التقوى ، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ما ورد ، قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة » . وقال ـ عليه السلام ـ : « الحياء والعفاف والعي ـ أعني عيّ اللسان لا عي القلب ـ من الايمان » . وقال ـ عليه السلام ـ : « الحياء والايمان مقرونان في قرن ، فاذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه » . وقال ـ عليه السلام ـ : « لا ايمان لمن لا حياء له » . ثم حقيقة الحياء ـ كما عرفت ـ هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقاً . ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق ، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل » (١).

ومنها :

الاصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار إلى أي القوى وذمها ـ ضد الاصرار التوبة وتعريفها ـ هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ ـ وجوب التوبة ـ تحقيق في وجوبها ـ عموم وجوبها ـ لابد من العمل بعدها ـ فضيلتها ـ قبولها ـ طريقة التوبة من المعاصي ـ تكفير الصغائر ومعنى الكبائر ـ الصغائر قد تكون كبائر ـ شروط كمال التوبة ـ هل يصح التبعيض فيها؟ ـ أقسام

(١) صححنا الأحاديث هنا على اصول الكافي (باب الحياء) .

التائبين - مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الاصرار على الذنوب - الانابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما - حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس .

* * *

وهو إما ناشىء من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة، أو عن رداءتهما معاً ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى واوكد . والأخبار الواردة فى ذم خصوص افراد المعاصى ربما يظفر بجملة منها فى هذا الكتاب عند ذكر كل معصية،وأما الأخبار الواردة فى ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً ، كقول النبي - صلى الله عليه وآله - : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات ، يقول أحدهما :ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، فيقول الآخر : وياليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا . واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام ، وأنه لينظر الى ازواجه فى الجنة يتنعمن » . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة ، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات » . وقال الباقر - عليه السلام - : « إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة » . وقال - عليه السلام - : « ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته ، إن القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله » . وقال - عليه السلام - : « إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق » . وقال

الصادق ـ عليه السلام ـ : « يقول الله ـ تعالى ـ : إن أدنى ما اصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذيذ مناجاتي ». وقال ـ عليه السلام ـ : « من همّ بسيئة فلا يعملها ، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب ـ تعالى ـ فيقول : وعزتي وجلالي ! لا أغفر لك بعد ذلك ابداً ». وقال ﷺ : « أما إنه ليس من عرق يضرب ، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض ، إلا بذنب ، وذلك قول الله ـ عز وجل ـ في كتابه :

« وَما أَصابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١).

قال ـ عليه السلام ـ : وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به ». وقال ﷺ : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم ». وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ : « حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاها للشمس حتى يطهرها » (٢).

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل اليه أثر الذنب ووباله، فان هذا محال. فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى، فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ، ويعذبوا في الآخرة عذابا اكبر واشد . أما سمعت أن اباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الأولى ؟ حتى روي : « أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، وجاء جبرئيل ـ عليه السلام ـ واخذ التاج من رأسه وحل الاكليل عن جنبيه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من

(١) الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٢) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي (باب الذنوب) .

جوارى ، فإنه لا يجاورنى من عصانى . فالتفت آدم الى حواء باكياً ، وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب ». وروى : « أنه -تعالى- قال : يا آدم ! أى جار كنت لك ؟ قال: نعم الجار يارب ! قال : يا آدم ! اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى، فإنه لا يجاورنى من عصانى ». وقد روى : « أن آدم بكى على ذنبه مائتى سنة ، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى ». فإن كانت مؤاخذته فى نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا ، فكيف معاملته مع الغير فى ذنوب لا تحصى .

وصل

(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبة) ، وهى الرجوع من الذنب القولى والفعلى والفكرى ، وبعبارة اخرى : هى تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب ، وبعبارة اخرى : ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير . وكما أن الاصرار على العصيان من رذائل قوتى الغضب والشهوة ، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما . بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احداهما ، ومن فعل النفس باعانتهما وانقيادهما للعاقلة ، وإن كان الباعث على الرجوع وتهييج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب ، ويمكن أن يقال : إن التوبة هو الرجوع عن الذنب ، وهو من ثمرات الخوف والحب ، فان مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى فى شىء مما يريده ويطلب من المحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضاً . ويمكن أن يقال : إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب ، وكونها حجابا بينه وبين الله ، والندم الحاصل منه ، والقصد المتعلق

بالترك حالا واستقبالا ، والتلافى للماضى والندم ، والقصد بالترك والتلافى من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة ، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث .

وتوضيح حقيقة التوبة : أنه اذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه ، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب ، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات ، ويسمى تألمه ـ بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ـ ندما. واذا غلب هذا الندم على القلب ، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذى كان ملابساً له ، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوّت لمحبوبه إلى آخر عمره ، وبالماضى بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم ـ أعنى اليقين بكون الذنوب سموما مهلكة ـ هو الأول، وهو مطلع البواقى ، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب ، فيتألم به القلب، حيث ينظر باشراق نور الايمان واليقين أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب ، فيرى محبوبه قد اشرف على الهلاك ,فتشتعل نيران الحب فى قلبه,وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك . فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى : ثلاثة معان مترتبة فى الحصول ، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها . وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم . وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر . والى هذا الاعتبار يشير قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الندم توبة » ، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه واثمره ، أو عن عزم يتبعه ويتلوه,فيكون الندم محفوفا بطرفيه , اعنى ثمرته ومثمره.وبهذا الاعتبار

قيل فى حدها : إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، أو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار قيل فى حدها : إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء ، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود اليه استقبالا . وعلى هذا لا يكون الندم داخلا فى حقيقة التوبة ، وقد صرّح بعض الاعاظم بخروجه عنها ، محتجاً بأن الندم ـ وهو تألم القلب وحزنه على الذنب ـ غير مقدور ، ولذا ترى تقع الندامة على امور فى قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً ، وإنما المقدور تحصيل أسبابه ، أعنى الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما فى قلبه . وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة ، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها ، فاللازم فيها التندم دون الندم . وغير خفى بأن الندم كغيره من صفات النفس ، فإن أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك ، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية ، وأيضاً اذا امكن تحصيل سبب الندامة ـ اعنى العلم بفوات المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ اعنى الندامة عليه ـ فما معنى عدم كونه مقدوراً . فالندامة فى الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية . وبعضهم يعدّ ما عدا التندم من شرائط التوبة ، قال : « وأما الندم ـ اعنى تألم القلب على الذنب الذى هو روح التوبة ـ فغير مقدور ، وهو التوبة حقيقة ، وإنما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما فى قلبه » انتهى. وفيه مالا يخفى بعلاوة ما سبق ، قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ،

وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم فى اصل توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العام، فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة، والاعتراف بجنايته دائماً، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقى من عمره، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث الى الله - تعالى - ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه فى ميدان الجهاد والعبادة، ويقضى عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائماً فى عاقبته، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة فى سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين، فان فى ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة فى عمله، ورفعة فى درجاته. قال الله - عز وجل -:

« فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » (١) » (٢).

تتميم

(هل يشترط فى التوبة القدرة على الذنب السابق ؟)

التوبة إنما تكون عن ذنب سبق مثله. (أما) (٣) ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى

---

(١) العنكبوت، الآية: ٣.

(٢) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠).

(٣) وفى النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما اثبتناه.

صاحبه متقياً لا تائباً ، ولذا يصح القول بأن النبي - صلى الله عليه وآله - كان متقياً عن الكفر ، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه . ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا فى الصورة أو المنزلة ، فالشيخ الهم الذى سبق منه الزنا وقطع الطريق ، ولم يقدر الساعة على فعلهما اذا أراد التوبة عنهما ، ينبغى أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة ، كالقذف والسرقة وامثالها . إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة - اعنى نفس الزنا وقطع الطريق - مع عدم قدرته عليهما ، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشىء فى المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشىء ، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها ، وهو باطل ؛ لانفتاح باب التوبة الى الموت ، ولما ذكر ، قال بعض المشايخ فى حد التوبة : « إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لا صورة ، تعظيما لله وحذراً من سخطه » . فقوله : « سبق مثله » احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله ، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لا صورة » لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن ، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً ، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً .

قال أبو حامد الغزالى : « إن قلت : هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ قلت : لا ! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله ، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه » ، ثم قال : « ولكنى أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف

ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه ، وثار منه احتراق وتحسر وندم ، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فانى ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين ، وان لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر اسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهى شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه ، بل الظاهر انه يقبله . والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين : ـ أحدهما ـ حرقة الندم ، و ـ الآخر ـ شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل ، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولو لا هذا لقلنا : ان التوبة لا تقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما يدل الظاهر الشرع على اشتراطه .

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة : بالاجماع ، والنقل ، والعقل :

أما الاجماع ـ فلا ريب فى انعقاده . وأما النقل ـ فكقوله ـ تعالى ـ :

« وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) . وقوله ـ تعالى ـ : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) النور ، الآية : ٣١ .

آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١).

ومعنى النصوح : الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض ، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم اسباب ، والأمر للوجوب ، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين .

وأما العقل — فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك فى ثبوته لها . (بيان ذلك) : أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد ، ولو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة الى سعادة الأبد . ولا ريب فى أنه لا سعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله والانس به ،فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال ، فهو شقى لامحالة ، محترق بنار الفراق ونار جهنم . ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس بهذا العالم الفانى ، والاكباب على حب ما لابد من مفارقته قطعاً ، ويعبر عن ذلك بالذنوب . ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم ، والاقبال بالكلية على الله ، طلباً للانس به بدوام الذكر ، والمحبة له بدوام الفكر فى عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته .ولا ريب فى أن الانصراف عن طريق البعد الذى هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذى هو السعادة ، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التى عبارة عن العلم والندم والعزم ، ولا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، فالتوبة واجبة قطعاً .

---

(١) التحريم ، الآية : ٨ .

تذنيب
(تحقيق فى وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصى واجبة ، مع أن العلم بضرر المعاصى وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لا ريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لأن كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل ، فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصير باعثاً ، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها ، فن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقول النبى - صلى الله عليه وآله - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وما اراد به نفى الايمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينافى الزنا والمعاصى ، وإنما أراد به نفى الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه ، وليس الايمان بابا واحداً ، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون بابا ، أعلاها الشهادتان وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل :ليس الانسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الاذى عن البشرة ،بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة باروائها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها واظفارها ، فالايمان كالانسان ،وفقد الشهادتين كفقد الروح الذى يوجب البطلان بالكلية ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال ، فهو كإنسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين،فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة، إلا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التى تخلفت عنها الاعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من

ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل ايمان لم يثبت فى النفس اصله ولم تنتشر فى الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة ، فالمحجوب عن الايمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى فى الخاتمة عن الايمان الذى هو اصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التى هى فروع ليساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع ، ولكن بقاءه يستدعى وجود الفرع. فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، فساواة العاصى والمطيع فى اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر فى اسم الشجرة ، وإنما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية ، فعند ذلك تنقطع اصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها ، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على اصلها وفرعها . ومثل العاصى الذى لا يخاف الخلود فى النار لأجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذى يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته، فكما يؤدى صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية الى المرض والمرض إلى الموت ، فكذلك تؤدى ذنوب العاصى إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود فى النار ، فالمعاصى للايمان كالسمومات والماكولات المضرة للابدان ، فكما أن مضرة السمومات لا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك آثار المعاصى لا تزال

تتراكم فى النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان ، فالخائف من الموت فى هذه النشأة القصيرة اذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات ، فالخائف من هلاك الابد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب ، ومن تناول السم وندم اذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة ، فمتناول سموم الايمان وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخوانى إلى التوبة ! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء ، ويخرج الأمر فيه عن ايدى اطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ، وتحق عليكم كلمة العذاب . وتدخلون تحت عموم قوله ـ تعالى ـ :

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » (١) . وقوله ـ تعالى ـ : « خَتَمَ اللّٰهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ » (٢) . . . وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الأدلة المذكورة : كون التوبة واجبة على الفور ، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً ، ولا يجوز له التأخير . قال لقمان لابنه : « يابنى ! لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة » . ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : ـ احدهما ـ أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو . ـ والثانى ـ أن يعاجله

(١) يس ، الآية : ٩ . (٢) البقرة ، الآية : ٧ .

المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد : أن اكثر صياح أهل النار من التسويف ، فما هلك من هلك إلا بالتسويف .

فصل

(عموم وجوب التوبة)

وجوب التوبة يعم الاشخاص والاحوال ، فلا ينبغى أن ينفك عنه احد فى حالة ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعاً » (١)

وهو يعم الكل فى الكل . ومما يدل على وجوبها على الكل : أن كل فرد من أفراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع فى مملكة بدنه ، بين الشهوات جنود الشياطين ، وبين العقول احزاب الملائكة ، إذ لا تكمل غريزة العقل فى أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة ، واذا قام القتال بينهما لابد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات ، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا . ومما يدل على وجوبها على الدوام وفى كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا عن ذلك أيضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة .

---

(١) النور ، الآية : ٣١ ,

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله فى حالة ، وان تفاوتوا فى المقادير ، يلزم وجوب التوبة على كل عبد فى كل حالة ، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب فى لحظة واختطفه الموت ، لزم خروج روحه بلا توبة،لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصى المذكورة، فالتوبة واجبة على كل عبد سالك فى كل نفسٍ من أنفاسه ، قال بعض العرفاء (١) : «لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره فى غير طاعة الله ، لكان حقيقاً أن يخزيه (٢) ذلك الى المات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله» . ومن عرف قدر العمر وفائدته ، وما يكتسب به من سعادة الأبد ، يعلم أن ما يضيع منه فى المعصية وغير التوبة أى حسرة وندامة يترتب عليه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة ،فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد ، وكل نفسٍ من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، لايصالها العبد الى سعادة الأبد وانقاذها اياه من شقاوة السرمد ، وأى جوهر انفس من هذا ، فمن ضيعها فى الغفلة خسر خسرانا مبيناً ، ومن صرفها فى معصية فقد هلك هلاكا أبديا . وقد قيل : إن لله ـ تعالى ـ إلى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الإلهام : ـ احدهما ـ اذا خرج من بطن امه يقول له : عبدى ! قد اخرجتك إلى الدنيا طاهراً لطيفاً ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقانى . ـ والثانى ـ عند خروج روحه يقول : عبدى ! ماذا صنعت فى امانتى عندك ، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء ؟أو اضعتها

---

(١) هو ابو سليمان الدرانى فيما نقل عنه فى احياء العلوم : ٤ / ١٠ .

(٢) فى نسخ جامع السعادات (يحزيه) .

فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ . واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » (١) . وبقوله ـ تعالى ـ : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » (٢) .

وقد روى : أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لوكانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه ، ولا يجد اليها سبيلا . وقد روى ـ أيضاً ـ : أنه اذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت : أخرنى يوماً اعتذر فيه الى ربى واتوب ، واتزود صالحاً لنفسى ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : أخرنى ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيغرغر بروحه ، وتتردد انفاسه فى شراسيفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب اصل ايمانه فى صدمات تلك الأهوال ، فاذا زهقت نفسه ، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة.

ترتيب

التوبة عن بعض المعاصى المذكورة ـ أعنى المحرمات وترك الواجبات ـ واجب بفتوى الشرع ، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصى يكون معذبا بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً فى النظام الكلى . وأما التوبة عن بعض آخر منها ، كالخواطر

(١) البقرة ، الآية : ٤٠ . (٢) المؤمنون الآية ٨ . المعارج ، الآية : ٣٢ .

والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك ، فليس واجباً بهذا المعنى ؛ لمنافاته انتظام العالم . إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته ، لتركوا المعائش ورفضوا الدنيا بالكلية ، وذلك يؤدى إلى بطلان التقوى رأساً ؛ لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى . فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار ، بل هى واجبة بمعنى آخر ، وهو ما لا بد منه للوصول به الى غاية القرب الى الله ، والى المقام المحمود والدرجات العالية . فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه ، ومن طلب الوصول الى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطياً ، بمعنى توقف مطلوبه عليه ، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء واكابر العرفاء والعلماء ، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية . وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات ، لا عن ذنوب كذنوبنا ، لتعاليهم وتقدسهم عن ذلك . قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كان يتوب الى الله ويستغفره فى كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب . ان الله ـ تعالى ـ يخص أولياءه بالمصائب ، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا ، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله » . وبمضمونه أخبار أخر .

فصل

(لا بد من العمل بعد التوبة)

لا يكفى فى تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها فى المستقبل ، بل لا بد من محو آثارها التى انطبعت فى جوهر النفس بنور الطاعات ، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه ، كما ترتفع من

نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة ، فان تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً ، كما قال - تعالى - :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١)

فاذا تراكم الرين صار طبعاً ، فيطبع على قلبه ، كما أن الخبث في وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده ، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده . فالتائب من الذنوب لابد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل ، كما لا يكفي في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار . وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات . واليه الاشارة بقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . فاذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ، بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة ، لقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتق الله حيث كنت » ؛ ولأن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع اليه من حسنة تضادها ، إذ الضد إنما يرتفع بالضد . فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه ، ويكفر مس المصحف محدثاً باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل

(١) المطففين ، الآية : ١٤ .

شراب حلال هو أحب اليه ... إلى غير ذلك وليس ذلك ـ أي ايقاع المناسبة ـ شرطاً في المحو . فقد روى : «أن رجلا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: إني عالجت أمرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس ، فاقض علي بحكم الله ، فقال : أما صليت معنا ؟ قال : بلى ! فقال : إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة ، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو . قال الله ـ تعالى ـ:

« إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ » (١) : أي عن قرب عهد بعمل السوء . وقال : « وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْآنَ » (٢) .

قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « ذلك اذا عاين أمر الآخرة » . وقد ورد مثله عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أيضاً .

فصل

(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم ، وفضلها جسيم ، قال الله ـ تعالى ـ :

---

(١) النساء ، الآية : ١٦ .　　(٢) النساء ، الآية : ١٧ .

«إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (١)

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : «إن الله ـ تعالى ـ أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها». وقال ـ عليه السلام ـ : «التائب من الذنب كمن لاذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ». وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : «إن الله يحب من عباده المفتن التواب»: يعني كثير الذنب كثير التوبة. وقال ﷺ : «اذا تاب العبد توبة نصوحا، أحبه الله فستر عليه»، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسى ملكيه ماكانا يكتبان عليه، ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله ـ عز وجل ـ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب». وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : «إن الله ـ عز وجل ـ اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله ـ عز وجل ـ :

«إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ...» إلى آخره (٢)، وقوله:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ـ الى قوله ـ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (٣).

(١) البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٢) البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٣) المؤمن، الآية: ٧ ـ ٩.

وقوله : « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ، إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ ـ الى قوله ـ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » (١) . » .

وقال أبو الحسن ـ عليهما السلام ـ : « أحب العباد الى الله المنيبون التوابون » .

فصل

(قبول التوبة)

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع، ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ : « هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » (٢) . وقوله ـ تعالى ـ : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » (٣) . وقوله ـ تعالى ـ : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً » (٤) .

وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إن الله ـ تعالى ـ يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وطالب التوبة يقبله ألبتة .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٦٨ ـ ٧٠ .
(٢) الشورى ، الآية : ٢٥ .
(٣) المؤمن ، الآية : ٣ .
(٤) النساء ، الآية : ١٠٩ .

وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، كما يذهب الماء الوسخ » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم ، لتاب الله عليكم » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل فى الجنة » ، قيل: كيف ذلك يا رسول الله !؟ قال : « يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « كفارة الذنب الندامة » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته . ثم قال : إن السنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته . ثم قال : إن الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته . ثم قال : إن الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته . ثم قال : إن يوماً لكثير ، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته » . وقال الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنها ليست إلا لأهل الايمان » ، فقال له : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد فى التوبة ؟ قال : « يا محمد بن مسلم ! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ » ، قال : فانه فعل ذلك مراراً ، يذنب ثم يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات . فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » . وقوله ـ عليه السلام ـ : « اذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده الى حلقه ـ لم تكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة » .

وقوله ـ عليه السلام ـ : « إن آدم ـ صلى الله عليه ـ قال: يارب ! سلطت عليّ الشيطان ، وأجريته مني مجرى الدم ، فاجعل لى شيئاً ، فقال : يا آدم ! جعلت لك : إن من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة ،

ومن همّ منهم بحسنة ، فإن لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن هو عملها كتبت له عشراً ، قال : يا رب ! زدني ، قال : جعلت لك : إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يا رب ! زدني ، قال : جعلت لهم التوبة ، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه ، قال : يا رب ! حسبي ». وقول الصادق ﷺ : « إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة » ، قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : « نعم ! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ما قتاً لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة » . وقوله ـ عليه السلام ـ : « العبد المؤمن اذا ذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات ، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وإن الكافر لينسى من ساعته » . وقوله ﷺ : « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي ، إلا غفرها الله له ، ولا خير فيمن يقارف في يومه اكثر من أربعين كبيرة » (١) . وروى : « أن الله ـ تعالى ـ لما لعن ابليس سأله النظرة ، فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله ـ تعالى ـ : بعزتي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » . وورد في الاسرائيليات : « أن شابا عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرآة ، فرأى الشيب في لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين

---

(١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي : باب الاعتراف بالذنوب ، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة ، وباب التوبة ، وباب الاستغفار من الذنوب ، وباب فيما اعطى الله ـ عز وجل ـ آدم وقت التوبة .

سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت اليك اتقبلنى؟ فسمع قائلا يقول : أجبتنا فاجبناك ، فتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فامهلناك ، فإن رجعت الينا قبلناك ، . والأخبار والآثار فى هذا المعنى اكثر من أن تحصى ، وفى بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضاً .

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج فى هذا المعنى إلى بيان ، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله ، ويعلم أن القلب خلق فى الأصل سليما صافياً ، إذ كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما مرض واسودّ بامراض الذنوب وظلماتها ، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ، ولا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات ، كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار ، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار . نعم اذا تراكمت الذنوب بحيث صارت ريناً وطبعاً ، وافسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لاتفيده التوبة ، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب ، وإن قال باللسان تبت،إذ اوساخ الذنوب غاصت فى تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير ، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب وهلاكه ، لصيرورة الاوساخ جزءاً من جوهره ، كما أن الثوب الذى غاص الوسخ فى تجاويفه وخلله وتراكم فيه ، لو بولغ فى تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك الى انخراقه . وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله ، فانهم لا يرجعون ولا يتوبون، لصيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسخة فى نفوسهم وغاصت أوساخها فى تجاويف قلوبهم ، بحيث لا ينتبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان ، والقلب غافل خال عن الايمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها .

فصل

(طرق التوبة عن المعاصي)

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي ـ كما ذكرناها ـ لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والافعال البهيمية المتعلقه بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم الى اقسام ثلاثة :

أحدها — ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها : أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان.

وثانيها — المحرمات التي بين العبد وبين الله، أعني المنهيات التي هي حقوق الله : كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها : أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

وثالثها — الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، او في العرض، أو في الحرمة، أو في الدين :

فما كان في (المال) : يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه. وإلا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً

عن حقه ، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته .

وما كان فى (النفس) : فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية ،وإن كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو اولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه ، أو يجعل فى حل ، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه ، فيقابل به الاعدام والاماتة ، وعليه الرجوع أيضاً الى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وماكان فى (العرض): بأن شتمه ، أو قذفه ،أو بهته ، أو اغتابه، فحقه أن يكذّب نفسه عند من قال ذلك لديه ، ويستحل من صاحبه مع الامكان، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره ، فإن خاف ذلك ، فليكثر الاستغفار له ، ويبتهل الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان فى (الحرمة) : بأن خان مسلماً فى اهله وولده أو نحوهما ، فلا وجه للاستحلال ، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان فى حرمته ووطىء زوجته ، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الديانة ، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال الى الله المتعال، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه فى مقابلة خيانته ، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الأموال ، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ، ويسعى فى مهماته واغراضه ، ويتلطف به ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، فربما سمحت نفسه فى القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة خيانته ، فان كل ظلم وايذاء وحق من حقوق العباد اذا لم يحل صاحبه يوم

القيامة يقتص من الظالم فى يوم القيامة بالحكم العدل القهرى بأخذ العوض ، سواء رضى الظالم أم لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا ، كما أنه يحكم فى الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل ، ويقهر على ذلك ، ويحكم على هذا الغير بقبوله . ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول ، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين فى محكمة القيامة ، فيقتص من كل ظالم موذ بأخذ حسناته ووضعها فى موازين أرباب المظالم ، فان لم تف بها حسناته ، حمل من سيئات أرباب المظالم ، فيهلك المسكين بسيئات غيره . وبذلك يعلم: انه لا خلاص لأحد فى القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات ، ومع الرجحان - ولو بقدر مثقال - تحصل النجاة ، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى فى تكثير الحسنات وتقليل السيئات ، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين ، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال فى الليل والنهار إلى الله - سبحانه - ، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر ، ويرضى خصمه بخفى ألطافه .

وما كان فى (الدين) : بأن نسب مسلماً الى الكفر أو الضلالة أو البدعة ، فليكذب نفسه بين يدى من قال ذلك عنده ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال الى الله ليرضيه عنه يوم القيامة .

ومجمل ما يلزم فى التوبة عن حقوق الناس : ارضاء الخصوم مع الامكان ، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار ، والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال ، وليرضيهم عنه يوم القيامة . ويكون ذلك بمشية الله ، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده ، ووجد ذله وانكساره ، ترحم عليه

وأرضى خصماءه من خزانة فضله . فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله .

فصل

(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم أنّ صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأنّ اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر ، قال الله - تعالى - :

« إنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ » (١) . وقال : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإثْمِ وَالفَواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ » (٢) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر » . واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها ، فيكفّ نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك ، فلا يصلح للتكفير . فكذلك من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه . فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله .

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف ، لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا

---

(١) النساء ، الآية : ٣٠ . (٢) النجم ، الآية : ٣٢ .

وهو كبير بالإضافة الى مادونه، وصغير بالإضافة إلى مافوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله. واختلفت الروايات فيها أيضاً.

والأظهر بالنظر الى الروايات والى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نصّ الكتاب النهي عنه . ويعني بوصفه بالكبيرة : أنّ العقوبة بالنار عظيمة ، أو أنّ تخصيصه بالذكر في القرآن يدلّ على عِظمه . ويمكن أن يقال : إنّ الشرع لم يعينها ، وأبهمها ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها ، ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات ، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع اسماء الله . والحاصل : أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق اليه الابهام . والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة . فإن موجبات الحدود معلومة بأساميها ، وإنما حكم الكبيرة أنّ اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والابهام أليق به ، حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر .

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أنّ الصغيرة قد تكبر بأسباب :

احدها — الاصرار والمواظبة ، ولذلك قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « لا صغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » . والسر فيه : أن الصغيرة لقلة تأثيرها لاتؤثر في القلب باظلامه مرة أو مرتين ، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في

القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صبّ عليه دفعة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله -صلى الله عليه وآله- : « خير الأعمال أدومها ، وإن قل » . وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت ، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت . ثم معرفة الاصرار موكول الى العرف . قال الباقر عليه السلام في قوله -تعالى- :

« وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١) :

« الإصرار : أن يذنب الذنب ، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار » .

وثانيها — استصغار الذنب ، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة ، لعدم تأثره به . ولذلك ورد في الخبر : « أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » . وقال رسول الله -صلى الله عليه وآله- : « اتقوا المحقرات من الذنوب ، فإنها لا تغفر » ، قيل : وما المحقرات ؟ قال : « الرجل يذنب الذنب ، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » . وروى : « انه -صلى الله عليه وآله- نزل بأرض قرعاء ، فقال لأصحابه : ائتونا بالحطب ، فقالوا : يا رسول الله ! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب ، قال : فليأت كل انسان بما قدر عليه . فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال -صلى الله

(١) آل عمران ، الآية : ١٣٥ .

عليه وآله ـ : هكذا تجتمع الذنوب ، إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً ، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ « لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة . فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً ، يقول أحدكم : أذنب واستغفر الله . إن الله ـ تعالى ـ يقول :

« وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » (١) . وقال ـ عز وجل ـ : « إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٢) » .

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الله يحب العبد أن يطلب اليه في الجرم العظيم ، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » . وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ : « لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف » (٣) . والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن : كونه عالماً بجلال الله وكبريائه ، فإذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً ، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه : « لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ، ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها » .

---

(١) يس ، الآية : ١٢ .
(٢) لقمان ، الآية : ١٦ .
(٣) صححنا الاحاديث كلها على اصول الكافي (باب التوبة ، وباب تفسير الذنوب) .

ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : « إنكم تعملون اعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ، وكنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات » ، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر.

وثالثها — أن يأتى بالصغائر ولا يبالى بفعلها ، اغترارا بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يعلم أنه انما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً ، فتزهق أنفسهم وهم كافرون ، فمن ظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله به ، فهو جاهل بمكامن الغرور ، وآمن من مكر الله الذى لا يأمن منه إلا الكافرون .

ورابعها — السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها فى تسويد قلبه . فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله ، أو غبنه فى ماله فى المعاملة ، ثم فرح به ، ويقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ وكيف فضحته ؟ وكيف روجت عليه الزيف ؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه ، إذ الذنوب مهلكات ، وإذا ابتلى بها العبد فينبغى أن يتأسف من حيث إن العدو ـ اعنى الشيطان ـ ظفر به وغلب عليه ، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه ، فالمريض الذى يفرح بانكسار انائه الذى فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه ، لا يرجى شفاؤه .

وخامسها — أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد اتيانه ، أو يأتى به فى مشهد غيره ، فإن ذلك خيانة منه على الله الذى أسدله عليه ، وتحريك الرغبة والشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما خيانتان انضمتا الى خيانته فتغلظت به ، فإن انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة ، وتفاحش الأمر . وهذا لأن من

صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالاظهار كفران لهذه النعمة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ، ومن جاءنا يبدى عورة قد سترها الله فنحوه » .

وسادسها — أن يكون الآتى بالصغيرة عالماً يقتدى به الناس . فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه ، كبر ذنبه ، وذلك كلبسه الذهب والابريسم ، وأخذه مال الشبهة ، واطلاقه اللسان فى أعراض الناس ، ونحو ذلك . فهذه ذنوبٌ يقتدى العالم فيها ويتبع عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً فى العالم ، فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ، وفى الخبر : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شىء » . قال الله ـ تعالى ـ

« وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارهم » (١)

والآثار : ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل . فعلى العالم وظيفتان : ـ احداهما ـ ترك الذنب ، والأخرى ـ اخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات اذا اتبع فيها ، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات اذا اتبع .

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط فى تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر : من طول الندم ، وقضاء العبادات ، والخروج عن مظالم العباد . وطول البكاء والحزن والحسرة ، واسكاب الدموع ، وتقليل الأكل ، وارتياض النفس ، ليذوب

(١) يس ، الآية : ١٢ .

عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة ، قال أمير المؤمنين ﷺ لمن قال بحضرته : استغفر الله : « ثكلتك امك ! أتدرى ما الاستغفار ؟ إن الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها : الندم على ما مضى ، والثانى : العزم على ترك العود عليه ابداً ، والثالث : أن تؤدى الى المخلوقين حقوقهم حتى تلق الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدى حقها ، والخامس : أن تعمد الى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد ، والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله » .

فصل

(هل يصح التبعيض فى التوبة)

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح ، بشرط ألا تكون الذنوب التى يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التى لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله ، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس ، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً أو غصباً أو قهراً ، أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر ، كالذى يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر . والدليل على امكان ذلك وصحته : أن العبد إذا علم أن الكبائر اعظم اثماً عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو اليها ، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر ، وكذا اذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض ، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف ، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية

شديدة ، فلا يقدر على الصبر عنها ، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل ، فيمكنه الترك بسهولة ، فيتوب عنه دون الأول ، وان كان الأول أغلظ وأشد اثماً ، كالذى شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة . فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر ، فالتوبة عن بعض المعاصى دون بعض مع اختلافهما نوعاً بأى نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه . بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل . إذ كثر التائبون فى الأعصار الخالية والقرون الماضية ، ولم يكن أحد منهم معصوماً ، فيكون كل منهم جازماً بأنه يصدر عنه معصيته البتة . ويدل على الصحة قوله - عليه السلام - : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، حيث لم يقل : التائب من الذنوب . نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول ، لاستوائهما فى حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله . فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام ، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، اذ لو كان ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، أو عن اخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم . . . وهكذا . والحاصل : أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما فى العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلهما فيهما غير معقول .

ومن العلماء من قال : إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً ، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم ، وانما يندم على السرقة - مثلاً - لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لأجل المعصية ، اذ العلة شاملة لهما ؛ لأن من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن التوجع انما هو بفوات المحبوب ، سواء كان بالسيف أو بالسكين ، وكذلك توجع التائب انما هو لفوات المحبوب

بالمعصية . سواء عصى بالسرقة أو بالزنا ، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه .

فصل

(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها ، وبين من بقي في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها : والأول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة ، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط : والأول من الأول أفضل من الثاني ، والثاني منه أدون من الثاني ، والوجه ظاهر . وأيضاً التائبون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه ، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه . ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل ، لأنه يصدّه عنه ، والنسيان بالنظر الى المنتهي السالك والواصل الى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه أنه لا يعود أفضل ، لانه شغل مانع عن سلوك الطريق ، وحاجب من الحضور بلا فائدة . ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب ، لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة بالأمة ، فإنهم بعثوا لارشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع الأمة بمشاهدته ، وإن كان نازلاً عن ذروة مقامهم . ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « أما إني لا أنسى ، ولكن أنسى لأشرع » (١) . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة ، والأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل الى درجة نطق الصبي ، والراعي

---

(١) الحديث نبوي مروي في احياء العلوم : ٤ / ٣٨ .

لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر، تلطفاً في تعليمه.

فصل

(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة الى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود الى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة هي التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري احواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي اليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها، ولها حسن الوعد من الله - تعالى - بقوله:

«الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ» (١).

والى مثلها الاشارة بقوله - صلى الله عليه وآله -: «خياركم كل مفتن تواب». وفي خبر آخر: «المؤمن كالسنبلة، يفيء أحياناً ويميل أحياناً». وفي خبر آخر: «لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة» (٢): أي

---

(١) النجم، الآية: ٣٢.

(٢) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم: ٤ / ٣٩.

الحين بعد الحين . وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرّين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص ، ومثله مثل الطبيب الذى يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين . ومثل الفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار فى أوقات نادرة . ولا ريب فى نقصانه . فالعالم حق العالم هو الذى لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المختطفات ، إذ امثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الاصلاح ، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمداً وقصداً ، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة . وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم ، والنفس التى هذه درجتها هى التى تسمى النفس المسولة المسؤل صاحبها ، واليها الاشارة بقوله - تعالى - :

« وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً » (١) .

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليها . ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها ،

---

(١) التوبة ، الآية : ١٠٢ .

فربما اختطفها الموت قبل التوبة ، ويقع أمرها فى المشيئة ، فيدخل فى زمرة السعداء، أو يسلك فى سلك الأشقياء ، أو يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود الى الذنوب عمداً وقصداً ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل فى الذنوب واتباع الشهوات. وهذا معدود من المصرين ، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار ، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره الى الله ، ولعله يعذب فى النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ، ثم يخلص منها بعميم لطفه .

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغى أن يمنعه ذلك عن التوبة ، علماً منه أنه لافائدة فيه، فإن ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم ، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود الى الذنب .

وأما الخوف من العود ، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم ، فإن وفى به فقد نال مطلبه ، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها ، وليس عليه إلا هذا الذنب الذى أحدثه الآن . وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة ، فلا يمنعك خوف العود من التوبة، فإنك من التوبة أبداً بين احدى الحسنيين : ـ احداهما ـ العظمى : وهى غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه فى الاستقبال . ـ وثانيتهما ـ وهى الصغرى : غفران الذنوب الماضية ، وإن لم يمنع العود الى الذنب فى المستقبل . ثم إذا عاد الى

الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة ، ويتبعه بحسنة تمحوها ، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب : وهي الندم ، والتضرع الى الله ، والتذلل له ، واضمار الخير للمسلمين، والعزم على الطاعات ، أو باللسان : وهي الاعتراف بالظلم والاساءة ، وكثرة الاستغفار ،أو بالجوارح : وهي أنواع الطاعات والصدقات . وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها . وفي الخبر : ان الذنب اذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجواً : أربعة من اعمال القلوب ، وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة . وأربعة من اعمال الجوارح، وهي : أن تصلي عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله ـ تعالى ـ بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ، ثم تصوم يوماً . وفي بعض الأخبار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعضها : تصلي أربع ركعات . ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلاً ، بل هو توبة الكذابين ، لما ورد من : أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله ، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة ، أي ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلية للقلب ، كما اذا سمع شيئاً مخوفاً ، فيقول على الغفلة : استغفر الله ، أو نعوذ بالله ، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه ، وأما اذا انضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها ، وإن علم أن نفسه الامارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة ،

فالاستغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله ـ تعالى ـ:

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهْ » (١).

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن اثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات إلى أن يثقل فتسل كفة السيئات. فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحقر ذرات المعاصى فلا تتقيها، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد، وأى غنى يحصل منه، وما وقع ذلك فى الثياب، ولا تدرى أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغى تحقير شىء من الطاعات. قال الصادق ـ عليه السلام ـ: « إن الله ـ تعالى ـ خبأ ثلاثاً فى ثلاث: رضاه فى طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه. وغضبه فى معاصيه، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته فى عباده، فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولى الله ». فإذاً الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلاً، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وإن كان نقصاً بالإضافة

(١) الزلزال، الآية: ٧ ـ ٨.

الى عمل القلب ، فينبغى ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ، ويجتهد فى اضافة حركة القلب اليها، ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة ، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب : أن يتذكر ما ورد فى فضلها ـ كما مر ـ ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها ، وما ورد فى الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل فى حكايات الأنبياء وأكابر العباد ، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية ، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصى ، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد فى الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته ـ كما دل عليه الأخبار الكثيرة ـ ويتذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب : كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والكذب ، والغيبة ، وأخذ المال الحرام . . . وغير ذلك من احاد المعاصى مما لا يمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة ، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب ، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالى ، إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج . فمن تأمل فى جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة ، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك ، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد ، وينبغى أن يجتهد فى قلع اسباب الاصرار من قلبه : اعنى الغرور ، وحب الدنيا ، وحب الجاه ، وطول الأمل . . . وغير ذلك .

فصل

(الانابة)

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله ، والاقبال على الله - تعالى - بالسر والقول والفعل ، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته ، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها ، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله ، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً اليه - سبحانه - ، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية . قال الله - سبحانه - :

« وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ » (١) . وقال - سبحانه - : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » (٢) . وقال : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، اُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » (٣) .

وانابة العبد تتم بثلاثة امور :

الأول — أن يتوجه اليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني — ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه .

الثالث — أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية .

---

(١) الزمر ، الآية : ٥٤ .
(٢) المؤمن ، الآية : ١٣ .
(٣) ق ، الآية : ٣١ — ٣٥ .

المحاسبة والمراقبة

﴿ تذنيب ﴾ — اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة فى ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب ، ومثلها فى كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتى الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التى يتوقف تماميتها عليهما فى فصول .

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

﴿ المحاسبة ﴾ : أن يعين فى كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو وجدها فى هذا اليوم والليلة مقصرة فى طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله ـ سبحانه ـ لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شىء من الخيرات والطاعات المندوبة .

﴿ والمراقبة ﴾ : أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً ، حتى لا يقدم على شىء من المعاصى ، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ، ويأتى اعتبار امور واعمال أخر فيه عرفاً .

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم أن الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمناقشة فى الحساب ، والمطالبة بمثاقيل الذرّ من

الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ » (١) . وقال : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٢) . وقال : « وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » (٣) . وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (٤) . وقال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً » (٥) . وقال : « ثُمَّ تُوَفَّى

---

(١) الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٢) المجادلة ، الآية : ٦ .

(٣) الكهف ، الآية : ٥٠ .

(٤) الزلزال ، الآية : ٦ ـ ٨ .

(٥) آل عمران ، الآية : ٣٠ .

كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ » (١) . وقال :
« فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ » (٢).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » . وورد بطرق متعددة : أن كل أحد فى يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه . والآيات والأخبار الواردة فى محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير اكثر من أن تحصى ، وبإزائها أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة فى الدنيا ، والترغيب عليها ، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة ، وخطره ومناقشته . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وطالبها فى الأنفاس والحركات ، وحاسبها فى الخطرات واللحظات ، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله : خفّ فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه : دامت حسراته ، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزى سيئاته ، قال الله - سبحانه - :

« وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ » (٣)

والمراد بهذا النظر : المحاسبة على الأعمال . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا » . وقال الصادق عليه السلام : « إذا أراد أحدكم ألاّ يسأل ربه شيئاً إلا اعطاه فلييأس

(١) البقرة ، الآية : ٢٨١ . آل عمران ، الآية : ١٦١ .
(٢) الحجر ، الآية : ٩٢ . (٣) الحشر ، الآية : ١٨ .

من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله - تعالى - ، فاذا علم الله - تعالى - ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه ، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإن للقيامة خمسين موقفاً ، كل موقف مقام ألف سنة . ثم تلا :

« فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١) » .

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله ، يدل على أن الانسان إنما يرجو الناس من دون الله فى عامة أمره وهو غافل عن ذلك ، وأنَّ عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك ، وذكر الوقوف فى مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه فى الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج الى تلك الوقفات فى ذلك اليوم ، وقال ﷺ : « لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله - تعالى - ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للمرء ألا يهبط من رؤس الجبال ، ولا يأوى الى عمران ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولاينام ، إلا عن اضطرار متصل بالتلف ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة فى كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدى الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه الى عرصاتها مدعو وفى غمراتها مسؤل . قال الله - تعالى - :

« وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » (٢) . » (٣) .

وقال الكاظم - عليه السلام - : « ليس منا من لم يحاسب نفسه فى كل

---

(١) المعارج ، الآية : ٤ .

(٢) الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٣) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٨٠ ، ص ١٨٦ .

يوم ، فإن عمل حسنة استزاد الله - تعالى - ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه ، . وفى بعض الأخبار : ينبغى أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه . . .

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم أن العقل بمنزلة تاجر فى طريق الآخرة ، ورأس ماله العمر ، وقد استعان فى تجارته هذه بالنفس ، فهى بمنزلة شريكه أو غلامه الذى يتجر فى ماله ، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة الى نعيم الأبد وسعادة السرمد ، وخسرانها المعاصى والسيئات المؤدية الى العذاب المقيم فى دركات الجحيم ، أو نقول: رأس مال العبد فى دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى ، وموسم هذه التجارة مدة العمر ، وكما أن التاجر يشارط شريكه اولاً ، ويراقبه ثانياً ، ويحاسبه ثالثاً ، وإن قصر فى التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج فى مشاركة النفس الى أن يرتكب هذه الأعمال ، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ (المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه ، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً .

فأول الأعمال فى المرابطة (المشارطة) : وهى أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق فى كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصى ، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله ، ولا يقصر فى شيء من الطاعات الواجبة ، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل . والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها ، فيخاطب النفس ويقول لها : يا نفس ! ما لي بضاعة سوى العمر ، ومهما فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة

وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد ، وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه . ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً ، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت ، فاياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد . ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار : من أن كل عبد خلقت له بإزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فإذا مات تفتح له هذه الخزائن ، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها ، فإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي أطاع الله فيها ، يراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة . فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار ، وإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي عصى الله فيها ، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاه ظلامها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها ، فإذا فتحت له خزانة بإزاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره ، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه . وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تركني الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك ، فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة ، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال اليها ابناء نوعك مما لا يطاق ، ثم يستأنف لها وصية في

اعضائه السبعة : أعني العين ، والأذن ، واللسان ، والفرج ، والبطن ، واليد ، والرجل . ويسلمها اليها ؛ لأنها رعايا خادمة لها فى التجارة ، ولا يتم اعمال هذه التجارة إلا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصى التى تصدر عنها ، وباعمال كل منها فيما خلق لأجله ، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ، وبالنوافل والخيرات التى تقدر عليها . وهذه شروط يفتقر اليها كل يوم ، لكن إذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن اعتادت بالعمل فى بعضها لم تكن حاجة الى المشارطة فيه ، وبقيت الحاجة اليها فى الباقى ، وكل من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا : من ولاية ، أو تجارة ، أو تدريس ، أو أمثال ذلك : لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فيها حق ، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق فى مجاريها ، وينبغى أن يوصيها بالتدبر فى عاقبة كل امر يرتكبه فى هذا اليوم والليلة . وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روى : « أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وآله - وقال : يا رسول الله ! أوصنى ، فقال له : فهل أنت مستوص إن أنا اوصيتك ؟ - حتى قال له ذلك ثلاثاً ، وفى كلها يقول الرجل : نعم يا رسول الله ! - فقال له رسول الله ﷺ : إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن يك راشداً فامضه ، وإن يك غياً فانته » . ويظهر من هذا الخبر : أن التأمل فى عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة ، فينبغى أن يؤكد العهد والميثاق فى ذلك على النفس ويحذرها عن الاهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجرى مجراه هو المشارطة ، وهو

أول مقامات المرابطة .

وثانيها (المراقبة) : وهو أن يراقب نفسه عند الخوض فى الاعمال ، فيلاحظها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله فى كل حركة وسكون ، بأن يعلم أن الله ـ تعالى ـ مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على اعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب فى حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » (١) . وقال : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » (٢).

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وفى الحديث القدسى : « إنما يسكن جنات عدن ، الذين إذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى ، والذين انحنت اصلابهم من خشيتى ، وعزتى وجلالى ! إنى لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب » . وحكى : « أن زليخا لما خلت بيوسف ، فقامت وغطت وجه صنمها . فقال يوسف : ما لك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ؟ ! » . وهذه المعرفة ـ اعنى معرفة اطلاع الله على العباد واعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم ـ اذا صارت يقيناً ـ أى خلت عن الشك ـ ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه ، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : ـ احداهما ـ

(١) النساء ، الآية : ١ .   (٢) العلق ، الآية : ١٤ .

مراقبة المقربين ، وهى مراقبة التعظيم والاجلال ، وهى أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال ، ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً ، وكفاه الله سائر الهموم ، ـ وأخراهما ـ مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم ، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال ، بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة ، فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون الى انتظار القيامة . ثم ينبغى للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها فى لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها .

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة ؛ لأنه إما أن تكون فى طاعة ، أو معصية ، أو مباح . فمراقبته فى الطاعة بالقربة ، والاخلاص ، والحضور ، والاكمال ، وحراستها عن الآفات ، ومراعاة الأدب . ومراقبته فى المعصية : بالتوبة ، والندم ، والاقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتكفير . ومراقبته فى المباح : بمراعاة الأدب ، بأن يأكل بعد التسمية ، وغسل اليدين ، وسائر الآداب المقررة فى الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة ، وبالشكر عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره . ويكفّ النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده الى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال ، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وينبغى ألا

يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل ، كالذكر والفكر وتخليص النية . فإن الطعام الذى يتناوله من عجائب صنع الله ، فلو تفكر فيه وتدبر فى فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من اعمال الجوارح ، والناس عند الأكل على أقسام : (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك ، وهؤلاء هم أولو الألباب . (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار اليها ، ويتمنون الاستغناء عنه ، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته ، وهؤلاء هم الزهاد . (وقسم) يرون فيه خالقه ، ويشاهدون فى الصنع الصانع ، ويترقون منه الى صفات الخالق ، من حيث إن كل معلول اثر من العلة ، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته ، فمشاهدته تذكر العلة ، بل التأمل يرشدك الى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وايجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك ، وسر ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون الصانع فى كل مصنوع ، والخالق فى كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب اليه اشتغل قلبه بالمحبوب ، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر اليه من الموجودات هو صنع الله - تعالى - ، فله فى النظر منها الى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت . (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة ، وليس نظرهم الى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم ، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم ، وهؤلاء اكثر أهل الدنيا .

وثالثها — أى ثالث مقامات المرابطة واعمالها - هو (المحاسبة) بعد العمل ، فإن العبد كما يختار وقتاً فى أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ، ينبغى له أن يختار وقتاً فى آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى آخر كل سنة مع الشركاء . وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب فى يوم القيامة ، وقد ورد فى الأخبار : أن العاقل ينبغى أن يكون له اربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب . ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين فى غاية السعى والاهتمام فى محاسبة النفس ، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة ، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه اتم من محاسبة شريكه ، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة ، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح ، إذا علم أن محاسبة النفس فى الدنيا تسقطه أو توجب خفته ، كيف يجوز له أن يتركها ؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل : أن يطالب نفسه اولاً بالفرائض التى هى بمنزلة رأس ماله ، فإن ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها فى مثلها ، وإن فوتتها من اصلها طالبها بالقضاء ، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، واستوفى منها مايتدارك به مافرط ، كما يصنع التاجر بشريكه . وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان

حتى لا يغبن فى شىء منها ، كذلك ينبغى أن يفتش عن افعال النفس ويضيق عليها ، وليتق غائلتها وحيلتها ، فإنها خداعة مكارة ملبسة : فليطالبها اولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره فى صعيد القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع افعاله واحواله : من نظره ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، وأكله ، وشربه ، حتى عن سكوته لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره ، وأفكاره ، وصفاته النفسية ، وأخلاقه القلبية ، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث أدت الحق فى الجميع ، ولم تترك شيئاً مما يجب عليها ، ولم ترتكب شيئاً من المعاصى : حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم ، ولم يمكن شيئاً باقياً عليها ، وإن أدت الحق فى البعض دون البعض ، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوباً لها ،ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى على شريكه على قلبه وعلى جريدته . ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون ، أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شىء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

ورابعها — وهو آخر مقامات المرابطة ـ (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، وإلزامها الرياضات الشديدة ، فإنه إذا حاسب نفسه ، فوجدها خائنة فى الأعمال ، مرتكبة للمعاصى ، مقصرة فى حقوق الله ، متوانية بحكم الكسل والبطالة فى شىء من الفضائل ، فلا ينبغى أن يهملها ، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها . فينبغى للعاقل أن يعاتبها أولاً ،

ويقول : اف لك يا نفس اهلكتيني وعن قريب تعذبين فى النار مع الشياطين والأشرار ، فيا ايتها النفس الأمارة الخبيثة ! أما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين ؟ ! فما اعظم جهلك وحماقتك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى احداهما عن قريب ؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين ؟ أما علمت أن الموت يأتى بغتة من غير اخبار ، وهو أقرب اليك عن كل قريب ؟ فما لك لا تستعدين له ؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرته وأنت عالمة بأنه مطلع عليك ؟ ! ويحك يا نفس ! جرأتك على معصية الله إن كانت لا عتقادك أنه لا يراك فما اعظم كفرك ، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك ، وما أعجب نفاقك ، وكثرة دعاويك الباطلة ! فإنك تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ! فتنبهى عن رقدتك وخذى حذرك ! لو أن يهودياً أخبرك فى ألذ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه ! ولو اخبرك طفل بعقرب فى ثوبك نزعتيه ! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيراً عندك من قول يهودى أو طفل ؟ ! . . . فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات،ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه، جبراً لما فات منها وتداركا لما فرط فيها ، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع،وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر ، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة ، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها. وإذا استهان بفقير اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال فى سائر المعاصي والتقصيرات.

وطريق العلاج فى إلزام النفس ـ بعد تقصيرها فى العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات ـ أمران :

الأول — تذكر ما ورد فى الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد فى الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق ﷺ: «طوبى لعبد جاهد فى الله نفسه وهواه ! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله ، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله ـ تعالى ـ فقد فاز فوزاً عظيماً ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله ـ تعالى ـ من النفس والهوى ، وليس لقتلها وقطعها سلاح وآلة مثل الافتقار الى الله ، والخشوع ، والجوع والظماء بالنهار ، والسهر بالليل ، فإن مات صاحبه مات شهيداً ، وإن عاش واستقام اداه عاقبته الى الرضوان الأكبر ، قال الله ـ عز وجل ـ :

« وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » (١) .

وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك فى الاجتهاد ، فوبخ نفسك ولمها وعيرها ، تحثيثاً على الازدياد عليه ، واجعل لها زماماً من الأمر ، وعناناً من النهى ، وسقها كالرابض للفارة الذى لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صحح اولها وآخرها ، وكان رسول الله ﷺ يصلى حتى تورمت قدماه ، ويقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً) ، أراد أن يعتبر به امته . فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال . ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ، ورأيت بركاتها ، واستضأت بنورها ، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً

---

(١) العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

اربا ، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق »(٢) . قيل لربيع بن خثيم : مالك لاتنام بالليل ؟ قال : « لأنى اخاف البيات » . والأخبار الواردة فى فضل السعى والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى اكثر من أن تحصى .

الثانى — مصاحبة أهل السعى ، والاجتهاد فى العبادة ، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات ، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم ، حتى قال بعضهم : « إذا اعترتنى فترة فى العبادات ، نظرت الى بعض العبّاد واجتهاده فى العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً » . إلا أن ذلك غير مرجو فى أمثال زماننا ، إذ لم يبق فى عباد الله من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين . فينبغى أن يعدل من المشاهدة الى سماع احوالهم ، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم ، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع على كيفية اجتهادهم فى طاعة الله ، يعلم أنهم عباد الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة ، قال بعض اصحاب أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة السلام ـ : « صلينا خلفه الفجر ، فلما سلم انتقل الى يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً شبههم ، وكانوا يصبحون شعثاً غبرا صفرا ، فقد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ـ عز وجل ـ ، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين » . وكان اويس القرنى يقول

(١) الحديث بطوله مروي عن (مصباح الشريعة) : باب ٨١ ص ١٨٤ ، مع اختلاف يسير هنا ، فصححناه عليه كما كان هناك .

فى بعض الليالى : « هذه ليلة الركوع » فيحيي الليل كله فى ركعة ، ويقول فى بعضها : « هذه ليلة السجود » فيحيي الليل كله فى سجدة . وقال ربيع بن خثيم : « أتيت اويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر ، فجلست موضعاً ، وقلت : لا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه ، فقال : اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع » . وروى : « أن رجلاً من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده فى النار حتى نشت (١) عقوبة لها » . وبعضهم نظر الى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة ؟ ثم اقبل على نفسه وقال : تسألين عما لا يعنيك ؟! لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها » وروى: « أن ابا طلحة الأنصارى شغل قلبه فى الصلاة طير فى الحائطة ، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاته من الحضور فى الصلاة » . وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلى على قدم واحدة حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء . وكان بعضهم يقول : « ما اخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين صلاة الليل » . وحكى رجل : « أنه نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب (٢) وكان له أهل وبنات . وفى كل ليل يقوم ويصلى إلى السحر ، فاذا كان السحر ينادى بأعلى صوته : ايها الركب المعرسون ! (٣) اكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون ؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب ،

(١) النشيش : صوت غليان الماء .

(٢) المحصب - بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد - : موضع بمكة على طريق منى ، ويسمى (بطحاء) .

(٣) التعريس : نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة ، من قولهم : عرس القوم .

فيتواثبون بين باك وداع ، وقارىء ومتوضىء . وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى » . وهكذا كان عمل عمال الله ، وسلوك سالكى طريق الآخرة ، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء ، اشرنا الى انموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال فى مرابطة النفس ومراقبتها ، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امثالنا ، بل هم قوم آخرون . قال بعض الحكماء : « إن لله عباداً انعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليه ، فصارت قلوبهم معادن اصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت ، وتلوز (١) بحجب العيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها ، فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناً ، وفى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وطريقهم لا يبلغ اليها بالتكلف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء » . فعليك ياحبيبى بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم ، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك ، وأياك أن تنظر الى أهل عصرك ، ولعمرى ! قلّ فى أمثال زماننا من يذكرك الله رؤيته ، ويعينك فى طريق الدين صحبته ، فإن تطع اكثر من فى بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله .

ومنها :

الفتور

وهى فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً . وضدها : النية ، وترادفها : الارادة والقصد ، وهى

(١) فى القاموس : اللوز ــ بالزاي ــ : الملاذ والملجأ .

انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً . والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة فى الدنيا أو الدين ، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس الى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد اليه فضيلة وكمال ، وإن كان شراً وشقاوة ، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة ، والنية له وارادته رذيلة . ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والكف ، إن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة ، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك . فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية ، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين متعلقة بقوة الغضب ، والنية فى العبادات مع انضمام التقرب اليها تسمى إخلاصاً . ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة ، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب فى نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة . وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة ، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك ، كان بهذا الاعتبار . والآيات والأخبار الواردة فى ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار ، كما وصف الله الغافلين وقال :

« إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » (١) .

وقال : « أُولَئِكَ هُمُ الغافِلونَ » (٢) .

﴿ تنبيه ﴾ : الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث الى ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم ، أو مع العلم به ومع النسيان عنه ، أو مع التذكر له ، وربما خص فى عرف

---

(١) الفرقان ، الآية : ٤٤ . (٢) الاعراف ، الآية : ١٧٨ .

أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر . ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات .

تتميم

(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين ، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين ، إذ الاهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي الى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن اداء الفرائض والنوافل تنجر إلى ابطال غاية الايجاد - اعني بلوغ كل شخص الى كماله المستعدله - ، وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد .

وصل

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عبادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية .

* * *

قد عرفت أن ضد الغفلة النية ، وهي انبعاث النفس وتوجهها الى ما يراه موافقاً لغرضها ، وقد عرفت ايضاً ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهي واسطة بين العلم والعمل ، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد ، وما لم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها ، والعمل ثمرتها وفرعها ، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لايتم إلا بعلم وشوق وارادة

وقدرة ، إذ كل انسان خلق بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فاحتاج الى جلب الموافق ودفع المخالف المنافى ، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع ، والمنافى الضار ، إذ ما لم يعرف الشىء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه ، وهو العلم ، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه ، وهو الشوق ، إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب ، ما لم يكن شوق الى التناول والهرب ، وعلى القصد والشروع والتوجه اليه ، وهو النية ، إذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق اليه لا يريده لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر ، وعلى القدرة المحركة للأعضاء اليه - أى الى جلب الملائم أو دفع المضار - وبها يتم الفعل ، فهى الجزء الأخير للعلة التامة التى بها يتم فعل الفاعل المختار ،فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجده إلاّ بالقدرة ، والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الداعية الباعثة - اعنى الشوق - ،والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقاً له،فإن كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية ، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة : كأكل ، وشرب ، وجماع ، وكسب مال ، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية ، كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها ، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية : من دفع موذ ، أو طلب الاستعلاء ، أو تفوق ، وامثال ذلك ، كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها . وقد ظهر بما ذكر : أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب - أعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به - وهو الباعث الأول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثانى ، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء الى جانب العمل .

فصل

(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث ، أى باعثه الأول ، إما واحد : كالقيام للاكرام ، أو للهرب من السبع المتهجم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساوياً أو متفاوتاً : كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر الى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء ، أو بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع ، كالمثال المذكور بالنظر الى من يعطى ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد ، أى لا يعطيه قريبه الغنى ، ولا الأجنبي الفقير ، أو مع استقلال بعض دون بعض : بأن يكون للثانى تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث ، إن خيراً فخير : كالدخول فى المسجد لزيارة الله ، ولانتظار الصلاة ، والاعتكاف والانزواء والتجرّد للذكر ، وترك الذنوب ، وملاقاة الاتقياء واخوانه المؤمنين ، واستماع المواعظ واحكام الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وإن شراً فشرّ : كالقعود فيه للتحدث بالباطل ، وملاحظة النساء ، والمناظرة للمباهاة والمراآة ، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً : كالتصدق للثواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول ، وبعض البواعث الثانية ، والعمل الذى باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه فى باب الاخلاص . ثم باعث العمل المباح إن كان خيراً يجعله عبادة ، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة ، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الأذى بالنتن ، والأكل لقوة العبادات ، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة ، والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة ، وإن كان شراً يجعله معصية ، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة ، والتزين للزنا ، ولا يؤثر فى الحرام ، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران

والاخوان، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية ،بخلاف الطاعات والمباحات، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالفاسدة تصير أعظم المهلكات، فما أعظم خسران من يغفل عن النية ، ويتعاطى الأعمال تعاطى البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة.وقد كانت غاية سعى السلف أن يكون لهم فى كل شيء نية صحيحة ، حتى فى أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء .

ولا ريب فى إمكان تصحيح النية فى كل مباح ، بحيث يترتب عليه الثواب ، بل يمكن تصحيح النية فى كل نقصان مالى وعرضى ، فإن من تلف له مال ، فإن قال : هو فى سبيل الله ، كان له أجر ، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوى كونه من ذخائر الآخرة ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته ، فاياك أن تستحقر شيئاً من نياتك وخطرات قلبك ، ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة ، فإن لم تحضرك النية توقف ، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار ، وقد قيل : « إن من دعا أخاه الى طعام بدون رغبة باطنة فى اجابته ، فإن أجابه فعليه وزران : النفاق ، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه ، وإن لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق ! » . فلابد للعبد من خالص النية فى كل حركة وسكون ، لأنه إذا لم يكن كذلك كان غافلاً ، والغافلون قد وصفهم الله ـ تعالى ـ فقال :

« إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » (١) .

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم ، قال الصادق عليه السلام : « صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم ; لأنه سلامة القلب من هواجس

(١) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

المحذورات بتخليص النية لله فى الأمور كلها ، قال الله ـ عز وجل ـ :

« يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (١) .

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات فى معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله ـ تعالى ـ والحياء منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، فى تعب ، والناس منه فى راحة ، (٢) .

فصل

(النية روح الأعمال ، والجزاء بحسبها)

النية روح الأعمال وحقيقتها ، والجزاء يكون حقيقة عليها ، فإن كانت خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ كانت ممدوحة ، وكان جزاؤها خيراً وثواباً ، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة ، وكان جزاؤها شراً وعقاباً ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (٣) .

---

(١) الشعراء ، الآية : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) هذا بعض الحديث المذكور فى مصباح الشريعة ـ الباب الرابع ص ١٣٥ ـ ، وفى البحار ـ الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر ، باب النية وشرائطها ومراتبها ، ص ٧٧ ، ط أمين الضرب ـ . لكن المذكور فى البحار فيه اختلاف يسير عما فى المصباح ، فصححناه على البحار ، لكون المذكور فى البحار أصح مما فى المصباح .

(٣) الانعام ، الآية : ٥٢ .

والمراد بالارادة : النية ، لترادفهما - كما تقدم - . وأوحى الله الى داود: «ياداود! لا تطاول على المريدين، ولو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها ، يا داود! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميداً ، ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين » . وقال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات . ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه»، وإنما قال ذلك حين قيل له : إن بعض المهاجرين الى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء ، فبين ﷺ : أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه ، ويصل الى ما ينويه ، كائناً ما كان ، دنيوياً كان أو أخروياً. وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول مايعلمونه أولادهم ، وكانوا يقولون : انه نصف العلم . وقال - صلى الله عليه وآله - : « ان الله لاينظر الى صوركم واموالكم ، وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » ، وانما ينظر الى القلوب لأنها مظنة النية . وقال ﷺ : « ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة ، فتلقى بين يدى الله - تعالى - ، فيقول : القوا هذه الصحيفة ، فإنه لم يرد بما فيها وجهي ، ثم ينادى الملائكة : اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا ! انه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول الله - تعالى - : انه نواه » . وقال ﷺ : « الناس أربعة : رجل آتاه الله - عز وجل - علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله - تعالى - مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يتخبط بجهله في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الوزر

سواء ، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه ؟ ! » . ولما خرج ﷺ إلى غزوة تبوك ، قال : « ان بالمدينة اقواماً ، ما قطعنا وادياً ، ولا وطأنا موطئاً يغيظ الكفار ، ولا انفقنا نفقة ، ولا أصابتنا مخمصة ، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة » ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ، وليسوا معنا ! ؟ فقال : « حبسهم العذر ، فشاركونا بحسن النية » . وفي الخبر : « أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بايدي بعض الكفار ، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه ، فقتل على على ذلك فاضيف إلى نيته . وهاجر رجل إلى الجهاد مع اصحاب النبي ﷺ ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها ـ وتسمى أم قيس ـ فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر أم قيس » . وفي أخبار كثيرة : « من همّ بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة » ، كما تقدم ، وقد ورد : أنه اذا التقى المسلمان بسيفهما ، فالقاتل في النار ، وكذا المقتول ، لأنه أراد قتل صاحبه . وقال ﷺ : « اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل الدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا » . وقال ﷺ : « من تزوّج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان ، ومن استدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق ، ومن تطيب لله ـ تعالى ـ جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة » (١) ، وكل ذلك مجازاة على حسب النية . وقال الصادق عليه السلام : « إن العبد المؤمن الفقير ليقول : يا رب ! ارزقني حتى

---

(١) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم : ٤ / ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، باب فضيلة النية .

أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير ، فاذا علم الله - عز وجل - ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إن الله واسع كريم». وسئل ﷺ عن حد العبادة التي اذا فعلها فاعلها كان مؤديا ، فقال : «حسن النية بالطاعة». وقال ﷺ :« وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله - تعالى - ابداً ، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلى قوله - تعالى - :

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ » (١)

قال : على نيته »(٢) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى . وأى شبهة في أن عماد الأعمال النيات ، والعمل مفتقر الى النية ليصير خيراً ، والنية في نفسها خير وأن تعذر العمل ، وعون الله - تعالى - للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره ، فرب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل ، ونقل :« أن بعض المريدين يطوف على العلماء ويقول : من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله - تعالى - ، فإني لا أحب أن تأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله - تعالى - . فقال له بعض العلماء : أنت قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فاذا فترت أو تركته فهم بعمله ؛ إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به » . ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحا له : إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه ، وإنما فائدته للأثر الذي

---

(١) الاسراء ، الآية : ٨٤ .

(٢) صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي - الجزء الثاني ، باب النية - .

يصل منه إلى النفس من النورانية والصفاء. ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال اليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء ، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة ، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها ، وكونها لله - سبحانه - من دون شوب الأغراض ، بل التأمل يعطى أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية ، وإن كانت حادثة لأجل العمل .

فصل

(عبادة الاحرار والأجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر : أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر فى الآخرة إلا مايراد التقرب الى الله والدار الآخرة ، أى يراد به وجه الله من حيث هو ، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل إلى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجه الله ، واخلصها له لكونه أهلا للعبادة ، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله ، فاحبه واشتاق اليه ، ولا يريد سواه ، ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق فى لجة شهوده ، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه اليه بطاعته : فجزاؤه أن يحبه الله ويجتبيه ، ويقربه الى نفسه وبدنه قرباً معنويا ودنواً روحانياً ، كما قال فى حق بعض من هذا صفته :

« وإنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلفَىٰ وَحُسنَ مَآبٍ » (١)

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « إلهى ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك ، لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

(١) ص ، الآية : ٢٥ ، ٤٠ .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب ، نظراً إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً ، وأن له جنة ينعم بها المطيعين ، وناراً يعذب بها العاصين ، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره : فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخله جنته ، وينجيه من ناره ، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات ، كما اخبر الله -تعالى- عنه فى غير موضع من كتابه ، فان لكل امرىء ما نوى ، ولا تصغ الى قول من ذهب الى بطلان العبادة اذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للاخلاص الذى هو ارادة وجه الله وحده ، وأن من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع إلى نفسه ، ودفع الضرر عنها ، لا وجه الله - سبحانه - ، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فإن حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً ، لا مجرد قول الناوى عند العبادة : أفعل كذا قربة إلى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث الى التقرب ، هيهات هيهات ! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس ، وما ذلك إلا كقول الشبعان : اشتهى هذا الطعام ، قاصداً حصول الاشتهاء ، وهذا الانبعاث اذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقربا اليه، لأنهم لا يعرفون من الله - تعالى - إلا المرجو والمخوف ، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصاً من كان ملتفتاً إلى الدنيا ، فإنه قلما تنبعث له داعية الى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة ، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله - تعالى - لاستحقاقه

الطاعة والعبودية ، فانه قلّ من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يطاق ، وليس معنى الاخلاص فى العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس ، كمدح الناس ، ونيل المال ، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك ، وظاهر أنه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد فى الآخرة ، وإن كان من جنس المألوف فى الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً ، إذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار بما رغب وعد به ورهب وأوعد عليه ، وما ورد فى الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَيدْعونَنا رَغبَاً وَرَهبَاً » (١)

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغنى عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه . ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة باحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة فى عبادته الى إحداهما وهو لا يشعر به .

ومما يدلّ صريحاً على ما ذكرناه قول الصادق ـ عليه السلام ـ: « العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ خوفا ، فتلك عبادة العبيد . وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالى ـ طلب الثواب ، فتلك عبادة الاجراء . وقوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ حباً له ، فتلك عبادة الأحرار ، وهى افضل العبادة » (٢) . وهذا يدلّ على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل ايضاً ، فضلاً عن أن تكون صحيحة . نعم ، لا ريب فى أن العبادة على

(١) الأنبياء ، الآية : ٩٠ .
(٢) صححنا الرواية على اصول الكافى : الجزء الثانى ، باب العبادة .

الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين ، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم ، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى وجه الحور العين بالملتفت الى الصور المصنوعة من الطين ، وكما يسخر المتنعم بالنظر الى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التى تعرض عن النظر الى وجوههن وتلتفت الى صاحبتها وتألف بها ، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار ، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء ، كيف والتفاوت فى الثانى متناه وفى الأول غير متناه . وأى نسبة للمتناهى الى غير المتناهى ؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته ، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس ، وكون الغرض الأصلى من العمل تأثير القلب بالميل الى الله - تعالى - وتوقفه على النية ، فهى خير من العمل ، بمعنى أن العمل إذا حلل الى جزئيه يكون جزؤه القلبى - اعنى النية - خيراً من جزئه الجسمانى - اعنى ما يصدر من الجوارح - ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه ، ولذا قال الله - سبحانه - :

« لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » (١) .

---

(١) الحج ، الآية : ٣٧ .

فإن المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، و بذلها ايثاراً لوجه الله ، دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم ، وإن عاق عن العمل عائق ، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم ، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته ، ولذا ورد : أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، لأن هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى ، وهو غاية الأعمال الحسنة ، وإنما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيداً . وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور : « نية المؤمن خير من عمله ، ونية الكافر شر من عمله » . وكل عامل يعمل على نيته .

وحاصله : أن كل طاعة تتضمن نية وعملا ، وكل منهما من جملة الخيرات ، وله أثر فى المقصود ، وتكون النية خيراً من العمل وأثرها أكثر من أثره . والغرض : أن للمؤمن اختياراً فى النية وفى العمل ، فهما عملان ، والنية من الجملة خيرهما ، أى النية التى هى جزء من طاعته خير من عمله الذى هو جزؤها الآخر ،

فإن قيل : ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيراً وذا ثواب . واذا كان بدونها لايكون خيراً ولا يكون له ثواب ، والمقصود كون النية خيراً من العمل فى الصورة الأولى وكون ثوابها اعظم ، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت ،

قلت : ذلك وإن ظهر اجمالا ، إلا أنه لابد لتوضيحه لتظهر جلية الحال ، فنقول :

الوجه فى كون النية خيراً من العمل وراجحة عليه فى الثواب : أنه لاريب فى أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها فى الآخرة وتنعمها

بلقاء الله ـ سبحانه ـ ، والوصول الى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه ، وهى موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها الى الله ـ سبحانه ـ ، فاذا حصل بمجرّد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه الى الله ـ تعالى ـ كان ضعيفاً غير راسخ ، وإنما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصى بالجوارح، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر ، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس ، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص ، فالطاعات التى هى فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها الى صفة النفس ـ اعنى التوجه والميل الى الله سبحانه ـ ، فالنفس هو الأصل والمتبوع والأمير ، والجوارح كالخدم والأتباع ، وصفات القلب هى المقصودة لذاتها ، وافعال الجوارح هى المطلوبة بالعرض ، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس ـ اعنى الميل والنية والتوجه ـ ولا ريب فى أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض ، وثوابه أعظم من ثوابه .

ومن المعانى الصحيحة للحديث : أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوى خيرات كثيرة لا يوفق لعملها ، إما لعدم تمكنه من الوصول الى أسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لمانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول الى اسبابها ، كالذى ينوى إن آتاه الله مالا ينفقه فى سبيله ، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق ، فهذا نيته خير من عمله . وايضا المؤمن ينوى دائماً أن تقع عباداته على أحسن الوجوه ، لأن ايمانه يقتضى ذلك ، ثم اذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك ، ولا يأتى بها كما يريد ، فما ينويه دائماً خير مما يعمل به فى كل عبادة . والى هذا أشار الباقر عليه السلام حيث قال : « نية المؤمن خير من عمله ،

وذلك لأنه ينوى الخير ما لا يدركه . ونية الكافر شرّ من عمله ، وذلك لأن الكافر ينوى الشر ويأمل من الشر مالا يدركه » . وقيل للصادق ﷺ : سمعتك تقول : نية المؤمن خير من عمله ، فكيف تكون النية خيراً من العمل ؟ قال ﷺ : « لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطى - عز وجل - على النية ما لا يعطى على العمل » ، ثم قال : « إن العبد لينوى من نهاره أن يصلى بالليل فتغلبه عينه فينام ، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » . وبعض الأخبار المتقدّمة يعضد ذلك ويؤكده ايضاً . وقيل: معنى الحديث : « إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلا نية » . وفيه : أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً ، فلا معنى للترجيح فى الخيرية . وقيل : سبب الترجيح : « إن النية سرّ لا يطلع عليه إلا الله ، والعمل ظاهر ، وفعل السرّ أفضل » . وهذا وإن كان فى نفسه صحيحاً ، إلا أنه ليس مراداً من الحديث ، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله - تعالى - بقلبه أو يتفكر فى مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذى هو الذكر والتفكر ، مع اشتراك النية والعمل فى السرية ، وبداهة كون الذكر والتفكر خيراً من نيتهما .

فصل

(النية غير اختيارية)

النية غير داخلة تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا أو آجلا ، وهذا الميل اذا لم يكن حاصلا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإخطار بالبال والاجراء على اللسان ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن اشتهى الطعام وأميل اليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلاناً وأحبه ،

فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب اسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما قد تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث ، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوه ، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً ، واذا اعتقد فإنما يتوجه القلب اذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه ، وذلك لا يمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لها اسباب كثيرة بها ، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والأحوال والأعمال ، فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً فى الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد ، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية اجابة الباعث ، ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوى الولد ، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية ، وكانوا يقولون : ليس تحضرنى نية ، وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب . وروى : « أنه اتى الصادق ﷺ مولى له ، فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف ﷺ انصرف معه الرجل ، فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل ، فقال له ابنه اسماعيل : يا أبه ! ألا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأنى ادخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يا بنى ! إنى اكره أن يكتبنى الله عراضاً » .

تتميم

(الطريق فى تخليص النية)

الطريق فى تخليص النية فى الطاعات تقوية ايمانه بالشرع، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، واذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه

رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية. مثلا من لم تكن له نية الولد فى النكاح، بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة، فينبغي له أن يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى فى تكثير امة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره، واذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب.

ومنها:

الكراهة

وهى نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب، فاذا قويت سميت مقتاً. وضدها الحب، وهو ميل الطبع الى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقاً.

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا اضدادها ـ اعنى الشوق والنية والحب والانس ـ امور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير اجمالا إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب.

فنقول: قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها الى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلا أو آجلا، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضاً ضدان ومبدآن للغفلة والنية.

بيان ذلك: أن معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذى لم يصل اليه وكان مفقوداً عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فان الشوق مجرد الرغبة الى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس الى طلبه فى

مفهومه ، والنية هي الانبعاث المذكور ، فالشوق مبدأ النية ، والنية مترتبة عليه ، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما ايضاً ـ اعنى عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الكراهة والحب) : فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم ، وعن ميله الى الملذ ، سواء انبعثت النفس عن طلبه أم لا ، وبهذا يفترق الحب عن النية ، فان النية هي انبعاث النفس ، وهو مغاير لمجرد الميل ، بل الميل منشأ للانبعاث ، وسواء حصل الوصول الى الملذ أم لا ، وبهذا يفترق عن الشوق ، فإن الشوق يعتبر فى مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب ، والحب يكون مقارنا لهما ألبتة ، فاذا حصل الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقى الحب بدونهما . وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الانس) : فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه . والبعد عبارة عن عدم الوصول إلى المحبوب أو الوصول الى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته ، لعدم الرغبة اليه أو للتنفر عنه ، فالحب منشأ الأنس ، والأنس يترتب عليه ، وهو غاية المحبة ، فلا يخلو انس عن المحبة ، والمحبة قد تكون بدونه ، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة ، كالعلم بحقائق الأشياء ، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية ، كالاستيلاء والغلبة ، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية ، كالمال والأزواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة ـ أعنى عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد ـ وأضدادها ـ اعنى الشوق والارادة والحب والانس ـ متعلقة بتلك القوة ، معدودة من رذائلها أو فضائلها . ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا ، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل ، وإن

كان مما يذم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس .

فصل

الشوق ـ افضل مراتب الشوق الشوق الى الله ـ تعلق الحب بجميع القوى ـ أقسام الحب بحسب مباديه ـ لا محبوب حقيقة إلا الله ـ الشهود التام هو نهاية درجات العشق ـ سريان الحب فى الموجودات ـ رد المنكرين لحب الله ـ معرفة الله اقوى سائر اللذات ـ تحقيق رؤية الله فى الآخرة ولذة لقائه ـ الطريق إلى الرؤية واللقاء ـ تفاوت المؤمنين فى محبة الله ـ الواجب اظهر الموجودات ـ علائم محبة الله ـ معنى حب الله لعبده ـ الحب فى الله والبغض فى الله ـ الوفاء فى الحب ـ الانس ـ الانس قد يثمر الادلال .

° ° °

قد تقدم تفصيل الكلام فى النية والغفلة .

وأما الشوق ، فنقول فى بيانه : قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشىء عند غيبته ، فان الحاصل الحاضر لا يشتاق اليه ، إذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لا يطلب ، فالشوق لا يتصور إلا إلى شىء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فما لا يدرك أصلا لا يشتاق اليه ، إذ لا يتصور أن يشتاق أحد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكماله لا يشتاق اليه ايضاً ، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل اليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق ، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه ، وهذا إنما يكون باحد وجهين :

(احدهما) أن يتضح الشىء اتضاحا ما ، ولم يستكمل الوضوح ،فاحتاج الى استكماله . فيكون الشوق الى ما بقى من المطلوب مما لم يحصل . مثال ذلك : أن من غاب عنه معشوقه،وبقى فى قلبه خياله ،يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية،

ومن رأى معشوقه فى ظلمة ، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته ، يشتاق إلى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق ، كما انه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده .

(ثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب ، ووصل اليه ، وعلم اجمالا أن له كمالات أخر ، ولم يدركها ولم يصل اليها ، فيكون له شوق الى ادراك تلك الكمالات . مثال ذلك : أن يرى وجه محبوبه ، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه ، فيشتاق الى رؤية ذلك .

فصل

(أفضل مراتب الشوق الشوق الى الله)

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله ـ سبحانه ـ والى لقائه ، وهى المظنة إلى الوصول اليه ، والى حبه وانسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال السالكين ، ومفتاح أبواب السعادة للطالبين ، والوجهان الموجبان للشوق متصوران فى حق الله ، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلا يخلو عارف من الشوق الى الله :

أما الوجه الأول ، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني ، (لا) سيما اذا انضاف اليها شواغل الدنيا ،فكمال الوضوح فى الأمور الإلهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلى ، ولا يكون ذلك فى هذا العالم ، بل يكون فى الآخرة ، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين الى الله ـ سبحانه ـ ، وهو الشوق الى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما .

وأما الثاني ، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل

عارف بعضها، وتبقى امور غير متناهية خفية عنه. والعارف اجمالا وجودها، وكونها معلومة لله - تعالى - ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات اكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا الى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها اصلا ، لا مع الوضوح ولا مع الابهام والاجمال . والشوق الأول ربما انتهى فى الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء المعنوى لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها ، وأما الشوق الثانى فلا يمكن أن ينتهى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد فى الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ما هو معلوم لله - تعالى - وهو محال ، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة ، فتمتنع احاطة الانسان بها ، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقى من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها ، فيشتاق اليها أابتة ، واذا كان اصل الوصال واللذة حاصلا ، فربما كان الشوق الى المراتب التى فوق مرتبتها شوقا لذيذاً لا يظهر فيه ألم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتها متوالية الى غير النهاية ، وتحصل للعبد هذه الدرجات فى الآخرة على التدريج ، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له المه ، فإن امكن فى الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا ، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجددها فى الآخرة ممكناً ، وإن لم يكتسب اصلها فى الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد فى الآخرة على الدوام والاستمرار

من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله ـ تعالى ـ :

« نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » (١) :

اشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور فى عين ما استنار فى الآخرة استنارة محتاجة الى الظهور، ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق ، وإن اختص حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التى تزود من أصلها ولم يحصل للعبد مالم يكتسب فى الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات ، فيكون ترقى العبدفى الآخرة فى ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له اصله ، وعلى هذا ، فربما انتهى الى حد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله ـ تعالى ـ : « نورهم يسعى . . . الى آخر الآية ، يحتمل لهذا المعنى ايضاً ، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله . (قيل) : وقوله تعالى :

« أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً » (٢) :

يدل على أن الأنوار لابد أن يتزود أصلها فى الدنيا ، ثم يزداد فى الآخرة اشراقاً ، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله فى الدنيا فلا .

ثم لايخفى أن تعيين الأصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أى شيء أصل لأى نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا : أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعى الاجمالى بأن الواجب ـ سبحانه ـ فى غاية العظمة والجلال

---

(١) التحريم ، الآية : ٨ . (٢) الحديد ، الآية : ١٣ .

والقدرة والكمال ، وأنه تام فوق التمام ، وكل ما سواه من المهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله ، وأن ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية ، ولا لمدرك من المدارك المتعالية ، عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما ، لو أمكن أن يكون مدركاً ، أن يدرك فى لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور اجمالا فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وافعاله ، وأن صفاته الكمالية : من عظمته ، وجلاله ، وقدرته ، وجماله ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك غير متناهية ، وليس لها حدّ وغاية ، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوّة وكمالا ، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال ما لا يطيق اشرف الموجودات واقواها لادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به ، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له الى عالم الآخرة وما فيه ، وأن ألطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه ، فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لاسيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها . وقد ظهر مما ذكر : أنه لا ريب فى ثبوت الشوق للعباد الى الله -سبحانه- ، والعجب ممن انكر حقيقة الشوق الى الله -سبحانه- لانكاره المحبة له -كما يأتى- ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار . ولا ريب فى ثبوته -ايضاً- من الآيات والأخبار : قال الله -سبحانه- :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ... » الى آخر الآية (١)

(١) الكهف ، الآية : ١١٠ .

فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق . وقال رسول الله ﷺ في دعائه : « اللهم إنى أسألك الرضاء بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت . ولذة النظر الى وجهك الكريم ، وشوقاً الى لقائك » . وفى بعض الكتب السماوية : « طال شوق الأبرار الى لقائى ، وأنا الى لقائهم لأشد شوقاً » . وفى اخبار داود ﷺ : « إنى خلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعمتها بجلالى » . وفيها ايضاً : « أنه تعالى اوحى إلى داود : يا داود ! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلىّ ؟ قال : يا رب ! من المشتاقون اليك ؟ قال : إن المشتاقين إلىّ الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلىّ خرقا ينظرون إلى ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم ادعو بملائكتى ، فإذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : انى لم اجمعكم لتسجدونى ، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين الىّ ، واباهى بهم اياكم ، فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ، يا داود ! انى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثين ، وجعلت ابدانهم موضع نظرى الى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به الىّ ، يزدادون فى كل يوم شوقاً » . واوحى الله اليه ايضاً : « يا داود ! لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إلى ، وتقطعت اوصالهم عن محبتى » . وفى بعض الأخبار القدسية : « ان لى عباداً يحبوننى واحبهم ، ويشتاقون الى واشتاق اليهم ، ويذكروننى واذكرهم ، واول ما اعطيتهم ان اقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما اخبر عنهم ، ولو كانت السماوات والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقل بها لهم ، واقبل بوجهى عليهم ، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه » . وقال الصادق ﷺ : « المشتاق لا يشتهى طعاماً ، ولا يلتذ

شراباً ، ولا يستطيب رقاداً ، ولا يأنس حميماً ، ولا يأوى داراً ، ولا يسكن عمراناً ، ولا يلبس ثياباً ، ولا يقر قراراً ، ويعبد الله ليلاً ونهاراً ، راجياً بأن يصل الى ما يشتاق اليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما فى سريرته ، كما أخبر الله ـ تعالى ـ عن موسى بن عمران فى ميعاد ربه بقوله : (وعجلت اليك رب لترضى) ، وفسر النبي ﷺ عن حاله : (أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك فى ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً الى ربه)، فاذا دخلت ميدان الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع جميع المألوفات ، واصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك : لبيك اللهم لبيك ! أعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة إلا خلاصه ، وقد نسى كل شيء دونه »(١) . وما ورد فى الأدعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضاً .

وأما (الكراهة والبغض وضدهما ـ اعنى الحب ـ) فنقول : قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذى هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملذ .

وتوضيح ذلك : أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وادراك ، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان مالا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من خاصية الحى الدراك ، بعد حصول الادراك بالفعل .

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذه ، والى ما يخالفه ويؤلمه ، والى ما لا يؤثر فيه بالذاذ وايلام ، فالقسم الأول يكون مرغوباً عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله اليه حباً ، والقسم الثانى يكون

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

منفوراً عنده ، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضاً ، والثالث لا يوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوباً ، ولا مكروهاً . ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملذ ونيله ، فالحب الذى هو الميل والرغبة اليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله ، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل ، وإن كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

الحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة ، التى هى الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة . فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنغمات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النفيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر الى الحس الظاهرة . ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الملائمة الخيالية ، والمعانى الجزئية الملائمة بالنسبة الى المتخيله والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالمعانى الكلية ، والذوات المجردة . ولا ريب فى أن العقلى من الحب واللذات أقوى اللذات وابلغها ، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً فى حقائق الأشياء وبواطنها من الحس ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلٰهية التى جلت عن

ادراك الحواس اتم وابلغ، ولذا جعل رسول الله ﷺ الصلاة أبلغ المحبوبات عنده فى الدنيا، حيث قال: «حبب إلىّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»، فإن الإلتذاذ بالصلاة لذة عقلية، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية، وبالنساء نظرية ولمسية.

فإن قيل: حقيقة الانسان نفسه الناطقة، ولها ثلاث قوى، وهى: العاقلة، والشهوية، والغضبية، وقوى اخرى هى: الحواس الظاهرة والحواس الباطنة، وشأن العاقلة - كما ذكرت - ادراك المعانى الكلية، والحقائق المجردة، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعانى الجزئية، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتى الغضب والشهوة، من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدهما، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره؟

قلنا: المحب والملتذ أولاً فى كل من هذه المدركات هو المدرك، وثانياً وبالواسطة هو النفس، إذ كل ادراك يتعلق بإحدى القوى، ليصل بالآخرة الى النفس، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتى الشهوة والغضب لابد أن يصل اليهما ايضاً، فيحصل لهما اللذة أو الألم، وبواسطتهما يصل الى النفس، فالمدرك أولا للغلبة أو العجز هو الوهم، فيلتذ أو يتألم، ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والألم الى القوة الغضبية، ويصل منها الأثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هى الذائقة والشامة واللامسة، فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهوية، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة

والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة . وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالأمر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل

(اقسام الحب بحسب مباديه)

اعلم أن اسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام :

الأول — حب الانسان وجود نفسه وبقاءه وكماله ، وهو أشد اقسام الحب واقواها ، لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه ، ولا هو بشيء اقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه (١) . وكيف لا يكون حب الشيء لذاته أقوى المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ ؟ وأى اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة ، كما بين الشيء ونفسه ، فالمحب والمحبوب واحد ، وسبب الحب غريزة فى الطباع بحكم سنة الله :

« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » (٢)

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده ، ومكرها لعدمه وهلاكه ، فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا يبغض كل احد الموت ، لا بمجرد ما يخافه بعده ، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه ، ولذا لو اختطف من غير الم وتعب ، وأميت من غير ثواب وعقاب ، كان كارهاً لذلك ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال

---

(١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

(٢) الاحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ .

الوجود محبوب ؛ لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب فى اصل الذات وبقائه وفى صفات كماله ، والعدم ممقوت فيها جميعاً .

والتحقيق : أن المحبوب ليس إلا الوجود ،والمبغوض ليس إلا العدم ، وجميع الصفات الكمالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقائص راجعة الى العدم ، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التى هى من مراتب الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فاذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده ، وبذلك يظهر :أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم، كان اجمع لمراتب الوجودات فى القوة والشدة والعدة، وكانت صفاته الكمالية اقوى واكثر ، لكونها من مراتب الوجودات ، فالوجود الواجبي الذى هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوى فيه جميع الوجودات ، ويكون محيطاً بالكل ، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم ؛ لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله ، وأن لم يصل منه اليه نفع وحظ ؛ لعلمه بانه خليفته فى الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع فى بقاء نفسه ، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله،وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه.فانه يرى نفسه كبيراً قوياً لأجلهم،متجملا بسببهم ،إذالعشيرة كالجناح المكمل للانسان(١).

(١) كما قال أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ : « واكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذى به تطير ،واصلك الذي اليه تصير ، ويدك التى بها تصول » نهج البلاغة : ٣ / ٦٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

الثانى — حبه لغيره لأجل انه يلتذ منه لذة حيوانية. كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الانسان المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع فى هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع الزوال ، واضعف المراتب ، لخساسة سببه وسرعة زواله .

الثالث — حبه للغير لأجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل لفاجر على يداً فيحبه قلبي » . فالسبب الجامع فى هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان الى القسم الأول ، لأن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الأعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ، والجماع : محبوبة لأن بها كمال وجوده وهى عين الكمال ، وأما الطبيب الذى هو سبب الصحة ، والعالم الذى هو سبب العلم ، ومعطى الطعام والشراب ، والمرأة التى هى آلة الوقاع : محبوبة لا لذواتها ، بل من حيث إنها وسائل الى ما هو محبوب لذاته ؛ فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة ، والكل يرجع إلى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقاً ، بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . وبالجملة : يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه .

الرابع — أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق به ، وذلك

لحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدركه ، وذلك لعين الجمال ؛ لأن ادراك الجمال عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لايتصور إلا لأجل قضاء الشهوة. فان قضاء الشهوة لذة حيوانية، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها، وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها، ولا ريب فى أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم ، وبالجهة الثانية ممدوح ، والعشق الذى يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية ، ويكون ممدوحا إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال ، ولأجل التباس السبب فى هذا العشق اختلف العقلاء فى مدحه وذمه ، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر ، مع أن الخضرة والماء الجارى محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء ، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية ، وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل ، حتى الانسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها . وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول ، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، إذ يقال : هذا صوت حسن ، وهذا طعم حسن ، وهذا ريح طيب ، وليس شىء من هذه الصفات مدركة بالبصر ، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس ، لوجودهما فى غيرها ، فإن اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شىء من هذه

الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة،وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع ، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته .

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا : أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ مع أنهم لم يشاهدوهم ،حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق ، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع امواله فى نصرة مذهبه والذب عنه ، ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه أو متبوعه ، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه ، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة : من الورع ، والتقوى ، والتوكل ، والرضا ، وغزارة العلم ، والاحاطة لمدارك الدين ، وانتهاضه لافاضة علم الشرع ، ونشره هذه الخيرات فى العالم ، وجملتها ترجع الى العلم والقدرة ، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات ، وهما ـ اعنى العلم والقدرة ـ غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتماً) بالسخاء و(انوشيروان) بالعدالة ، أحبتهما القلوب حباً ضرورياً، من دون نظرهم الى صورهما المحسوسة ، ومن غير حظ ينالونه منهما ، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه ، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة ، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية ، كان حبه للمعانى الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب سيد الرسل ﷺ لجمال صورته الباطنة .

الخامس ـــ محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية ، أو مجانسة معنوية ،

فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال ، ولا طمع فى جاه ومال ، بل بمجرد تناسب الأرواح ، كما قال النبي ﷺ : « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

السادس — محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع فى بعض المواضع ، لا سيما اذا كان من المواضع الغريبة ، كالسفن والاسفار البعيدة . والسبب فيه : كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقى والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة فى طبيعة الانسان سمى انساناً ، فهو مشتق من الانس دون النسيان - كما ظن - ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد ، أو بينهم وبين أهل القرى ، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة ،من جملة اسرار الأمر بالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين ، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق فى موقف واحد .

السابع — محبته لمن يشاركه فى وصف ظاهر ، كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر إلى التاجر لتجارته ، وهكذا . . . فإن كل شخص مائل الى من يشاركه فى وصفه وصنعته وشغله وحرفته ، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك فى الوصف والصنعة .

الثامن — حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس ، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة ، ومترشحاً عنها ومنبجساً منها ، ومناسباً لها لكونه من سنخها ، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التى كانت منطوية فيها ، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذى كان محتويا عليه ، فكان كلا منهما فى حبه للآخر يحب نفسه .

ثم السبب إن كان علة حقيقية موجدة ، تكون سببية أقوى فى حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة . فأقوى اقسام المحبة ما يكون للواجب

ـ سبحانه ـ بالنسبة إلى عباده ، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة اليه ـ سبحانه ـ ، فإن محبتهم له من حيث كونه موجداً مخرجاً لهم من العدم الصرف إلى الوجود ، ومعطياً لهم ما احتاجوا اليه فى النشأتين ، ومن حيث إنه ـ تعالى ـ تام فوق التمام فى الذات والصفات الكمالية ، والنفس بذاتها مشتاقة الى الكمال المطلق ، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها ، ولذا قال سيد الرسل ﷺ : « ما اتخذ الله ولياً جاهلا قط » . وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم ، من حيث إن الأب سبب ظاهر لوجود الابن ، وإن لم يكن سبباً حقيقياً ، بل علة معدة له ، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه ، ويظنه مثالاً من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ، ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثانى لنفسه ، فيظنه أنه جزؤه وفى الخلق والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ، ويفرح بترجيحه عليه ، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال : إنه فى الآن أفضل من السابق ، ومما يؤكد محبته له : أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه فى حياته ومماته ، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن ، بل هو أضعف ، لفقد بعض الأسباب الباعثة له ، ولذا أمر الأولاد فى الشريعة بحب الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التى بين المعلم والمتعلم من هذا القسم ، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحانى للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه ، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمانية وتربيته الصورية ، فهو والد روحانى له ، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب ، وعلى هذا ينبغى أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقى وأكثر من محبة الأب ، وقد ورد فى الحديث : « أن آباءك ثلاثة : من ولدك ، ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الآباء من علمك » . وسئل عن ذى القرنين : أن أباك أحب اليك أم معلمك ؟ قال : « معلمي أحب إلىّ ، لأنه

سبب لحياتي الباقية ، وأبي سبب لحياتي الفانية » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً » . وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي صلى الله عليه وآله وأوصيائه الراشدين -عليهم السلام- أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله - سبحانه - ، لأنه المعلم الحقيق والمكمل الأول ، ولذا قال صلى الله عليه وآله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وأهله وولده » .

التاسع — محبة المتشاركين فى سبب واحد بعضهم لبعض ، كمحبة الاخوان والأقارب . وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد ، ولذا تكون محبة الأخوين أشد من محبة ابناء الأعمام مثلا ، ومن عرف الله وانتساب الكل اليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذى بين الله وبين مخلوقاته ، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها فى الموجد الحقيق . ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة أو أكثرها فى شخص واحد ، فيتضاعف الحب ، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى والده والى الخلق ، كان حب والده له فى غاية الشدة ، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه ، وربما أحب شخصاً آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس ، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه ، وقد تختلف فيهما أسباب الحب ، فيحب كل منهما الآخر من جهة ، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب ، فكلما كان السبب أكثر واقوى كان الحب أشد وأوكد .

فصل

(لا محبوب حقيقة إلا الله)

اعلم أنه لا مستحق للحب غير الله -سبحانه- ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا هو ، ولو كان غيره - تعالى - قابلا للحب وموضعاً له فإنما هو

من حيث نسبته اليه ـ تعالى ـ ، فمن أحب غيره ـ تعالى ـ لا من حيث نسبته اليه ، فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله ، وكيف يكون غيره ـ سبحانه ـ من حيث هو، لا من جهة انتسابه اليه ، مستحقاً للحب،وهو فى نفسه مع قطع النظر عنه ـ تعالى ـ وعن انتسابه اليه ليس إلا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغى أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، أى من حيث إنها منه ـ تعالى ـ ، وآثاره ، ومعلولاته ، وأضواؤه واظلاله ، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليه ـ تعالى ـ ، كالحب ، والانس ، والمعرفة ، والإطاعة لخصوص النسبة ايضاً .

ومما يوضح المطلوب:أن جميع اسباب الحب مجتمعة فى حق الله ـتعالى ـ، ولا توجد فى غيره حقيقة ، ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له .

أما السبب الأول ــ اعنى محبة النفس : فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له ، ولا وجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجد المخترع له ، وهو المبقى له ، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهالك بعد وجوده لو لا فضله عليه بالابقاء ، وناقص بعد بقائه لو لا فضله عليه بالتكميل ، فليس فى الوجود شىء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذى هو قائم بذاته ومقوم لغيره . وحينئذ ، فمحبة كل شىء لنفسه ترجع الى محبة ربه ، وإن لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل ، ومن أحب النور أحب لا محالة

الشمس التى بها قوام النور ، وكل ما فى الوجود بالاضافة الى قدرة الله ـ تعالى ـ كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس ، إذ الكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع لوجوده ، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص ، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال إنما هو للتفهيم. وبالاضافة الى أوهام العوام. حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما ، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما ، بل هما فايضان من الله ـ تعالى ـ ، موجودان به بعد حصول الشرائط ، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه ـ تعالى ـ.

وأما السبب الثانى ، والثالث — اعنى الإلتذاذ والاحسان ، سواء كان متعدياً الى المحب أم لا: فمعلوم أنه لا لذة ولا إحسان إلا من الله ـ تعالى ـ ، ولا محسن سوى الله ، فإنه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل اسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

وأما الرابع — اعنى الحسن والجمال والكمال : فلا ريب فى أنه ـ تعالى ـ هو الجميل بذاته والكامل بذاته ، وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق ، وحقيقتهما منحصرة به ـ تعالى ـ ، وما يوجد فى غيره ـ تعالى ـ من الجمال والكمال لايخلو عن شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وانما تتفاوت فى درجات النقص . وقد عرفت أن الجمال المعنوى اقوى من الجمال الصورى ، ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوى أكثر واقوى من حبه للجمال الصورى ، وحقيقة الجمال المعنوى الذى هو وجوب الوجود ، وكمال العلم والقدرة ، والاستيلاء على الكل ، واستناد الجميع اليه ، منحصر بالله ـ تعالى ـ ، فإذا كان الجمال

المشوب بالنقص محبوباً ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذى لا يتصور جمال فوقه محبوباً ، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو .

بادهء خاك آلودتان مجنون كند صاف اگرباشدندانم چون كند(١)

على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصورى ، أو بالجمال الباطن المعنوى ، رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فكل من احب جميلا أحب خالقه ، وما احب احداً غير الله - تعالى - ، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله ، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب الى الله - تعالى - ، وباتصافهم بمعالى الصفات وشرائفها المقربة الى الله ، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة ، ومعلوم أن هذه الأمور اضافات الى الله - سبحانه - ، فحبها يرجع الى حبه - تعالى - .

وأما الخامس — أعنى المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية : فلا ريب فى أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها ، إذ هى شعلة من شعلات جلاله ، وبارقة من بوارق جماله ، ولذا قال الله - سبحانه - : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » (٢) . وقال : « إِنِّى جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٣) .

إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة ، وبهذه المناسبة ينقطع العبد الى ربه ، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية ، وهذه المناسبة لا تظهر

(١) إن خمركم الملوث بالغبار يجنني !!
قلست أدري ما هو مفعوله إن كان صافياً !!؟
(٢) بنى اسرائيل ، الآية : ٨٥ .
(٣) البقرة ، الآية : ٣٠ .

ظهوراً تاما إلا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض ، كما قال الله ـ تعالى ـ : « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ». وهذا موضع تزل فيه الاقدام ، حتى وقع قوم فى التشبيه الظاهر ، وآخرون فى الحلول والاتحاد ، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفى التفريط والافراط ، واتضحت لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها : هم الاقلون . ثم من المناسبة الظاهرة التى بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله فى الصفات الربوبية والاخلاق الإلهية: كالعلم، والبر، والاحسان، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق، وارشادهم الى الحق . . . إلى غير ذلك من الصفات الإلهية ، ولذا قيل : تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب فى أن كل ذلك يقرب العبد الى الله ، ويصيره مناسباً له . وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر ، وباقى الأسباب أسباب ضعيفة نادرة ، اعتبارها فى حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر : أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة فى حق الله ـ تعالى ـ تحقيقاً لا مجازاً ، وفى أعلى الدرجات لا أدناها . ثم كل من يحب أحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه فى السبب . والشركة نقصان فى الحب ، لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه ، والله ـ سبحانه ـ هو الذى لايشاركه غيره فى اوصاف الكمال والجمال ، لا وجوداً ولا امكانا ؛ فلا جرم لا يكون فى حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان ، كما لا تتطرق الشركة والنقصان الى أوصاف كماله ، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها ، ولا متعلق للمحبة إلا هو ، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه ، كما قال سيد الشهداء ﷺ

فى دعاء عرفة بقوله : « وأنت الذى ازلت الاغيار عن قلوب أحبائك ، حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك » .

تكميل

(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة : (أن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة ، وأما الأشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها إلى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد) .

والتوضيح :أن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها الى بعض فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيق فى الذوات والحقائق ، بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف ، إذ التغاير من لوازم المادية . وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف وشوق ، فإنما هو بتلاقى السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات ، وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال . فالجوهر البسيط المودع فى الانسان ـ أعنى النفس الناطقة ـ اذا صفى عن الكدورات الطبيعية ، وتطهر عن الأخباث الجسمانية ، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية ، انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى اشباهه من الجواهر المجردة ، ويرتفع منها الى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات ، فيستغرق فى مشاهدة الجمال الحقيق ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينمحى فى انوار تجلياته القاهرة ، ويصل الى مقام التوحيد الذى هو نهاية المقامات ، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة

ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التى بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً فى حالتى التعلق بالبدن والتجرد عنه ، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة فى الآخرة يحصل لها فى هذه النشأة :

امروز در آن كوش كه بينا باشي
حيران جمال آن دلارا باشي
شرمت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشي ؟ (١)

نعم ، الشهود التام ، والابتهاج الصافى عن الشوب ، يتوقف على تجردها الكلى عن البدن، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة فى هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة ، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشية من الطبيعة ، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلى ، ولذا تشتاق أبداً الى رفع هذا الحجاب ، ويقول :

حجاب چهره‌ء جان ميشود غبار تنم
خوشا دمي كه از اين چهره پرده بر فكنم
چنين قفس نه سراي چو من خوش‌الحاني است
روم بروضه‌ء رضوان كه مرغ آن چمنم (٢)

---

(١) اسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة
ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان !
أما تستحي انك على غرار الأطفال فى ليلة العيد ؟!!
الى متى تنتظر اليوم الغد ؟!!

(٢) ان غبار الجسد يكون حجابا لروحي ونقابا !
فما أحلى اللحظة التى أطرح فيها عن وجهى هذا الستار !!
ان هكذا قفصاً لا يليق لذى تغريد بهيج مثلى !!
سأذهب الى (روضة الرضوان) . . . فانى من طيور ذلك المرج والبستان !!

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان ، وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين ، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها ، كالانس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالصبر والزهد وسائر المقامات . وهذا العشق هو الذى افرط العرفاء وأرباب الذوق فى مدحه ، وبالغوا فى الثناء عليه نثراً ونظماً ، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق ، ولا كمال إلا هو ، ولا سعادة إلا به ، كما قيل :

عشق است هرچه هست بگفتيم وگفته اند
عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست (١)

وقيل :

جز محبت هرچه بردم سود در محشر نداشت
دين ودانش عرض كردم كس بچيزي برنداشت (٢)

فصل

(سريان الحب فى الموجودات)

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية ، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول ، ومحبة الجمال وغير ذلك ، والارادى الكسبي منها قليل ، كمحبة المتعلم للمعلم،وربما أمكن ارجاعه ايضاً الى الطبيعي. واذا كان الحب طبيعياً، فالاتحاد الذى من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً، فيكون لذلك افضل من العدالة التى تقتضى

(١) كل ما يكون هو العشق — كما قالوا وقلنا — . . .
فعشقك يوصلك الى الحبيب بالجهد والشطارة !!

(٢) سوى الحب لم يفد فى المحشر مما صحبته !!
عرضت الدين والعلم ، فلم يعرهما احد اهتماماً !!!

الاتحاد الصناعى . ثم مع وجود المحبة لاحاجة الى العدالة ، إذ هى فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشرى ، فمع وجود الاتحاد الطبيعى لا يقع الاحتياج اليه ، وقد صرّح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شىء من الموجودات خالياً عنها ، كما أنه ليس شىء منها خالياً عن الوجود والوحدة ، وقد صرّحوا بأنه كل الوحدة ، فهو سار فى جميع الكائنات : من الافلاك والعناصر والمركبات ، إذ الحب والشوق الى التشبه بالفاعل رقص الافلاك ، وادار رحاها ،(بسم الله مجراها ومرساها) ، والحب هو سبب ميل العناصر الى اجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض :

سرّ حب ازلي بر همه اشيا ساريست ورنه بر گل نردي بلبل بيدل فرياد(١)

ثم لما كانت المحبة التى هى ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها موجباً للفساد والاختلال ، ولكل منهما مراتب ودرجات ، فتختلف الموجودات بحسبها فى درجات الكمال والنقصان . والمتأخرون خصصوا الحب بذوى العقول ، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها ، وميل المركبات بعضها الى بعض ، كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التى بينها ،كمنافرة الحجر الباغض الخل من الخل ، بل يسمونها بالميل والهرب ، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العُجم من الحيوانات ، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالألف والنفرة .

---

(١) ان (سر الحب الازلي) لسار في جميع الموجودات !
والا لم تغرد البلابل على الازهار والاوراد !!

فصل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر : ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله ـ تعالى ـ ، وأنه المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول محبة العبد لله ـ تعالى ـ وقال : (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل) .

ولما انكروا المحبة ، انكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول ـ مضافا الى ما ذكر ـ اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً ،وما ورد فى الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه ، واتصاف الأنبياء والأولياء به ، وحكايات المحبين ، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله ـ تعالى ـ :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١) . وقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ » (٢) . وقوله ـ تعالى ـ : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ . . . ـ الى قوله ـ : « أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . . » الى آخر الآية (٣) .

وأما الأخبار الواردة والآثار ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن

---

(١) المائدة ، الآية : ٥٤ .　　(٣) التوبة ، الآية : ٢٥ .
(٢) البقرة ، الآية : ١٦٥ .

أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ». وقال ﷺ : « الحب من شروط الايمان ». وقال ﷺ : « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، واحبونى لحب الله ». وقد نظر ﷺ إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه إهاب كبش ، فقال ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون ». وقال ﷺ فى دعائه : « اللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك وحب من يقربنى الى حبك ، واجعل حبك احب إليّ من الماء البارد ». وفى الخبر المشهور : « أن ابراهيم ﷺ قال لملك الموت ، إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله - تعالى - اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت ! الآن فاقبض ». وأوحى الله الى موسى ﷺ : « يا ابن عمران ! كذب من زعم أنه يحبنى فإذا جنه الليل نام عنى ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على احبائى ، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتى بين اعينهم ، يخاطبونى عن المشاهدة ، ويكلمونى عن الحضور ، يا ابن عمران ! هب لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع فى ظلم الليل ، فإنك تجدنى قريباً ». وروى : « أن عيسى ﷺ مرّ بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً ، فقال لهم: ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب

الله - عز وجل - ، فقال : انتم المقربون » . وفى بعض الروايات : « أنه ﷺ قال للطائفتين الأولبين: مخلوقاً خفتم ، ومخلوقاً رجوتم . وقال للطائفة الثالثة: أنتم اولياء الله حقاً ، معكم أمرت ان اقيم » . وقال رسول الله ﷺ: «إن شعيباً ﷺ بكى من حب الله - عز وجل - حتى عمى ، فردّ الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فردّ الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب! الى متى يكون هذا أبداً منك ، إن يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك ، وإن يكن شوقاً الى الجنة فقد ابحتك . فقال : إلٰهي وسيدى ! أنت تعلم أنى ما بكيت خوفاً من نارك ، ولا شوقاً إلى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي ، فلست أصبر أو أراك . فأوحى الله : أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران » . وروى : « أنه جاء اعرابى الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! متى الساعة ؟ فقال ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال له النبي : المرء مع من احب » . وفى أخبار داود : « قل لعبادى المتوجهين الى محبتي : ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقى إذ رفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم ، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التمستم رضاى » . وفيها ايضاً : « يا داود ! إنك تزعم انك تحبنى ، فإن كنت تحبنى فاخرج حب الدنيا عن قلبك ، فإن حبي وحبها لا يجتمعان فى قلب » . وقال أمير المؤمنين ﷺ فى دعاء كميل : « فهبني يا إلٰهي وسيدى ومولاى وربي صبرت على عذابك ، فكيف اصبر على فراقك » . وقال ﷺ : « إن لله - تعالى - شراباً لأوليائه ، إذا شربوا سكروا ، واذا سكروا طربوا ، وإذا طربوا طابوا ، وإذا طابوا ذابوا ، وإذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا طلبوا ، وإذا طلبوا وجدوا ، وإذا وجدوا وصلوا ، وإذا وصلوا

اتصلوا ، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم » (١) . وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : « أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك » . وقال ﷺ : « يا من أذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » . وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين ﷺ : « وعزتك ! لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها ، وانست نفسي ببشارتها ، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك » . وفي مناجاته الأخرى : « إلهي فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم » . . . ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون ، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وبلغتهم الرغائب ، وانجحت لهم المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ، ورويتهم صافي شرابك ، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا » . . . ثم قال : « فقد انقطعت اليك همتي ، وانصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا سواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك منى نفسي ، واليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، والى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية مسألتي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربتي » . . . ثم قال : « ولا تقطعني عنك ، ولا تباعدني منك ، يا نعيمي وجنتي ! ويا دنياي وآخرتي ! » . وقال ﷺ ايضاً : « إلهي ! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ،

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية — رضوان الله عليهم — .

ومن ذا الذى أنس بقربك فابتغى عنك حولا . إلهى ! فاجعلنى ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، ورضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر إلى وجهك ، وحبوته برضاك ، وأعذته من هجرك ، . . . ثم قال : « وهيمت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، وأخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك ، . . . ثم قال : « اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والأنين ؛ وجباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة فى خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك ، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة ، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ! يامنى قلوب المشتاقين ، ويا غاية آمال المحبين ! اسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك ، وأن تجعلك أحب إلي ممن سواك » . وقال ﷺ ايضاً : « إلهى ! ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير اليك فى مسالك الغيوب ، وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » . وقال ﷺ ايضاً : « وغلتى لا يبردها إلا وصلك ، ولوعتى لا يطفيها إلا لقاؤك ، وشوقى اليك لا يبله إلا النظر الى وجهك ، وقرارى لا يقر دون دنوى منك ، ولهفتى لا يردها إلا روحك ، وسقمى لا يشفيه إلا طبك ، وغمى لا يزيله إلا قربك ، وجرحى لا يبرؤه إلا صفحك ، ورين قلبى لا يجلوه إلا عفوك ، ووسواس صدرى لا يزيحه إلا أمرك » (١) . وقال الصادق ﷺ : « حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحب أخلص الناس سراً لله ، وأصدقهم قولا ، وأوفاهم

---

(١) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار) : باب ادعية المناجاة : مج ١٩ / ١٠٠ – ١١٤ ، ط امين الضرب .

عهداً ، وأزكاهم عملاً ، وأصفاهم ذكراً ، وأعبدهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويعطيهم إذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا الى الله إلا بتراب قدميه ».
وقال أمير المؤمنين ﷺ : « حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق ، ونور الله لا يطلع على شيء إلا اضاء ، وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلا غطاه ، وريح الله ما تهب فى شيء إلا حركته ، وماء الله يحيي به كل شيء ، وارض الله ينبت منها كل شيء ، فمن احب الله أعطاه كل شيء من الملك والملك ».
وقال النبي ﷺ : « إذا أحب الله عبداً من امتي قذف فى قلوب اصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه ، فذلك المحب حقاً ، طوبى له ثم طوبى له ! وله عند الله شفاعة يوم القيامة » (١) . إلى هنا كلام الصادق ـ عليه السلام ـ . وما ورد فى الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى ، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن انكاره ، وقد روى : « أن داود ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته ، فقال له : ائت جبل لبنان ، فإن فيه اربعة عشر نفساً ، فيهم شبان وكهول ومشايخ ، وإذا أتيتهم فاقرأهم منى السلام ، وقل لهم : يقول ربكم : ألا تسألونى حاجة ، فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى ، أفرح لفرحكم واسارع الى محبتكم . فاتاهم داود ، فوجدهم عند عين من العيون ، يتفكرون فى عظمة الله وملكوته ، فلما نظروا إلى داود ، نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم داود : أنا رسول الله اليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم .

---

(١) صححنا الاحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) ـ الباب السابع والتسعون ، ص ١٩٣ ـ .

فاقبلوا نحوه ، والقوا أسماعهم نحو قوله ، والقوا أبصارهم الى الأرض ، فقال داود : ربكم يقرؤكم السلام ، ويقول لكم : ألا تسألونى حاجة ، ألا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم ؟ فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى ، أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم ، وانظر اليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم ، وسبح الله كل واحد منهم ومجده ، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق .

فصل

(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت أن الحب هو الميل الى الشىء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله ، واللذة هى نفس ادراك الملائم الملذ ونيله ، وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة - أى ان كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت أنه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية ، التى هى الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس .

ثم هذا الادراك - أعنى العلم والمعرفة - يختلف أيضاً فى الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك ، أى المعلوم ؛ فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان الادراك - أى المعرفة به - أجل وأعلى . ولا ريب فى أن الواجب - سبحانه - أشرف الموجودات وأجلها ، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها ، ويثبت من ذلك : أن أجل اللذات واعلاها هو معرفة الله - تعالى - والنظر الى وجهه الكريم ، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة اخرى إلا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه أوضح : أن اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذى خلقت له ، فغريزة الغضب لما خلقت

للتشفى والانتقام ، فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام ، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها فى نيل الغذاء ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الاستماع والإبصار والاستشمام ، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها ، فلذتها فى العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص صفات الربوبية ، يكون اقوى اللذات والابتهاجات ، ولذلك يرتاح الطبع اذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، ويلتذ به .

والتحقيق : أن الادراك والنيل الذى هو الكمال ليس إلا العلم ، وسائر الادراكات ـ اعنى نيل الغلبة والغذاء والاسماع والإبصار والاستشمام ـ لا تعد كمالات ، ثم ليست لذة كل حلو واحدة ، فإن لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأشرف الأجل والأعظم والأكمل ، فالعلم به ألذ العلوم واشرفها واكملها واطيبها ، وليت شعرى هل فى الوجود شيء أعلى وأجمل وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها ، ومكملها ومربيها ، ومبدئها ومعيدها ، ومديرها ومرتبها ، وهل يتصور أن يكون أحد فى الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء اعظم ممن ذاته فى صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام ، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية ، فان كنت لا تشك فى ذلك ، فينبغى ألا تشك فى أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة

المعرفة ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم (١) من الجماع ، ولذة الفاتر الشهوة منه ، وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ولذة النظر الى الوجه الأجمل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات ، وإنما يعرف اقوى اللذتين من اضعفهما ، بأن يؤثر عليه ، فان المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة ، اذا اختار الأول كان عنده ألذ من الثانى ، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج ، اذا اختار الثانى كانت لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل ، وهذا معيار فى الكشف عن ترجيح اللذات .

وحينئذ نقول : لا ريب فى أن المعانى واللذات الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة اكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فان كان عالى الهمة كامل العقل ، اختار الرئاسة وترك الأكل ، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلا عن مدة قليلة ، نعم ، إن كان خسيس الهمة ميت القلب ، ناقص العقل والبصيرة ، كالصبى والمعتوه ، ربما اختار لذة الأكل ، وفعل مثله ليس حجة . ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة اغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبى والسفاهة ، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة ، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما ، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام ، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها ، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له

(١) الغلمة ـ وزان غرفة ـ : شدة الشهوة . وغلم غلماً : من باب تعب ، اذا اشتد شبقه . المغتلم : المنقاد للشهوة .

قلب ، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى ، ولذة الاستماع عند الأصم ، ولذة الوقاع عند العنين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله - تعالى - ، وليس له شبه وشكل وصورة ، فحقيقة الحال كما قيل : (من ذاق عرف) ، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً ، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت ، ويختار لذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته وافعاله ، ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن الانقطاع والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق بكثرتهم دائماً ، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض ، ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها فى جنة غير متناهية الأطراف والاقطار ، يرتع فى رياضها ، ويكرع (١) فى حياضها ، ويقطع من أثمارها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل هى ابدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم النفس الناطقة التى هى محل المعرفة ، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ، بل اقطار عالم الربوبية التى هى غير متناهية ، ميدان للعارفين ، يتبوؤن منها حيث يشاؤن ، من غير حاجة الى حركة اجسامهم ، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض اصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم فى اتساع الأنظار وسعة المعارف :

« ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » (٢)

---

(١) كرع - من باب نفع - : هو الشرب بفيه من موضعه .
(٢) الانعام ، الآية : ١٣٢ ، الاحقاف ، الآية : ١٩ .

ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها ، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها ، وكان فى الدنيا والآخرة مشغولا بربه ، فلو ألقى فى النار لم يحسّ به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل ﷺ عبر عن هذه اللذة - أى لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكياً عن الله - سبحانه - : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وهذه اللذة هى المرادة من قوله - تعالى - :

« فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١)

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ، ما لم يحصل التجرد الكلى وخلع البدن العنصرى . ولذلك قال بعضهم : إنى أقول : « يارب يا الله ! فأجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادى جليسه » . ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة ، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة ، كما قيل :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذصرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

(١) السجدة ، الآية : ١٧ .

فصل

(تحقق رؤية الله فى الآخرة ولذة لقائه)

اعلم أن معرفة الله اذا حصلت فى الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما - كما اشير اليه - . إلا أنه اذا اكتسب أصلها فى الدنيا فيزيدها فى الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ، الى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب ، فالاختلاف بين ما يحصل فى الدنيا من المعرفة وما يحصل فى الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء .

مثال ذلك : ان من رأى انسانا ، ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر اليها ، ولكن اذا فتح العين وأبصر ، ادرك تفرقة بين حالتى غض العين وفتحها ، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بيّن بين الصورتين ، لا تحادهما ، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافا ، فاذا الخيال أول الادراك ، والرؤية استكمال لادراك الخيال ، وهى غاية الكشف ، لا لأنها فى العين ، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى فى الصدر أو الجبهة أو أى عضو فرض ،استحق أن يسمى رؤية .واذا فهمت هذا فى المتخيلات - أى المدركات التى تدخل فى الخيال من الصور والأجسام - فقس عليه الحال فى المعلومات - أى ما يدرك بالعقل - ، ولا يدخل فى الخيال كذات البارى ، وكل ما ليس بجسم ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، فإن لمعرفتها وادراكها أيضاً درجتين : احداهما : أولى ، والثانية : استكمال لها ، وبينهما من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى ، فتسمى الثانية بالاضافة الى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت

رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذى هو الرؤية فى المتخيلات ، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته ، لم يحصل لها تمام الكشف الذى هى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال ، فاذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد فى غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ملوثة بها ، إلا أن النفوس مختلفة فى ذلك : فمنها : ما تراكم عليه الخبث والصدى ، فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها : ما لم ينته الى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب ، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض فى (الواقع) بين الرين والطبع ، وبين التزكية التامة والتجرد الكلى الذى لم يكن فيه شوب من الكدورات ، وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلى الحق فيها ، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية ، وهى كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات ، أولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول فى النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها ، فكل نفس لابد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها : فمنها : ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع ، ومنها : ما يتطهر بها ، وينقص عقوبات البرزخ ، ومنها : مالا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة ، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الذى تدنست به ، فربما كان ذلك لحظة حقيقة ، وربما كان سبعة آلاف سنه - كما وردت به الأخبار - وربما كان اقل

أو أكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله - سبحانه - . والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين فى النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جلية الحق ، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة الى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلى المرئيات بالاضافة الى المتخيلات ، وهذه المشاهدة والتجلى تسمى رؤية ، لأنه فى الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ، إذ الرائى فى الأول العقل ، وفى الثانى البصر ، وشتان ما بينهما ، فإن الاختلاف فى مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك ، وأى نسبة لنورية البصر الى نورية العقل واشراقه ، وما للعقل من النفوذ فى حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر .

وقد ظهر مما ذكر : أنه لايفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا ، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى العقبى ، إذ لا يستأنف لاحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، فلا يحصد المرء إلا ما زرع ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه .

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، يكون التجلى أيضاً على درجات متفاوتة ،فاختلاف التجلى بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذور ، إذ يختلف لا محالة : بكثرتها ، وقلتها ،

وجودتها ، ورداءتها ، وضعفها . ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى ، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد ، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حداً تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة فى الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته ، فاصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنه بـ (الايمان) .

فإن قيل : اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ،وإن كانت أضعاف لذة المعرفة ، إذ هى فى الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها الى أى حدّ فرض لاينتهى فى القوة، إلا أن يستحقر فى جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها .

قلنا : هذا الاستحقار والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها ، فإن من خلا عن المعرفة ، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا ، لا يدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته ، قويت بهجته واشتدت لذته ، بحيث لا توازنها لذة ، فإن للعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله - عز وجل - ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة الى ذوقها واكلها، ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع .

ومما يوضح ذلك ، أن لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بامور :

احدها — كمال جمال المعشوق ونقصانه .

وثانيها — كمال قوة الحب والشهوة وضعفه .

وثالثها — كمال الادراك وضعفه ، فإن الإلتذاذ برؤية المعشوق فى ظلمة ، أو من بعد ، أو من وراء ستر رقيق . ليس كالإلتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء .

ورابعها — عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فإن التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات ، فلو كان العاشق ضعيف الحب ، ناظراً الى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول القلب بمهمات ، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدغه ، لم يكن خالياً عن لذة ما فى هذه الحالة من مشاهدة معشوقه ، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء ، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه من المهمات ، وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية ، بحيث بلغت أقصى الغايات ، تضاعفت لذته ، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة اليها بوجه ، فكذلك الحال فى نسبة لذة المعرفة فى الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها : من الجوع ، والعطش والشبق ، والغضب ، والحزن ،والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها فى الدنيا عن التشوق الى الملأ الأعلى، لإلتفاتها الى أسفل السافلين الى لذة اللقاء والمشاهدة التى يندفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه فى الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته ، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته فى بعض الأحوال وبقى سالماً ، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله ، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف ، ولا يمكن

أن يدوم ، إذ الخلوّ عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم ، بل هو آنيّ ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة قائمة فى هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منقصة الى الموت ، وانما الحياة الطيبة بعده ، وإنما العيش عيش الآخرة ، فإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ، ولذا كل عارف كملت معرفته فى الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه ، إلا من حيث ارادة زيادة استكمال فى المعرفة ، ، فان المعرفة - كما عرفت - بمنزلة البذر ، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته ، قويت المشاهدة واشتدت ، وكثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن . ولا ريب فى أنّ المعرفة لا تنتهى الى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة ، إذ بحر المعرفة لا ساحل له ، والاحاطة بكنه جلال الله محال ، فالعارف وإن قويت معرفته ، ربما أحب طول العمر ، وكره الموت لتزداد معرفته .

ثم أهل السنة قالوا : « إنّ الرؤية فى الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان : تكون بالعين دون القلب » : (وهو عندنا باطل) : إذ الرؤية بالعين محال فى حق الله - تعالى - ، سواء كانت فى الدنيا أو فى الآخرة ، فكما لا تجوز رؤية الله - سبحانه - فى الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لا تجوز فى الآخرة ، وكما تجوز رؤيته فى الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعنى غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته فى الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه فى الدنيا فى جميع احوالهم

ومنصرفاتهم ، وإن كان الحاصل فى الآخرة أزيد انكشافاً وأشدّ انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلا - ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكلينى) وشيخنا الصدوق (محمد بن على بن بابويه) - رحمهما الله - باسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام : « أنه سئل عما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسى ، والكرسى جزء من سبعين جزء من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب ». وباسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال : « كتبت إلى ابى الحسن الثالث عليه السلام أساله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ، فكتب : لا تجوز الرؤية مالم يكن بين الرائى والمرئى هواء ينفذه البصر ، فإذا انقطع الهواء عن الرائى والمرئى لم تصح الرؤية وكان فى ذلك الاشتباه ، لأن الرائى متى ساوى المرئى فى السبب الموجب بينهما فى الرؤية وجب الاشتباه ، وكان ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لابد من اتصالها بالمسببات » . وعن ابى بصير عن الصادق عليه السلام قال : « قلت له : اخبرنى عن الله -عز وجل- هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم ! وقد رأوه قبل يوم القيامة . فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألست بربكم ، قالوا : بلى . . . ثم سكت ساعة ، ثم قال : وإن المؤمنين ليرونه فى الدنيا قبل يوم القيامة ، ألست تراه فى وقتك هذا ؟ ! قال ابو بصير : فقلت له : جعلت فداك ! فاحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا ! فإنك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » . وسئل أمير المؤمنين عليه السلام : « هل رأيت ربك حين

عبدته ؟ فقال : ويلك ! ما كنت أعبد رباً لم أره . قيل : وكيف رأيته ؟ قال : ويلك ! لا تدركه العيون فى مشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان » (١) . وقال سيد الشهداء ﷺ : « كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك . متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل اليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً » ، وقال ﷺ ايضاً : « تعرفت لكل شىء فما جهلك شىء »، وقال : « وأنت الذى تعرفت إلىّ فى كل شىء ، فرأيتك ظاهراً فى كل شىء ، وأنت الظاهر لكل شىء » (٢) . وأمثال ذلك مما ورد عنهم - عليهم السلام - أكثر من أن تحصى .

فصل

(الطريق الى الرؤية واللقاء)

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران:

احدهما — تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها ، والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب ، إذ القلب مثل الاناء الذى لا يسع الماء - مثلا - ما لم يخرج منه الخل . وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وكمال الحب فى أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله، إلا أن يكون إلتفاته الى الغير من حيث إنه صنع الله - تعالى - وفعله ، ومظهر

(١) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافى) : الجزء الأول ، باب ابطال الرؤية . وعلى (الوافى) : ١ / ٦٩ ، باب ابطال الرؤية .

(٢) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان) : ص ٢٧٢ - ٢٧٤ ، طبعة الكراوورى .

من مظاهر اسماء الله - تعالى - ، والى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله - تعالى - :

« قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » (١)

وثانيهما — تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب، والأول ، اعني قطع العلائق ، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش ، والثاني ، أي المعرفة ، بمنزلة البذر فيها ، ليتولد منه شجر المحبة .

ثم لتحصيل المعرفة طريقان :

احدهما — الأعلى ، وهو الاستدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن يعرف الله بالله ، وبه يعرف غيره ، أي افعاله وآثاره . والى هذا اشير في الكتاب الإلهي بقوله :

« أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٢)

وهذا الطريق غامض ، وفهمه صعب على الأكثرين . وقد اشرنا الى كيفيته في بعض كتبنا الإلهيات .

وثانيهما — وهو الادنى ، الاستدلال بالخلق على الحق - سبحانه - ، وهذا الطريق في غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه ، وهو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات الى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات ، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ

---

(١) الانعام ، الآية : ٩١ . (٢) فصلت ، الآية : ٥٣ .

البَحْرُ قَبلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِماتُ رَبِّي » (١)

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه، إنما هو للاعراض عن التفكر والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس . ثم سلوك هذا الطريق ، أى الاستدلال على الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته وعظمته ، بالتفكر فى الآيات الآفاقية والأنفسية ، خوض فى بحار لا ساحل لها ، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام، فإن القدر الذى تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضى الاعمار دون ايضاحه ، ولا نسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الأنبياء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الخلائق كلهم ، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه ، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً فى جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة فى بعض مخلوقاته فى مبحث التفكر .

فصل

(تفاوت المؤمنين فى محبة الله)

اعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون فى اصل محبة الله لاشتراكهم فى أصل الايمان ، ولكنهم متفاوتون فى قدرها ، وسبب تفاوتهم امران :

احدهما ـ اختلافهم فى المعرفة وحب الدنيا ، فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا ، من دون وصول إلى حقيقة معناها ، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة

(١) الكهف ، الآية : ١٠٩ .

صادرة عنه ، من غير تدبر فى عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها .

وأما العارفون : فلهم الخوض فى بحر التفكر والتدبر فى انواع المخلوقات ، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة ، التى كل واحد منها كمشعلة فى ازالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله وكبريائه ، فمثل الأكثرين كمثل عامى أحب عالماً بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف ، من دون علم ودراية بما فى تصانيفه ، فتكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه،واطلع على مافيهامن دقائق المعانى وبلاغة العبارات.ولاريب فى أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه،فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة،ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة فى كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله - تعالى - اياها، من غير استعداد لفهم الحكمة فى اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال، لا يكون فى معرفة الله وادراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم ،كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها ، وإنما ينتهى كل الى ما يستعد له ، فينبغى أن تكون مراتب الحب أيضاً غير متناهية ، وكل عبد ينتهى الى مرتبة تقتضيها معرفته .

وثانيها - اختلافهم فى الأسباب المذكورة للحب . فان من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسناً اليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان، ولا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرخاء والنعماء . وأما من يحبه لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه .

فصل

(الواجب اظهر الموجودات)

عجبا لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله ـ سبحانه ـ ، مع أن الله ـ تعالى ـ أظهر الموجودات وأجلاها ، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون فى الوجود موجود قائم بذاته ، أى ما هو صرف الوجود ، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا ، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« اللهُ نورُ السَّمٰاواتِ والأَرضِ » (١)

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود ، فكلما ادركته إنما تدرك أولا وجوده ، وإن لم تشعر بذلك . ولا ريب فى أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره ، وأيضاً كل موجود سوى الله ـ سبحانه ـ يعلم وجوده بقليل من الآثار ، فان وجود الحياة لزيد ـ مثلا ـ لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض أخر من اعراض نفسه ، ولا يدل عليه شىء آخر من سائر الموجودات ، وكذا وجود السماء ـ مثلا ـ لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ، ولا يدل عليه شىء آخر من الموجودات التى تحتها وفوقها .

وأما وجود الواجب ـ تعالى ـ فيدل عليه كل شىء ، إذ ليس فى الوجود مدرك محسوس أو معقول ، وحاضر أو غائب ، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده ، فالسبب فى خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شىء غاية وضوحه

(١) النور ، الآية : ٣٥ .

وظهوره ، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفائه ، لأنه يكل المدارك ويحسرها ، فشدة ظهوره - سبحانه - بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها ، فضعفت عن ادراكه . وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش ، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلٰهية فى نهاية الاشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره ، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره ! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فإن الأشياء إنما تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضدّ له عسر ادراكه ، فلو اختلفت الأشياء ، فدل بعضها على الله - تعالى - دون بعض ، ادركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد ، اشكل الأمران ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها ، لكننا نظن أن لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها ، وهى السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا ندركه وحده، لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الاجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه . وما كنا نطلع عليه لو لا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى النور والظلام . هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر فى

نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لو لا طريان ضده ، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير ، لانهدت السماوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به ، وبعضها موجوداً بغيره ، لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل :

خفيٌّ لافراط الظهور تعرضت　　لادراكه أبصار قوم أخافش

وحظ عيون الزرق من نور وجهه　　لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لم تحط به الأوهام ، بل تجلى لها بها ، وبها امتنع منها » . وقال عليه السلام : « ظاهر فى غيب ، وغائب فى ظهور » . وقال عليه السلام : « لا تجنه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن البطون ، قرب فنأى ، وعلا فدنا ، وظهر فبطن ، وبطن فعلن ، ودان ولم يدن » : أى ظهر وغلب ، ولم يغلب . ومن هناك قيل : « عرفت الله بجمعه بين الأضداد » .

فصل

(علائم محبة الله)

محبة العبد لله ـ سبحانه ـ له علامات :

الأولى ـ أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان فى دار السلام ، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه ، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله ، واذا علم أنه يمتنع الوصول اليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لامحالة ، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، ولذا قال (حذيفة) عند موته : « حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح اليوم من

ندم » . قال بعض الأكابر : « لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال » .

ثم من يكره الموت ، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال ، وكان حبه الدنيا وتأسفه على مفارقتها فى غاية الكمال بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلا بما يترتب عليه من لقاء الله - تعالى - ، ولم يجد فى قلبه شوقا اليه مطلقاً ، فلا ريب فى كون مثل هذه الكراهة منافياً لأصل الحب ، ولو لم يكن حبه للدنيا فى غاية الكمال ، بحيث لم يجد فى قلبه ميلا الى ما يترتب على الموت من لقاء الله ، بل كان محباً للدنيا ، إلا أنه كان له شوق الى لقاء الله - تعالى - أيضاً ، أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ، فمثل هذا الحب للدنيا ينافى كمال حب الله . لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله ، فان الناس متفاوتون فى حب الله ، فمنهم من يحبه بكل قلبه ، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه ، بل يحب معه غيره أيضاً من الأهل والولد والمال ، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها . وإن كانت كراهته للموت لأجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله ، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ، لا لحب الأهل والمال ، ولا للتأسف على فراق الدنيا ، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافى أصله ، وهو كالمحب الذى وصل اليه خبر قدوم حبيبه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيئ أسبابها ، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل ؛ وعلامة ذلك : الجد فى العمل ، واستغراق الهم فى تحصيل المعرفة ، والاستعداد للآخرة .

الثانية - أن يؤثر مراد الله - سبحانه - على مراده ، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، كما قيل :

اريد وصاله ويريد هجرى　　فاترك ما اريد لما يريد

فمن كان محباً لله : يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتباع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده ، ويكون مبتهجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها ، ويسقط عنه تعبها . وقد روى : « أن زليخا لما آمنت ، وتزوج بها يوسف ﷺ ، انفردت عنه ، وتخلت للعبادة ، وانقطعت الى الله - تعالى - ، وكان يوسف يدعوها الى فراشه نهاراً فتدافعه الى الليل ، وإذا دعاها ليلاً سوفت الى النهار ، فعاتبها فى ذلك ، فقالت : يا رسول الله ! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فإما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه ، وما أريد به بدلا » . ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد فى مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويحب صحته ، والسبب ضعف المعرفة ، وغلبة الشهوة ، فيعجز عن القيام بحق المحبة .

الثالثة — ألا يغفل عن ذكر الله - سبحانه - ، بل يكون دائماً مستهتراً بذكره ، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به ، فمحب الله لايخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته ، لأنه كلامه ، ويكون محباً للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال الأنس والإلتذاذ بمناجاته ، وفى اخبار داود : « كذب من ادعى محبتى وإذا جنه الليل نام عنى ، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ، فها أناذا موجود لمن طلبنى » .

الرابعة — ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شىء ، ولا يفرح بوجود شىء ، سوى ما يقربه الى الله أو يبعده عنه : فلا ينبغى أن يحزن ويجزع فى المصائب ، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة الى محبوبه ، أو على صدور معصية مبعدة ، أو على ساعة

خلت عن ذكر الله والانس به .

الخامسة — أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله ، رحيماً على اوليائه ، وشديداً على اعداء الله ، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه ، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لأحباء المحبوب والمنسوبين اليه ، والبغض لأعدائه ومخالفيه .

السادسة — أن يكون في حبه خائفاً متذللا تحت سلطان العظمة والجلال ، وليس الخوف مضاداً للحب ، كما ظن ، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة ، وادراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين خوف الاعراض ، وخوف الحجاب ، وخوف الابعاد ، وخوف الوقوف ، وسلب المزيد وقال بعض العرفاء : « من عبدالله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريقهما أحبه الله ، فقربه ومكنه وعلمه » .

السابعة — كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى ، تعظيماً للمحبوب واجلالا له ، وهيبة منه وغيرة على سره ، فإن الحب سر من اسرار المحبوب ، فلا ينبغي افشاؤه ، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع ، فيكون من الافتراء ، وتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا . نعم ، ربما غشيته سكرة في حبه ، حتى يدهش فيها ، وتضطرب احواله ، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل . فمثله معذور ، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور ، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد ، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان ـ أعني الأنبياء والأولياء ـ من العجز والقصور ، وان صنفا واحدا من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، هم أهل المحبة لله ، ما خطر على

قلوبهم مذ خلقهم الله ـ وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم ـ سوى الله ـ سبحانه ـ، وما ذكروا غيره ، لاستحيي منه حق الحياء أن يعدّ ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى .

وروى فى بعض الأخبار : « ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله ـ تعالى ـ أن يعطيه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فحار عقله ، وذهل لبه ، ووله قلبه ، وهام فى الجبال ، وبقى شاخصا سبعة ايام ، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء . فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التى اعطاه . فأوحى الله ـ تعالى ـ اليه : (إنا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك ان مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا ، فأخرت اجابتهم الى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما اعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك) . فقال : سبحانك سبحانك ! أنقصه مما أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه ، وأبقى فيه عشر معشاره ، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن ، وصار كسائر الكمل من العارفين » (١) .

والحق أن حقائق الصفات الالهية أجلّ وأعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا يطيق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال فى حيز المحال ، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال ، فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ؟ فلو امكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر

---

(١) صححنا الرواية على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٨٨ .

غير متناه فى جوف خردلة ، لأمكن أن تدخل فى أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات، وهى أيضاً لو ضوعفت الى غير النهاية فى أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ! . ومن علامات المحبة الأنس والرضا - كما يأتى - . وقد جمع بعض العارفين علامات المحب فى ابيات ، فقال :

لا تخدعن فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه ... وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وان ألحّ العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشمراً ... فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

(معنى حب الله لعبده)

اعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله - سبحانه - يحب العبد، كقوله - تعالى - :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١). وقوله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ » (٢). وقوله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (٣). وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (٤).

وقال رسول الله ﷺ : « ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الايمان الامن يحب ». وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب ». وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه، وان رضى اصطفاه ». وقال ﷺ : « من أكثر ذكر الله أحبه الله ». وقال ﷺ حاكيا عن الله : « لا يزال العبد يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ». وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ، جعل له واعظا من نفسه، وزاجرا من قلبه ، يأمره وينهاه »... وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى.

ثم حقيقة الحب - وهو الميل الى موافق ملائم - غير متصور فى حق

---

(١) المائدة ، الآية : ٥٧ . (٣) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .
(٢) الصف ، الآية : ٤ . (٤) آل عمران ، الآية : ٣١ .

الله ـ تعالى ـ ، بل هذا انما يتصور فى حق نفوس ناقصة ، والله ـ سبحانه ـ صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا ، اذ لا يتصور تجدده وزواله ، فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غير ، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وافعاله . وليس فى الوجود إلا ذاته وصفاته وافعاله ، ولذلك قال بعض العرفاء ـ لما قرىء قوله ـ تعالى ـ : (يحبهم ويحبونه) ـ : « نحن نحبهم ، فانه ليس يحب إلا نفسه » ، على معنى انه الكل ، وانه فى الوجود ليس غيره . فمن لا يحب إلا ذاته ، وصفات ذاته ، وافعال ذاته ، وتصانيف ذاته ، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته ، فهو اذاً لا يحب إلا ذاته . وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذى له ـ تعالى ـ بافعاله له ، إذ المستفاد من الآيات والأخبار : أن له ـ تعالى ـ خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات ، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه اياه من القرب اليه ، وإلى ارادته ذلك به فى الأزل ، والى تطهير باطنه عن حلول الغير به ، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه ، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر إلا به ، ولا ينطق إلا به ـ كما فى الحديث القدسى ـ ، فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله فى درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله ـ تعالى ـ ولطفه به.

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيرا وتجددا فى صفات الله ـ تعالى ـ ، إذ التغير عليه ـ سبحانه ـ محال ، لأنه لا يزال فى نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه فى ازل الآزال ، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه فى مدارج الكمال ، والتخلق بمكارم الأخلاق التى هى الأخلاق الإلهية ، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة فى

قهر الشياطين وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، وأقوى تصرفا فى ملكوت الأشياء ، صار اقرب إلى الله ، ودرجات القرب غير متناهية ، لعدم تناهى درجات الكمال ، فمثل تقرب العبد الى الله ليس كتقرب احد المتقاربين إلى الآخر اذا تحركا معا ، بل كتقرب احدهما مع تحركه الى الآخر الذى كان ساكنا ، او كتقرب التلميذ فى درجات الكمال إلى استاذه ، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاع العلم ، ويطلب القرب من استاذه فى درجات العلم والكمال ، والأستاذ ثابت واقف ، وان كان التلميذ يمكن ان يصل الى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهى كمالاته ، وأما العبد ، كائنا من كان ، لا يمكن أن يصل الى كمال يمكن أن تكون له نسبة الى كمالاته - سبحانه - ، لعدم تناهى كمالاته شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوبا عند الله : أن يكون هو محبا له - تعالى - ، مؤثرا اياه على غيره من المحاب ، وأن يرى من بواطن أموره وظواهره انه - تعالى - يهيء له اسباب السعادة فيها ، ويرشده الى ما فيه خيره ، ويصده عن المعاصى باسباب يعلم حصولها منه - سبحانه - ، وانه -تعالى- يتولى امره ، ظاهره وباطنه ، وسره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل لهمومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا فى قلبه ، والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة فى خلواته ، والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

تذنيب

(الحب فى الله والبغض فى الله)

اعلم ان الأخبار متظاهرة فى مدح الحب فى الله والبغض فى الله وعظم فضيلته وثوابه ، ومعناه لا يخلو عن ابهام ، فلابد أن نشير الى بعض هذه

الأخبار ، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه :

أما الأخبار : كقول النبي ﷺ : « ودّ المؤمن المؤمن فى الله أعظم شعب الايمان ، ألا ومن أحب فى الله وأبغض فى الله ، وأعطى فى الله ، ومنع فى الله ، فهو من اصفياء الله » . وقال ﷺ لأصحابه : « أى عرى الايمان اوثق ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم - فقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ، وقال بعضهم : الحج والعمرة ، وقال بعضهم الجهاد - فقال رسول الله ﷺ : « لكل ما قلتم فضل وليس به ، ولكن اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله ، وتوالى اولياء الله والتبرى من اعداء الله » . وقال ﷺ : « المتحابون فى الله يوم القيامة على ارض زبرجدة خضراء فى ظل عرشه عن يمينه - وكلتا يديه يمين - وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة ، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبى مرسل ، يقول الناس : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون فى الله » . وقال سيد الساجدين ﵇ : « اذا جمع الله - عز جل - الأولين والآخرين ، قام مناد فنادى ليسمع الناس ، فيقول : أين المتحابون فى الله ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فيقال لهم : اذهبوا إلى الجنة بغير حساب . قال : فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إلى اين ؟ فيقولون : إلى الجنة بغير حساب . فيقولون : أى حزب انتم من الناس ؟ فيقولون : نحن المتحابون فى الله . قال : فيقولون : وأى شيء كانت اعمالكم ؟ قالوا : كنا نحب فى الله ونبغض فى الله . قال: فيقولون : نعم أجر العاملين» . وقال الباقر ﵇ : «اذا اردت أن تعلم ان فيك خيرا ، فانظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك . والمرأ مع من أحبه » . وقال ﵇ : « لو ان رجلا أحب رجلا لله ، لأ ثابه الله على حبه

اياه ، وان كان المحبوب فى علم الله من أهل النار ، ولو ان رجلا أبغض رجلا لله ، لأثابه الله على بغضه اياه ، وان كان المبغض فى علم الله من أهل الجنة » . وقال الصادق ﷺ : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، فهو ممن كمل ايمانه » . وقال ﷺ : « ان المتحابين فى الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد اضاء نور وجوههم و نور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء ، حتى يعرفوا به ، فيقال : هؤلاء المتحابون فى الله » . وقال ﷺ : « وهل الايمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ؟ ثم تلا هذه الآية :

« حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » (١) » .

وقال ﷺ : « ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حبا لأخيه » . وقال ﷺ : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » ، والأخبار بهذه المضامين كثيرة (٢) .

وإذا عرفت ذلك، فلنشر الى معنى الحب فى الله والبغض فى الله فنقول: الحب الذى بين انسانين، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية ، كالصحبة بحسب الجوار ، او بحسب الاجتماع فى سوق ، أو مدرسة ، او سفر ، او باب سلطان ، أو امثال ذلك ، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب فى الله ، بل هو الحب بحسب الاتفاق ، أو لا يحصل بمجرد ذلك ، بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على أربعة اقسام :

---

(١) الحجرات ، الآية : ٧ .

(٢) صححنا الأحاديث كلها على (اصول الكافى) : ج ٢ ، باب الحب فى الله والبغض فى الله ، وعلى (الوافى) : ٣ / ٣٤٤ ، باب الحب فى الله والبغض فى الله .

الأول – أن يحب انسان انسانا لذاته ، لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه . بأن يكون هو فى ذاته محبوبا عنده ، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة اخلاقه ، لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيذ فى حق من ادرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن ، اما أن يكون جمال الصورة ، وكمال العقل ، وغزارة العلم ، وحسن الأخلاق والافعال ، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما ، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن فى خلق وخلق . ومن دون ملاحة فى صورة . ولا غيرها من الأعضاء ، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة ، فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ، ولها اسباب دقيقة ليس فى قوة البشر أن يطلع عليها ، والى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله ﷺ بقوله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . فالحب نتيجة التناسب الذى هو التعارف ، والبغض نتيجة التناكر . ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل فى الحب لله ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله ، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً ، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم .

الثانى — أن يحبه لا لذاته ، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته ، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية . ولاريب فى أن كلما هو وسيلة الى المحبوب محبوب ، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب فى الله ظاهر .

الثالث — أن يحبه لا لذاته ، بل لغيره ، وذلك الغير راجع الى

حظوظه فى الآخرة دون الدنيا ، وذلك كحب التلميذ الأستاذ ، لأن يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب فى الله ، وصاحبه من محبى الله ، وكذلك حب الاستاذ للتلميذ ، لأنه يتلقف منه العلم ، وينال بواسطته مرتبة التعليم ، ويترقى به الى درجة التعظيم فى ملكوت السماء . قال عيسى ﷺ : « من علم وعمل وعلّم ، فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماء». ولا يتم التعليم إلا بمتعلم ، فهو اذن آلة فى تحصيل هذا الكمال ، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه ، فهو محب لله .

بل التحقيق : أن كل من يحب أحداً لصنعته ، أو فعله الذى يوجب تقربه الى الله ، فهو من جملة المحبين فى الله ، كحب من يتولى له ايصال الصدقة إلى المستحقين ، وحب طباخ يحسن صنعته فى الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا الى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التى يقصده فى الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل . . . وقس على ما ذكر امثاله ، والمعيار أن كل من احب غيره من حيث توسله لأجله الى فائدة اخروية فهو محب لله وفى الله .

الرابع — أن يحبه لله وفى الله ، لا لينال منه علماً أو عملا ، أو يتوسل به الى امر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب اليه ، إما بالنسبة العامة التى ينتسب بها كل مخلوق إلى الله ، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً ، من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له ـ تعالى ـ . ولا ريب فى أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق

به ويناسبه ، ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديداً ، أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثنى عليه أو يثنى عليه محبوبه ، وأحب أن يتسارع الى رضاء محبوبه ، كما قيل :

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض فى الله ، فهو أن يبغض انسان انسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له ـ تعالى ـ ، فإن من يحب فى الله لابد وأن يبغض فى الله ، فانك إن أحببت انسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده ، فإن عصاه لابد أن تبغضه ، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله ، قال عيسى ﷺ : « تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، والتمسوا رضاء الله بسخطهم » . وروى : « أنه ـ تعالى ـ أوحى الى بعض أنبيائه : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت بى ، ولكن هل عاديت فىّ عدواً ، أو واليت ولياً ؟ » .

ثم للمعصية درجات مختلفة ، فإنها قد تكون بالاعتقاد ، كالكفر والشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به غيره ، كالقتل والغصب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم ، أو لا يكون مما يتأذى به غيره ، وهذا إما يوجب فساد الغير ، كالجمع بين الرجال والنساء ، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور ، أو لا يوجب فساد الغير ، كالزنا وشرب الخمر ، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة . واظهار البغض أيضاً له درجات مختلفة ، كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة ، والتغليظ فى القول ، والاستخفاف والاهانة ، وعدم السعى فى إطاعته ، والسعى فى اساءته

وافساد مآربه ، وبعض هذا أشد من بعض ، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك . فينبغى أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق ، والوسط بازاء الوسط ، والأضعف بازاء الأضعف . وينبغى ألا يترك أولا النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتغليظ القول فى الوعظ والارشاد ، لا سيما اذا كان العاصى ممن بينه وبينه صحبة متأكدة . ثم العاصى إن كان ممن له صفات محمودة ، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو امثال ذلك، ينبغى أن يكون مبغوضاً لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك فى غرض وخالفك فى آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوحش عنه ، فلا تبالغ فى اكرامه مبالغتك فى اكرام من يوافقك فى جميع اغراضك، ولا تبالغ فى اهانته مبالغتك فى اهانة من خالفك فى جميع اغراضك .

تتميم
(الوفاء فى الحب)

اعلم أن من تمام الحب للاخوان فى الله (الوفاء) ، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته الى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه ، وضده (الجفاء) ، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه فى أيام الحياه او بعد الموت بالنسبة الى أولاده وأحبته ، ولولا الوفاء فى الحب لما كانت فيه فائدة ، اذ الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعى وحبط العمل ، ولذلك قال رسول الله فى السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة : « واخوان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » . وروى : « أنه ﷺ كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين » . فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء

والأقارب والمتعلقين ، ومراعاتهم أوقع فى القلب من مراعاة الأخ المحبوب فى نفسه ، فان فرحه بتفقد من يتعلق به اكثر من فرحه بتفقد نفسه ، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب الى كل من يتعلق به ، حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز فى قلبه كلبه الذى على باب داره من سائر الكلاب . ولا ريب فى أن المحبة التى تنقطع - ولو بعد الممات - لا تكون محبة فى الله ، إذ المحبة فى الله دائمة لا انقطاع لها . فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب فى الله. وبالجملة : الوفاء بالمحبة تمامها . ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقته، وألا يسمع بلاغات الناس عليه ، وأن يحب صديقه ويبغض عدوه ، وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة له وارشاده الى الحق .

هذا وأما البعد والأنس، فقدعرفت انالأنس عبارةعن استبشار القلب بمايلاحظهمن المحبوب بعد الوصول،والبعد خلافه،والأنسوالخوفوالشوق، كلهامن آثار المحبة ، وكلواحد منها يرد على المحب بحسبنظره ، وبما يغلب عليه فى وقته ، فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال ، انبعثت النفس وانزعجت له، وهاجت اليه ، فسميت هذه الحالة فى الانزعاج (شوقا) ، وهو بالاضافة الى امر غايب ، واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هوحاصل من الكشف ، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الىمالم يدركه بعد،استبشر القلب بما يلاحظه فيه،فيسمى استبشاره (أنساً) ، وإن كان نظره الى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة ، واستشعر امكان الزوال والبعد ، تألم قلبه بهذا الاستشعار ، فيسمى

تألمه (خوفا) ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، فإن غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ، وغلب عليه الأنس بالله ، ولم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب ، كما روى : « أن موسى ﷺ لما كلمه ربه ، مكث دهراً لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان » ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه ، فان خالط الناس كان كمنفرد فى جماعة ، ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر ، وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى حضور ، ومخالط بالبدن ، متفرد بالقلب المستغرق فى عذوبة الذكر ، قال أمير المؤمنين ﷺ فى وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بابدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى ارضه ، والدعاة الى دينه » .

فصل

(الأنس بالله)

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأنس أيضاً ، ظناً أنه يدل على التشبيه ، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية ، وعن القصور فى طريق المعرفة ، والجمود على احكام الحس ، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ، وقد ظهر ثبوت الأنس من بعض الأخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد فى اخبار داود : « ان الله ـ عز وجل ـ أوحى اليه : يا داود ! ابلغ أهل ارضى : انى حبيب لمن احبنى ، وجليس لمن جالسني ،

ومؤنس لمن أنس بذكرى . وصاحب لمن صاحبنى، ومختار لمن اختارنى . ومطيع لمن اطاعنى ، ما احبنى عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسى ، واحببته حباً لا يتقدمه احد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارفضوا يا اهل الأرض ما انتم عليه من غرورها ، وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وآنسوابى اوانسكم ، واسارع الى محبتكم » .

فصل

(الأنس قد يثمر الادلال)

قال ابو حامد الغزالى : « الأنس اذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب ، فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والافعال والمناجاة مع الله ـ سبحانه ـ ، وقد يكون منكراً بحسب الصورة ، لما فيه من الجراة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن اقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام وتشبه بهم فى الفعل والكلام ، هلك واشرف على الكفر . ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذى أمر الله ـ تعالى ـ كليمه موسى ﷺ أن يسأله ليستسق لبنى اسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى فى سبعين الفاً ، فاوحى الله ـ عز وجل ـ اليه : كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم ؟ سرائرهم خبيثة ، يدعوننى على غير يقين ، ويأمنون مكرى ، ارجع الى عبد من عبادى يقال له (برخ) ، فقل له : يخرج حتى استجيب له . فسأل عنه موسى ، فلم يعرف ، فبينا موسى ذات يوم يمشى فى طريق ، اذا بعبد اسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من اثر السجود ، فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله ـ عز وجل ـ ، فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فانت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا ، فخرج ، فقال فى كلامه : ما هذا من فعالك ،

ولا هذا من حلمك ، وما الذى بدا لك ؟ أنقصت عليك غيومك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ؟ أم نفد ما عندك ؟ أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم ترينا انك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ ! . . . قال : فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله ـ عز وجل ـ العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم رجع (برخ) ، فاستقبله موسى ، فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى ، كيف أنصفنى ؟ ! فهمّ به موسى ، فاوحى الله اليه : إن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات ، !! (١) . ولا ريب فى أن امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى :

« إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتُكَ » (٢)

وقوله فى التعلل والاعتذار ، لما قيل له :

« إذْهَبْ إلىٰ فِرْعَونَ إنَّهُ طَغىٰ » (٣) : « وَلَهُمْ عَليَّ ذَنْبٌ فَأخافُ أنْ يَقْتُلُونِ » (٤) . وقوله : « وَيَضِيقُ صَدْرِي » (٥) . وقوله : « إنَّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَينا أوْ أنْ يَطْغىٰ » (٦) .

---

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية ، والغريب من (ابى حامد الغزالى) ان يركن الى مثله ، وقد أشار المصنف ـ قدس سره ـ الى بطلان ما نقله بقوله : (ولا ريب) .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٥٤ . (٥) الشعراء ، الآية : ١٣ .

(٣) طه ، الآية : ٢٤ . النازعات ، الآية : ١٧ . (٦) طه ، الآية : ٤٥ .

(٤) الشعراء ، الآية : ١٤ .

وهذا من غير موسى سوء الأدب ، لأن الذى اقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره ، كيف ولم يحتمل من يونس النبي ﷺ ما دون هذا الحال، اقيم مقام القبض والهيبة . فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ، فنودى عليه الى يوم الحشر ، لو لا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، ونهى نبينا أن يقتدى به ، فقيل له :

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » (١) .

وهذه الاختلافات بعضها لا ختلاف المقامات والأحوال ، وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، قال الله - سبحانه - :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهَ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » (٢) .

فالأنبياء والأولياء مختلفون فى الصفات والأحوال ، ألا ترى أن عيسى بن مريم ﷺ كان فى مقام الانبساط والادلال ، ولإدلاله له سلم على نفسه ، فقال :

« وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » (٣) .

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس . وأما يحيى ﷺ

(١) القلم ، الآية : ٤٨ .
(٢) البقرة ، الآية : ٢٥٣ .
(٣) مريم ، الآية : ٣٣ .

فإنه اقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه . فقال :

« وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَومَ وُلِدَ وَيَومَ يَمُوتُ وَيَومَ يُبْعَثُ حَيًّا » (١) .

وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوا به ، وقد قال بعض العلماء : « قد عددت من أول قوله ـ تعالى ـ :

« إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا » (٢)

إلى رأس العشرين آية من اخباره ـ تعالى ـ عنهم ، فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفر لهم وعفى عنهم ، ولم يحتمل لعزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل : لئن عاد محى اسمه عن ديوان النبوة » . ومن فوائد هذه القصص فى القرآن : أن تعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل ، فما فى القرآن شىء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون فى العلم .

تذنيب
(العزلة)

اعلم أن من بلغ مقام الأنس ، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس ؛ لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله . فلابد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما ، فإن العلماء فى ذلك مختلفون ، والأخبار أيضاً فى ذلك مختلفة ، ولكل واحد منهما ايضاً فوائد ومفاسد ، فنقول : الظاهر من جماعة : تفضيل العزلة على المخالطة مطلقاً .

(١) مريم ، الآية : ١٤ . (٢) يوسف ، الآية : ٨ .

والظاهر من الاخرى : عكس ذلك .

نظر الأولين إلى اطلاق ما ورد في مدح العزلة ، والى فوائدها وما ورد فى مدحها ، كقول النبى ﷺ : « إن الله يحب العبد التقى الخفى » ، وقوله ﷺ : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، ثم رجل معتزل فى شعب من الشعاب » ، وقوله ﷺ لمن سأله عن طريق النجاة: « ليسعك بيتك ، وامسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » ، وقول الصادق عليه السلام : « فسد الزمان ، وتغير الاخوان ، وصار الانفراد اسكن للفؤاد » ، وقوله عليه السلام : « اقلل معارفك ، وانكر من تعرف منهم » ، وقوله عليه السلام : « صاحب العزلة متحصن بحصن الله - تعالى - ، ومتحرس بحراسته ، فياطوبى لمن تفرد به سراً وعلانية ! وهو يحتاج إلى عشر خصال : علم الحق والباطل ، وتحبب الفقر ، واختيار الشدة ، والزهد ، واغتنام الخلوة ، والنظر فى العواقب ورؤية التقصير فى العبادة مع بذل المجهود ، وترك العجب ، وكثرة الذكر بلا غفلة ، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب ، وخلوة البيت عما لا يحتاج اليه فى الوقت . قال عيسى بن مريم عليهما السلام: (اخزن لسانك لعمارة قلبك ، وليسعك بيتك ، واحذر من الرياء وفضول معاشك ، واستح من ربك ، وابك على خطيئتك ، وفر من الناس فرارك من الأسد والافعى ، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ، ثم الق الله متى شئت) » . قال ربيع بن خثيم : « إن استطعت أن تكون اليوم فى موضع لا تعرف ولا تُعرف فافعل ، ففى العزلة صيانة الجوارح ، وفراغ القلب ، وسلامة العيش ، وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء ، وراحة القلب ، وما من نبي ولا وصى إلا واختار العزلة فى زمانه ، إما فى ابتدائه ،

وإما فى انتهائه ، (١) .

وأما فوائد العزلة ، فكالفراغ للعبادة ، والذكر ، والفكر ، والاستيناس بمناجاة الله ، والاشتغال باستكشاف اسرار الله فى ملكوت السماوات والأرض ، والتخلص عن المعاصى التى يتعرض الانسان لها غالباً بالمخالطة : كالغيبة ، والرياء ، وسائر آفات اللسان ، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية ، والأخلاق الردية من الناس ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والاستخلاص من الفتن والخصومات واخطارها ، أو من شر الناس وايذائهم قولاً وفعلاً ، وقطع طمعه عن الناس ، وقطع طمعهم عنه ، والخلاص من مشاهدة الظلمة ، والفسقة ، والجهال ، والثقلاء ، والحمق ، ومقاساة أخلاقهم .

ونظر الآخرين ـ اعنى القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة ـ الى اطلاق الظواهر الواردة فى مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة والى فوائدها ، أما ما ورد فى مدحها ، كقول النبى ﷺ : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، وقوله ﷺ : « من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية » ، وكالأخبار الواردة فى ذم الهجرة عن الاخوان ، وقوله ﷺ : « إياكم والشعاب ، وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » .

وأما فوائد المخالطة : كالتعليم ، والتعلم ، وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها ، واستماع المواعظ والنصائح ، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة ، وعيادة المرضى ، وزيارة الاخوان ، وقضاء حوائج المحتاجين ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وادخال السرور على المؤمنين ،

(١) صححنا هذا القول ، وكذا الحديث السابق ، على (مصباح الشريعة) : باب ٢٤ ، وعلى (البحار) : ـ باب العزلة عن شرار الخلق ـ : مج ١٥ : ٢ / ٥١ ط أمين الضرب .

والاستيناس بالاخوان ، وبأهل الورع والعبادة والتقوى ، وهو يروّح القلب ، ويهيج داعية النشاط في العبادة وايصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان ، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال ، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم ، وكسر النفس وشهواتها ، وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم ، وعدم حصوله في الوحدة ، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين ، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجارى أحوالهم. هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة ، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر . وأنت ـ بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله ـ تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الاطلاق خطأ.كيف يجوز أن يقال:ان العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه ، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق ، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها ، فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية ، ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة ؟ وكيف يجوز أن يقال : إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل ، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والإلتذاذ بالطاعات والمناجاة ، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية ، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة ؟

فالصحيح أن يقال : إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر الى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة . فينبغي أن ينظر الى كل شخص وحاله ، والى خليطه ، والى باعث مخالطته ، والى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة ، وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة ، ويوازن بين ذلك ، حتى يظهر الأفضل والأرجح . ولاختلاف ذلك في حق الأشخاص ،

بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات ، ربما يظهر - بعد التأمل - أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة ، ولبعضهم المخالطة ، ولبعضهم الاعتدال فى العزلة والمخالطة . وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق : الخلوة والعزلة ، إذ لا ريب فى أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس ، ولا يتصور من فوائدها شىء يقاوم ذلك . ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة . قال أويس القرنى : « ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره » ، وقال بعضهم : « إذا رأيت الصبح أدركنى استرجعت كراهية لقاء الناس » ، وقال بعضهم : « سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه » . وقال بعض الصالحين : « رأيت فى بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال ، فلما رآنى تنحى عنى وتستر بشجرة ، فقلت له : سبحان الله ! أتبخل على بالنظر اليك ؟ فقال : يا هذا ! انى قمت فى هذا الجبل دهراً طويلا اعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا واهلها ، فطال فى ذلك تعبى ، وفنى فيه عمرى ، فسألت الله - تعالى - أن يعطينى ذلك ، فسكن قلبى عن الاضطراب ، وألف الوحدة والانفراد ، فلما نظرت اليك خفت ان اوقع فى الأول ، فإنى اعوذ من شرك برب العالمين ، وحبيب القانتين ، ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث فى الدنيا ! ، ثم حول وجهه عنى ، وقال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة ، وحلاوة الانقطاع اليه ! ، ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان ، وعن الحور الحسان » . وقال بعض الأكابر : « إنما يستوحش الأنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة ، فيملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه ، فاذا كانت ذاته فاضلة ، طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ، ويستخرج العلم والحكمة » . ومن هنا قيل : (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس) .

فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله ، وبدوام الفكر والتحقيق فى معرفة الله ، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة ، فإن غاية العبادات وثمرة المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله ، عارفاً بالله ، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة إلا بدوام الفكر ، وفراغ القلب شرط لكل منهما ، ولا فراغ مع المخالطة .

فإن قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم فى الشهود والانس .

قلنا : لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً ، والاقبال التام على الله سراً ، إلا قوة النبوة . فلا ينبغى أن يغتر كل ضعيف بنفسه ، فيطمع فى ذلك . ثم ، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين ، فان ما ورد فى فضيلة العزلة إنما هو بالنظر الى بعض الناس ، وما ورد فى فضيلة المخالطه إنما هو بالنظر الى بعض آخر .

ومنها :

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية ، ويرادفه الانكار والاعتراض ، وهو من شعب الكراهة لأفعال الله ، وهو ينافى الايمان والتوحيد . وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر ، والغافل عن موارد الحكم والمصالح ، والاعتراض والانكار ، والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير ، وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه . ولعمرى ! أن من يعترض على فعل الله فهو اشد الجهلاء ، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقد ورد فى الخبر القدسى : « خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير

وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف ! » . وفى خبر قدسى آخر : « أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر على نعمائى ، ولم يرض بقضائى ، فليتخذ رباً سواى » . وفى مناجاة موسى : « أى رب ! أىّ خلقك أحب اليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى . قال : فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرنى فى الأمر ، فإذا قضيت له سخط قضائى » . وفى الخبر القدسى : « قدّرت المقادير ، ودبّرت التدبير ، وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى ، ومن سخط فله السخط منى حين يلقانى » . وقال الباقر عليه السلام : « ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء ، وأحبط الله أجره » . وقال الصادق عليه السلام : « كيف يكون المؤمن مؤمناً ، وهو يسخط قسمته ، ويحقر منزلته ، والحاكم عليه الله ، وأنا الضامن لمن لم يهجس فى قلبه إلاّ الرضا أن يدعو الله فيستجاب له » . وفى بعض الأخبار : « أن نبياً من الأنبياء شكى الى الله - عز وجل - الجوع والفقر والعرى عشر سنين ، فما أجيب اليه ، ثم اوحى الله - تعالى - اليه : كم تشكو ؟ وهكذا كان بدؤك عندى فى ام الكتاب قبل ان اخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من اجلك ؟ أم تريد أن ابدّل ما قدرته عليك ، فيكون ما تحب فوق ما احب ، ويكون ما تريد فوق ما اريد ؟ وعزتى وجلالى ! لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة اخرى ، لأمحونك من ديوان النبوة » (١) . وروى انه : « اوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام : تريد واريد وإنما يكون ما اريد ، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم

---

(١) صححنا هذا الحديث ، وكذا الأخبار القدسية ، السابقة ، على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

لما اريد اتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما اريد » (١) .

وبالجملة : من عرف أن العالم بجميع اجزائه ، من الجواهر والاعراض ، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية ، وأنها النظام الأصلح الذى لا يتصور فوقه نظام ، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الأصلحية والخيرية ، وعرف الله بالربوبية ، وعرف نفسه بالعبودية ، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بشىء مما يرد ، ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الأنبياء أن يقول قط فى أمر : ليت كان كذا ، حتى قال بعض اصحاب النبى ﷺ : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لى لشىء فعلته : لم فعلت ، ولا لشىء لم افعله : لم لم تفعله ، ولا قال فى شىء كان : ليته لم يكن ، ولا فى شىء لم يكن : ليته كان ، وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله ، يقول : دعوه ، لو قضى شىء لكان » . وروى : « أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل أحدهم رجليه على اضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد الى رأسه ، ثم ينزل على اضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ، ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده : يا أبت ! أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ، فقال : يا بنى ! إنى رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ، ومن دار النعيم الى دار الشقاء ، فاخاف أن أتحرك حركة اخرى فيصيبنى ما لا اعلم » (٢) .

---

(١) صححنا هذا الحديث ، وكذا ماروي قبله من أهل البيت - عليهم السلام - على (اصول الكافى) : ج ٢ - باب الرضا بالقضاء - وعلى (سفينة البحار) : ١ / ٢٢٤ .

(٢) صححنا الحديث على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٩٥ .

فصل

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد انكار تحقق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم .

* * *

ضد السخط (الرضا) ، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً، قولا وفعلا ، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ، وصاحب الرضا يستوى عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والبقاء والفناء ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، والموت والحياة ، ولا يرجح بعضها على بعض ، ولا يثقل شيء منها على طبعه ، إذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه - ، وقد رسخ حبه فى قلبه ، بحيث يحب افعاله ، ويرجح على مراده مراده - تعالى - ، فيرضى لكل ما يكون ويرد . وروى : « أن واحداً من ارباب الرضا عمر سبعين سنة ، ولم يقل فى هذه المدة لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان ». وقيل لبعضهم : « ما وجدت من آثار الرضا فى نفسك ؟ فقال : ما فيَّ رائحة من الرضا ، ومع ذلك لو جعلنى الله جسراً على جهنم ، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ، ثم يلقونى فى النار ، وملأ بى جهنم ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج ببالى أنه لم كان كذا ، وليت لم يكن كذا ، ولم هذا حظى وذاك حظهم » . وصاحب الرضا ابداً فى روح وراحة، وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا، وينظر فى كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية ، وسر الحكمة الأزلية ، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه . وفائدة الرضا ، عاجلاً ، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلاً ، رضوان الله والنجاة من غضبه - تعالى -.

فصل

(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين ، وأشرف منازل المقربين ، وهو باب الله الأعظم ، ومن دخله دخل الجنة . قال الله ـ سبحانه ـ :

« رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » (١)

وعن النبي ﷺ : « أنه سأل طائفة من اصحابه : ما أنتم؟ فقالوا : مؤمنون ، فقال : ما علامة ايمانكم؟ فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ! » ، وفى خبر آخر ، قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » . وقال ﷺ : « اعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بثواب فقركم » . وقال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة ، أنبت الله ـ تعالى ـ لطائفة من امتى أجنحة ، فيطيرون من قبورهم الى الجنان ، يسرحون فيها ، ويتنعمون فيها كيف شاؤا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط؟ فيقولون : ما رأينا صراطاً ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم؟ فيقولون : من امة محمد ﷺ ، فتقول : ناشدناكم الله ! حدثونا ما كانت اعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هما؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول

(١) المائدة ، الآية : ١٢٢ ، التوبة ، الآية : ١٠١ . المجادلة ، الآية : ٢٢ ، البينة ، الآية : ٨ .

الملائكة : يحق لكم هذا » . وقال الصادق عليه السلام : « إن الله بعدله وحكمته وعلمه ، جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا عن الله ـ تعالى ـ ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » . وروى : « أن موسى عليه السلام قال : يارب ! دلنى على امر فيه رضاك . فقال ـ تعالى ـ : إن رضاى فى رضاك بقضائى » . وروى : « ان بنى اسرائيل قالوا له عليه السلام : سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا ، فقال موسى عليه السلام : إلهى ! قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى ! قل لهم يرضون عنى حتى ارضى عنهم »(١) . وقال سيد الساجدين عليه السلام : « الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب اوكره ، لم يقض الله ـ عز وجل ـ له فيما أحب اوكره إلا ما هو خير له » . وقال ـ صلوات الله عليه ـ : « الزهد عشرة اجزاء ، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا » . وقال الباقر عليه السلام : « أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله ـ عز وجل ـ ، من عرف الله ـ عز وجل ـ . ومن رضى بالقضاء ، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره » . وقال الصادق عليه السلام : « أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله » . وقال عليه السلام : « قال الله ـ عز وجل ـ : عبدى المؤمن ، لا أصرفه فى شىء إلا جعلته خيراً له ، فليرض بقضائى ، وليصبر على بلائى ، وليشكر نعمائى ، اكتبه يا محمد من الصديقين عندى » . وقال عليه السلام : « عجبت للمرء المسلم لا يقضى الله ـ عز وجل ـ له قضاء إلا كان خيراً له ، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له » . وقال عليه السلام : « إن فيما أوحى الله ـ عز وجل ـ الى موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ : ياموسى ابن عمران ! ما خلقت خلقاً أحب إلىّ من عبدى المؤمن ، وإنى إنما ابتليه لما هو خير له ، واعافيه لما هو خير له ، وازوى عنه لما هو خير له ،

(١) صححنا الأحاديث على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، وليرض بقضائي ، أكتبه في الصديقين عندي ، إذا عمل برضاي وأطاع أمري » .

وقيل له ﷺ : بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » . وقال الكاظم - عليه السلام - : « ينبغي لمن غفل عن الله ، ألا يستبطئه في رزقه ، ولا يتهمه في قضائه »(١) .

وصل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة : أن رضا الله - سبحانه - من العبد يتوقف على رضا العبد عنه - تعالى - ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله - سبحانه - عنه ، وهو أعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه ، كما قال - سبحانه - :

« وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ »(٢) .

وفي الحديث : « إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة ، فيقول لهم : سلوني ، فيقولون : رضاك يا ربنا ! » ، فسؤالهم الرضا بعد التجلي ، يدل على أنه أفضل كل شيء . وورد في تفسير قوله - تعالى - : « ولدينا مزيد » : أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها :

احداها : هدية الله ، ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله - تعالى - :

(١) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي) ج ٢ - باب الرضا بالقضاء . وعلى (سفينة البحار) : ١ / ٥٢٤ .

(٢) التوبة ، الآية : ٧٣ .

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١)

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فتزيد ذلك على الهدية ، وهو قوله ـ تعالى ـ :

« سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » (٢)

والثالثة : يقول الله ـ تعالى ـ : « إنى عنكم راض » ، وهو أفضل من الهدية والتسليم ، وذلك قوله ـ تعالى ـ :

« وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » (٣) :أي من النعيم الذي هم فيه.

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له ، إلا أنه فى الآخرة سبب لدوام النظر والتجلى فى غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة . ولهذا ليست رتبة فى الجنة فوقه . ويروه أهل الجنة اقصى الأمانى ، وغاية الغايات .

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من أنكر امكان تحقق الرضا فى انواع البلاء وفيما يخالف الهوى ، وقال المتمكن فيهما : هو الصبر دون الرضا ، وهو إنما اتى من ناحية انكار المحبة ، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب . وذلك يكون من وجهين :

أحدهما — أن يوجب الاستغراق فى الحب ابطال الاحساس بالألم ، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ولا تستبعدن ذلك ، فان المحارب عند خوضه فى الحرب ، وعند شدة غضبه أو

---

(١) السجدة ، الآية : ١٧ .   (٣) التوبة ، الآية : ٧٢ .
(٢) يس ، الآية : ٥٨ .

خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذى يعدو فى شغل مهم قد تصيبه شوكة فى قدمه ، ولا يحس بألمها اشغل قلبه . والسر : أن القلب اذا صار مستغرقا بامر من الأمور ، لم يدرك ما عداه . فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه ، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم ، لو لا عشقه ، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه . ولا ريب فى أن حب الله ـ تعالى ـ أشد من كل حب ، وشغل القلب به اعظم الشواغل ، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها ، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، ولا يحس بما يجرى عليه .

وثانيهما — الا يبلغ الاستغراق فى الحب بحيث لا يحس بالالم ولا يدركه . ولكن يكون راضياً به ، بل راغباً فيه ، مريداً له بعقله ، وان كان كارهاً له بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة ، فإنه يدرك ألمه ، إلا أنه راض به وراغب فيه . فالمحب الخالص لله ، اذا اصابته بلية من الله ، وكان على يقين بأن ثوابها الذى ادخر له فوق ما فاته ، رضى بها ورغب فيها ، وأحبها وشكر الله عليها . هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذى يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا . وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه فى مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك مشاهد محسوس فى حب الخلق ، فضلا عن حب الخالق والجمال الأزلى الأبدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط والخطأ . فإن القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله . فاذا لاحظوا جلاله هابوا ، واذا لاحظوا جماله تاهوا .

ويشهد بذلك حكايات المحبين ، على ما هو فى الكتب مسطور ، وفى الألسنة والأفواه مذكور . فان للحب عجائب ، من لم يذق طعمها لا يعرفها . وقد روينا : أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر الى وجه يوسف الصديق ﷺ ، كانوا اذا جاعوا نظروا إلى وجهه ، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع . بل فى القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله ، حتى ما احسسن بذلك .

وروى : « أن عيسى ﷺ مرّ برجل اعمى وابرص ، مقعد مفلوج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من الناس ! فقال عيسى : يا هذا ! أى شيء من البلاء تراه مصروفا عنك ؟ فقال : يا روح الله ! انا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبي من معرفته ، فقال : صدقت ! هات يدك ، فناوله يده ، فاذا هو أحسن الناس وجهاً ، وافضلهم هيئة ، قد اذهب الله عنه ما كان به ، وصحب عيسى وتعبد به » .

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصى ، ومقت أهلها ، وحسم اسبابها ، والسعى فى ازالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى . وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور : أن جميع ذلك يخالف الرضا ، إذ كل ما يقصدرده بالدعاء وانواع المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للمؤمن أن يرضى به . وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها .

أما الدعاء ، فلا ريب فى أنا قد تعبدنا به ، وقد كثرت ادعية الانبياء

والأئمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات . وتواترت الأخبار فى الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، واثنى الله ـ سبحانه ـ على عباده الداعين ، حيث قال :

« وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً » (١) . وقال « أُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (٢) . وقال : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ » (٣) .

وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقة النظر ، وتنور النفس وتجليها . وقد جعله الله ـ تعالى ـ مفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف والاحسان . وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادى العالية .

فإن قيل : ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره ، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً ، فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا .

قلنا : إن الله ـ سبحانه ـ بعظيم حكمته ، أوجد الأشياء على التسبيب والترتيب بينهما ، فربط المسببات بالأسباب ، ورتب بعضها على بعض ، وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر ، وهو مسبب الأسباب . والقدر عبارة عن حصول الموجودات فى الخارج من اسبابها المعينة بحسب أوقاتها ، مطابقة لما فى القضاء . والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء فى العالم العقلى على الوجه الكلى ، مطابقة لما فى العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى ،

(١) الأنبياء ، الآية : ٩٠ .
(٢) المؤمن ، الآية : ٦٠ .
(٣) البقرة ، الآية : ١٨٦ .

والعناية عبارة عن احاطة علم الله ـ تعالى ـ بالكل على ماهو عليه احاطة تامة، فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر الى القضاء . ثم، من جملة الأسباب لبعض الأمور الدعاء والتصدق وأمثالها. فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش، ولولم يشربه لكان عطشه باقياً الى أن يؤدى الى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية، ولولم يشربه لبقيت على حالها، وهكذا فى سائر الاسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله ـ تعالى ـ لدفع البلايا ورفعها، ولولم يدع لنزل البلاء ولم يندفع .

فلو قيل : لو كان فى علم الله ـ تعالى ـ وفى قضائه السابق، أن زيداً ـ مثلا ـ يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببلية كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البلية، لم يدع الله، ولم يتصدق، ولم تندفع عنه البلية. والحاصل: ان كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلى يحصل مقتضاه فى الخارج وعالم التقدير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فأى فائدة فى سعى العبد واجتهاده ؟

قلنا : هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً فى فعله ونفى الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه ـ تعالى ـ لحصول مسبباتها، كالتزويج لتحصيل الولد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك . ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور فى موضعها .

وأما انكار المعاصى وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذى شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال :

« وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا » (١) . وقال :
« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » (٢) .

وفى بعض الأخبار : « من شهد منكراً ورضى به فكأنه قد فعله » . وفى آخر : « لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب ، كان شريكا فى قتله » . وفى آخر : « إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه » ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : « فيبلغه فيرضى به » .

وأما بغض الكفار والفجار والفساق ، ومقتهم والانكار عليهم ، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى . قال الله -سبحانه- :
« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » (٣) .وقال :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ » (٤) .

وفى الخبر : « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق » . وقال ﷺ : « أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله » . وقد تقدمت جملة من شواهد هذا فى باب الحب فى الله والبغض فى الله .

فان قيل : المعاصى إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله . والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقاً ،وذلك تناقض،

---

(١) يونس ، الآية : ٧ .
(٢) التوبة ، الآية ٨٨ ، ٩٤ .
(٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٤) المائدة ، الآية : ٥٤ .

فكيف السبيل الى الجمع ؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة فى شىء واحد؟

قلنا : المقرر عند بعض الحكماء : أن الشرور الواقعة فى العالم ، من المعاصى وغيرها ، راجعة الى الأعدام دون الموجودات ، فلا تكون مرادة له ـ تعالى ـ ، ولا داخلة فى قضائه ، وعند بعضهم أنها داخلة فى قضائه بالعرض لا بالذات ، ولا ضير فى كراهة ما ليس فى قضاء الله ـ تعالى ـ بالذات . وعند بعضهم : أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا ، فينبغى أن تكون مكروهة من حيث ذاتها ، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به ، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة . والتحقيق : أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة فى العالم ، اعنى أنها راجعة الى الأعدام وداخلة فى قضائه ـ تعالى ـ بالعرض ، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا فوجه الجمع أظهر . ثم لأبى حامد الغزالى هنا وجه جمع آخر ، لا يروى الغليل ولا يشفى العليل .

فإن قيل : بغض اهل المعاصى ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركها ، واثبات ذلك مشكل .

قلنا : لا اشكال فيه ، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد فى افعالهم ، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض فى هذه المسألة مما لا ينبغى . فالأولى فيها السكوت ، والتأدب بآداب الشرع ، والرجوع الى ما ورد من العترة الطاهرة . وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه فى كتابنا المسمى بـ (جامع الأفكار) .

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق الى تحصيل الرضا ، أن يعلم أن ما قضى الله ـ سبحانه ـ له هو الأصلح

بحاله ، وإن لم يبلغ فهمه الى سيره فيه . مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء . فإن ما قدر يكون ، وما لم يقدر لم يكن ، وحسرة الماضى وتدبير الآتى يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه . فينبغى أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم ، كما للعاشق ، وأن يهون عليه الألم بعظم الثواب التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيفوض امره الى الله ، إن الله بصير بالعباد .

تتميم

(التسليم)

اعلم أن التسليم ، ويسمى تفويضاً أيضاً ، قريب من الرضا ، بل هو فوق الرضا ، لانه عبارة عن ترك الأعراض فى الأمور الواردة عليه ، وحوالتها باسرها إلى الله ، مع قطع تعلقه عليها بالكلية ، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشىء منها . فهو فوق الرضا، إذ فى مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ملحوظ ومنظور له ، وفى مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله - سبحانه - ، وفوق مرتبة التوكل أيضاً ، إذ التوكل - كما يأتى - عبارة عن الاعتماد فى اموره على الله ، فهو بمنزلة توكيل الله فى اموره ، وكأنه يجعل الله - تعالى - بمثابة وكيله ، فيكون تعلقه باموره باقياً ، وفى مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية .

ومنها :

الحزن

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب . وهو أيضاً ، كالاعتراض والانكار ، مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية .

والفرق: أن الكراهة فى الاعتراض أشد من الكراهة فى الحزن، كما أن ضد الكراهة - أعنى الحب فى ضدهما - بعكس ذلك، أى ظهوره فى السرور الذى ضد الحزن اشد من ظهوره فى الرضا الذى هو ضد الاعتراض. فإن الرضا هو منع النفس فى الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا فى الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض فى الخسة والرذالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة فى المشتهيات الطبيعية، والميل الى مقتضيات قوتى الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للامور الجسمانية. وعلاجه: أن يعلم أن ما فى عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجماد، والعروض، والاموال، فى معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء، وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد. واذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والامانى الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالأسباب الدنيوية، ويتوجه بشراشره الى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه احزان عالم الزور، كما اشير اليه فى الكتاب الإلهى بقوله:

«أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»(١).

وفى أخبار داود ﷺ: «يا داود! ما لاوليائى والهمّ بالدنيا؟ إن الهمّ يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم، إن محبى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون». والحاصل: أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه

(١) يونس، الآية: ٦٢.

الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية ، أو يحزن بزوالها . ولقد قال سيد الأوصياء - عليه آلاف التحية والثناء - : « ما لعليّ وزينة الدنيا ؟ وكيف افرح بلذة تفنى ، ونعيم لا يبقى ؟! » . بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود ، ولا يغتم بالمفقود ، ويكون راضياً بما يرد عليه من خير وشر . وقد ورد فى الآثار : « أن الله - تعالى - بحكمته وجلاله ، جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين » ، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود ، فقد فاز بأمن بلا فزع ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا حسرة ، ويقين بلا حيرة ، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس ، فإن كل حزب بما لديهم فرحون ، كالتاجر بالتجارة ، والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ، والقواد بالقيادة ، مع أن ماهو السبب والموجب المفرّح فى الواقع ونفس الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال ، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال . فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية ، والسعادات الأبدية ، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه وآله :

« وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى » (١) .

ومن تصفح فرق الناس ، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء ، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم . فالصبيان فرحهم باللعب

(١) طه ، الآية : ١٣١ .

وتهيئة اسبابه ، وهو فى غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون حد الرجولية ، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضياع والعقار ، وآخر بالاتباع والأنصار ، وفرقة بالنسوان والأولاد ، وطائفة بالحرف والصنايع ، وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ، وبعضهم بالقوة الجسمانية ، وآخر بالجمال الصورى ، وطائفة بالكمالات الدنيوية : كالخط ، والشعر ، وحسن الصوت ، والطب ، والعلوم الغريبة ، وغير ذلك ، حتى ينتهى الى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية ، وهم أيضاً مختلفون ، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة ، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء ، حتى يصل الى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة الربوبية ، والاستغراق فى لجة أنواره ، وسائر المراتب عنده فيء زائل وخيال باطل . ولا ريب فى أن العاقل يعلم أن ما ينبغى أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الأمور ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . فلا ينبغى للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها. ثم ، من تأمل،يجد أن الحزن ليس أمراً وجوديا لازماً ، بل هو أمر اختيارى يحدثه الشخص فى نفسه بسوء اختياره . إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس ، بل ربما لم يملكوه فى مدة عمرهم أصلا ، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على عدمه،بل فرحون راضون،ولو كان الحزن لازماً لفقدهذا الأمر، لكان كل من فقده محزوناً ، وليس كذلك . وايضاً كل حزن يعرض لأجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لأجلها امراً ضرورياً لازماً لما زال أصلا .

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية ، مع أنه يعلم أن الدنيا دار الفناء ، وزخارفها متنقلة بين الناس ، ولا يمكن بقاؤها

لأحد ، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل التبادل والتناوب . ومثلها مثل شمامة تدار فى مجلس بين أهله على التناوب ، يتمتع بها فى كل لحظة واحد منهم ، ثم يعطيها غيره . فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع فى ملكية الشمامة واختصاصها به ، إذا وصلت اليه نوبة الاستمتاع ، وإذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة . وما المال والأهلون إلا ودائع ، ولابد يوماً أن ترد الودائع . فلا ينبغى للعاقل أن يغتم ويحزن لأجل ردّ الوديعة ، كيف والحزن بردها كفران للنعمة ؟ إذ أقل مراتب الشكر أن تردّ الوديعة الى صاحبها على طيب النفس ، لا سيما إذا استرد الأخس ـ أعنى الخبائث الدنيوية ـ ، وبقى الأشرف ـ اعنى النفس وكمالاتها العلمية والعملية ـ . فينبغى لكل عاقل ألاّ يعلق قلبه بالأمور الفانية ، حتى لا يحزن بفقدها . قال سقراط : « إنى لم أحزن قط ، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته ، ومن سرّه ألا يرى ما يسوؤه ، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً » .

ومنها :

عدم الاعتماد

أو ضعفه فى اموره على الله ، والوثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها . وسببه : إما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما . فهو من رذائل قوتى العاقلة والغضب . ولا ريب فى أنه من المهلكات العظيمة ، وينافى الايمان ، بل هو من شعب الشرك . ولذا ورد فى ذمه من الآيات والأخبار ما ورد ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » (١).

وقال : « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » (٢) .

وقال : « وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ » (٣) .

وفى اخبار داود ﷺ : « ما اعتصم عبد من عبادى بأحد من خلق عرفت ذلك من نيته ، إلا قطعت اسباب السماوات من يديه ، واسخطت الأرض من تحته ، ولم ابال بأى واد هلك » . قال رسول الله ﷺ : « من اغتر بالعبيد أذله الله » . وقيل : « مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته بانسان مثله » . فينبغى المؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده ، أعنى التوكل ، كما يأتى .

وصل

التوكل ـ فضيلة التوكل ـ درجات التوكل ـ السعى لا ينافى التوكل ـ الأسباب التى لا ينافى السعى اليها التوكل ـ اعقل وتوكل ـ درجات الناس فى التوكل ـ تفنيد زعم ـ طريق تحصيل التوكل .

• • •

التوكل اعتماد القلب فى جميع الأمور على الله ، وبعبارة اخرى : حوالة العبد جميع أموره على الله ، وبعبارة اخرى : هو التبرى من كل حول

---

(١) الأعراف ، الآية : ١٩٣ .
(٢) العنكبوت ، الآية : ١٧ .
(٣) المنافقون ، الآية : ٧ .

وقوة ، والاعتماد على حول الله وقوته . وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية . فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده ، ولم يلتفت الى غيره ، ولا إلى نفسه اصلاً . ومن لم يجد ذلك من نفسه ، فسببه إما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له من غير نقصان فى اليقين ، كانزعاجه أن يبيت مع ميت فى قبر أو فراش ، مع يقينه بأنه جماد فى الحال لا يتصور منه إضرار ، فلا ينبغى أن يخاف منه ويفرّ عنه ، كما لا يفر من سائر الجمادات . وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلا - ، فشبه العسل بين يديه بالعذرة ، فربما نفر طبعه لضعف قلبه ، وتعذّر عليه أن يتناوله ، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذرة فيه . فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوّة القلب جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون فى القلب شىء آخر ، واليقين شىء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه ، كما قال - تعالى - :

« أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قالَ : بَلىٰ ! وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » (١).

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين فى خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمره الى أن

(١) البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

تبلغ درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون فى البداية . وكم من مطمئن لا يقين له ، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة . فإن اليهودى مطمئن القلب الى تهوّده ، وكذا النصرانى ، ولا يقين لها أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس. واذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف احدهما ، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتى العاقلة والغضبية معاً ، وضده — اعنى عدم التوكل — من رذائل احدهما أو كليهما . ثم ، إنك قد عرفت فى باب التوحيد ، أن عماد التوكل وما يبتنى عليه ، هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهى أن ينكشف للعبد باشراق نور الحق ، بأنه لا فاعل إلا هو ، وأن ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية . فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل . وقد عرفت ـ ايضاً ـ أن المرتبة الثانية منه ـ اعنى التوحيد الاعتقادى ـ إذا قويت ربما اورثت حال التوكل ، إلا أن التوكل كما ينبغى موقوف على المرتبة الثالثة منه .

فصل

(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ، بل هو أفضل درجات الموقنين . ولذا ورد فى مدحه وفضله وفى الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١).

---

(١) المائدة ، الآية : ٢٦ .

وقال : « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١) . وقال : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (٢) . وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (٣) . وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٤) :

أى عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ بجنابه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال رسول الله ﷺ : « من انقطع الى الله ، كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ومن انقطع الى الدنيا ، وكله الله اليها » . وقال ﷺ : « من سرّه أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما عند الله اوثق منه بما فى يده » . وقال ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطيور ، تغدو خماصاً وتروح بطانا » . وعن على بن الحسين ـ عليهما السلام ـ قال : « خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط ، فاتكأت عليه ، فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر فى تجاه وجهى ، ثم قال : يا على بن الحسين ! مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ أعلى الدنيا ؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر . قلت : ما على هذا أحزن ، وإنه لكما تقول . قال : فعلى الآخرة ؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر . قلت : ما على هذا أحزن ، وإنه لكما تقول . فقال : مم حزنك ؟ قلت : مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس . قال : فضحك ، ثم قال :

(١) آل عمران ، الآية : ١٢٢ ، ١٦٠ . المائدة ، الآية : ١٢ . التوبة ، الآية : ٥٢ . ابراهيم ، الآية : ١١ . المجادلة ، الآية : ١٠ . التغابن ، الآية : ١٣ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٣) الطلاق ، الآية : ٣ .

(٤) الانفال ، الآية : ٥٠ .

يا على بن الحسين ! هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! . . . ثم غاب عنى » ، ولعل الرجل كان هو الخضر - على نبينا و ﷺ - . وقال الصادق ﷺ : « اوحى الله الى داود : ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلق ، عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن ، إلا جعلت له المخرج من بينهن » .

وقال ﷺ : « إن الغنى والعز يجولان ، فاذا ظفرا بموضع التوكل اوطنا » .

وقال ﷺ : « من أعطى ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً : من أعطى الدعاء أعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر أعطى الزيادة ، ومن أعطى التوكل اعطى الكفاية . ثم قال : أتلوت كتاب الله - عز وجل - (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، وقال : (ولئن شكرتم لأزيدنكم) ، وقال : (ادعونى استجب لكم) ؟ » .

وقال ﷺ : « أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله - تعالى - اقبل الله قبل ما يحب ، ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن اقبل الله قبله وعصمه ، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية ، كان فى حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس الله - تعالى - يقول : (إن المتقين فى مقام امين) ؟ » . وقال ﷺ « إن الله - تعالى - يقول : وعزتى وجلالى ومجدى وارتفاعى على عرشى ! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس فى غيرى باليأس ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأنحينه من قربى ، ولأبعدنه من وصلى ، أيؤمل غيرى فى الشدائد والشدائد بيدى ؟ ويرجو غيرى ؟ ويقرع بالفكر باب غيرى ، وبيدى مفاتيح الابواب وهى مغلقة ؟ وبابى مفتوح لمن دعانى ، فمن ذا الذي املني لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذى رجانى لعظيمة فقطعت

رجاءه منى ؟ جعلت آمال عبادى عندى محفوظة ، فلم يرضوا بحفظى ، وملأت سماواتى ممن لا يمل من تسبيحى ، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولى ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها احد غيرى إلا من بعد اذنى ؟ فما لى اراه لاهياً عنى ؟ اعطيته بجودى مالم يسألنى ، ثم انتزعته عنه فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، أفترانى ابدأ بالعطاء قبل المسألة ؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلى ؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى ؟ اوليس الجود والكرم لى ؟ أو ليس العفو والرحمة بيدى ؟ أولست أنا محل الآمال ؟ فمن يقطعها دونى ؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيرى ؟ فلو أن اهل سماواتى واهل ارضى أملوا جميعاً ، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع ، ما انتقص من ملكى مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك انا قيمه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتى ! ويا بؤساً لمن عصانى ولم يراقبنى ! »(١) .

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل فى الضعف والقوة ثلاث درجات :

الأولى — أن يكون حاله فى حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ، ولا ينافى اصل التدبير والاختيار ، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه

---

(١) صححنا الاحاديث على (اصول الكافى) : ج ٢ ، باب التفويض الى الله والتوكل عليه . وعلى (البحار) : باب التوكل والتفويض والرضا : ج ١٥ : ٢ / ١٥٣ ، ط (امين الضرب) . والعلامة (المجلسى) ـ قدس سره ـ فى الموضع المذكور ، فى الحديث الخامس ، تحقيق دقيق وبيان لطيف ، لا يسع المقام ذكره هنا ، فمن اراد الوقوف عليه ، فعليه بمراجعة الموضع المذكور .

واختياره . نعم ينافى بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله فى الخصومة ، فإنه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ، ولكن لايترك التدبير الذى اشار اليه وكيله ، ولاالتدبير الذى عرفه منعادته وسنته دون تصريح اشارته .

الثانية — أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه ، فإنه لايعرف غيرها ، ولايفزع إلا اليها ، ولايعتمد إلا عليها . فإن رآهـا تعلق فى كل حال بذيلها ، وإن ورد عليه امر فى غيبتها كان اول سابق لسانه يا اماه ! . والفرق بين هذا وسابقه ، أن هذا متوكل قد فنى فى موكله عن توكله ، أى ليس يلتفت قلبه الى التوكل ، بل التفاته إنما هو الى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف ، وليس فانياً عن توكله ، اى له التفات الى توكله ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الاول ، إذ حصوله إنما هو للخواص ، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين ، وينافى التدبيرات ، إلا تدبير الفزع الى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل فى التعلق بامه فقط .

الثالثة — وهى أعلى الدرجات ، أن يكون بين يدى الله فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل ، بأن يرى نفسه ميتاً ، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت . وهو الذى قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد . والفرق بينه وبين الثانى ، أن الثانى لايترك الدعاء والتضرع ، كما أن الصبى يفزع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها ، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ، فهذا مثال صبى علم أنه إن لم يرص بامه ، فالأم تطلبه ، وإن لم يتعلق بذيلها فهى تحمله ، وإن لم يسأل اللبن فهى تسقيه . ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل

ﷺ لما وضع في المنجنيق ليرمى به الى النار ، واشار اليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله - سبحانه - فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي». وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة الصديقين ، واذا وجد فدوامه لايزيد على صفرة الوجل ، أو حمرة الخجل ، وهو ينافي التدبيرات مادام باقياً ، إذ يكون صاحبه كالمبهوت . ثم ، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره ، وقد يكون في بعضها . وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم ﷺ في قوله-عز وجل-:

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (١) :

«التوكل على الله درجات ، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها ، فما فعل بك كنت عنه راضياً ، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلا ، وتعلم أن الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها » . ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها .

فصل

(السعي لا ينافي التوكل)

اعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم ، بمعنى أنه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها ، أو تكون لها اسباب جالبة لها أو دافعة اياها ، إلا أن العبد لا يتمكن منها .

فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية ، وحوالتها على رب الأرباب ، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات ،

(١) الطلاق ، الآية : ٣ .

لكان خارجا عن التوكل رأساً ، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم ، بمعنى أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها الى جلبها أو دفعها . فالسعى فى مثلها لا ينافى التوكل ، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب . فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالعقل رأساً ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، فقد أبعد عن الحق ، لأن ذلك محرم فى الشرع الأقدس . فإن الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالأسباب التى هداه الله اليها ، من زراعة ، أو تجارة ، أو صناعة ، أو غير ذلك مما أحله الله ، وبابقاء النسل بالتزويج ، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل الى الأسباب المعينة لدفعها . وكما أن العبادات أمور أمر الله ـ تعالى ـ عباده بالسعى فيها ، ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادات فى دار الآخرة ، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والألم عن النفس والأهل والعيال أمور امرهم الله ـ تعالى ـ ، ليحصل لهم بها التوسل الى العبادات وما يؤدى إلى التقرب والسعادة . ولكنه ـ سبحانه ـ كلفهم ايضاً بألا يثقوا إلا به ، ولا يعتمدوا على الأسباب . كما أنه ـ سبحانه ـ كلفهم بألا يتكلوا على أعمالهم الحسنة ، بل على فضله ورحمته . فمعنى التوكل المأمور به فى الشريعة : اعتماد القلب على الله فى الأمور كلها ، وانقطاعه عما سواه . ولا ينافيه تحصيل الأسباب اذا لم يسكن اليها ، وكان سكونه الى الله ـ سبحانه ـ دونها مجوزاً فى نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب ، دون هذه الأسباب التى حصلها ، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها .

فصل

(الأسباب التى لا ينافى السعى اليها التوكل)

الأسباب التى لا ينافى تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هى الأسباب القطعية أو الظنية ، وهى التى يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها ، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضر منتظر أو لإزالة آفة واقعة ،وذلك كمد اليد الى الطعام للوصول الى فيه ، وحمل الزاد للسفر ، واتخاذ البضاعة للتجارة ، والوقاع لحصول الأولاد ، وأخذ السلاح للعدو ، والادخار لتجدد الاضطرار ، والتداوى لازالة المرض ، والتحرز عن النوم فى ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل ، وغلق الباب ، وعقل البعير ، وترك الطريق الذى يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه . . . وقس عليها غيرها .

وأما الأسباب الموهومة ، كالرقية ، والطيرة ، والاستقصاء فى دقائق التدبير ، وابداء التمحلات لأجل التبديل والتغيير ، فيبطل بها التوكل ، لأن امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء ، وليست مما أمر الله ـ تعالى ـ بها ، بل ورد النهى عنها ،على أن المأمور به الاجمال فى الطلب وعدم الاستقصاء. قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا إن الروح الأمين نفث فى روعى : أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ـ تعالى ـ ، واجملوا فى الطلب » . وقال صلى الله عليه وآله : « ما أجمل فى الطلب من ركب البحر » . وقال الصادق عليه السلام : « ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع ، ودون طلب الحريص ، الراضى بدنياه ، المطمئن اليها ، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب ما لا بد منه ، إن الذين

اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم ». وقال ﷺ : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك ، فقد قضيت ما عليك ».

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم أن التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة ، مع أن الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لأن الله - سبحانه - ربط المسببات بالأسباب ، وأبى أن يجرى الأشياء إلا بالأسباب. ولذا لما اهمل الاعرابى بعيره ، وقال : توكلت على الله ، قال له النبي ﷺ : « إعقلها وتوكل ». وقال الصادق ﷺ : « اوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التى سببها لذلك وأمرهم بذلك ». وقال الله - تعالى - :

« خُذُوا حِذْرَكُمْ » (١). وقال في كيفية صلاة الخوف : « وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ » (٢). وقال : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ » (٣). وقال لموسى : « فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً » (٤) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر.

وفى الاسرائيليات : « أن موسى بن عمران ﷺ اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل ، فعرفوا علته، فقالوا له:لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا اتداوى حتى يعافينى الله من غير دواء. فطالت علته ، فاوحى الله اليه :

---

(١) النساء ، الآية : ٧٠ .
(٢) النساء ، الآية : ١٠١ .
(٣) الانفال ، الآية : ٦١ .
(٤) الدخان ، الآية : ٢٣ .

وعزتى وجلالى ! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داوونى بما ذكرتم . فداووه ، فبرىء . فاوجس فى نفسه من ذلك ، فاوحى الله - تعالى - اليه : أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك علي ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى ؟ » . وروى : « أن زاهداً من الزهاد ، فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل ، فقال : لا اسأل احداً شيئاً حتى يأتينى ربى برزقى . فقعد سبعاً ، فكاد يموت ، ولم يأته رزق ، فقال : يا رب ! إن احييتنى فأتنى برزق الذى قسمت لى ، وإلا فاقبضنى اليك . فاوحى الله - تعالى - اليه : وعزتى وجلالى ! لا أرزقك حتى تدخل الأمصار ، وتقعد بين الناس . فدخل المصر فأقام ، فجاء هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فاكل وشرب . فاوجس فى نفسه ذلك ، فاوحى الله اليه : أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا ، أما علمت انى ارزق عبدى بايدى عبادى احب الي من أن ارزقه بيد قدرتى ؟ » .

(فصل)

(درجات الناس فى التوكل)

اعلم أن درجات الناس — كما عرفت — فى التوكل مختلفة ، بحسب تفاوت مراتبهم فى قوة اليقين وضعفه ، وفى قوة التوحيد وضعفه :

فمنهم : من كمل ايمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية ، وتوجه بشراشره الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثراً إلا هو ، وليس نظره الى غيره اصلا ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته ، بحيث لايختلج بباله احتمال أن يكله ربه الى غيره ، ولايعترى نفسه اضطراب اصلا . فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية ، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سواء

حصل الأسباب أم لا ، وسواء كسب أم لم يكتسب ، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امر الله فيه ، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب . وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء ، من أنهم يسافرون فى البوادى التى لايطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل اليهم الرزق ، أولا يتحرزون من السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة الى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة ، اعتماداً على الله ، والله ـ سبحانه ـ ينجيهم منهم ، كانوا منهم : أى من الكاملين فى التوكل . قال الصادق ﷺ : « أبى الله ـ عز وجل ـ أن يجعل ارزاق المؤمنين إلا من حيث لايحتسبون » . وإنما خصه بالمؤمنين ، لأن كمال الايمان يقتضى ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله ـ عز وجل ـ وحده . وكمال الايمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنهم : من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الأسباب والوسائط ، ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق . فهذا هو الذى لاينبغى له أن يعرض عن الأسباب ويتركها ، لأن مثله ليس له المظنة التى توصله الى المقصد بدون الوسائط : اعنى قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه .

فصل

(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم : أن حق التوكل أن يكتفى بالأسباب الخفية عن الأسباب الجلية ، كأن يسافر فى البوادى التى لايطرقها الناس بغير زاد ، بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور فى ذكر الله ،

وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له ، وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعا كان خيراً له فى الآخرة .

وكأن يجلس فى مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة ، والفكر والذكر ، واستغرق وقته بها ، بحيث لايستشرف نفسه الى الناس فى انتظاره ومن يدخل فيحمل اليه شيئاً ، بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله . وهذا محض الخطأ ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الاسبوع ، ويمكنه التقوت بالحشيش ، صارت الأسباب له جلية . فإن عدم الحاجة احد الغنائين . ثم إن كان اعتماده ـ حينئذ ـ على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش ، فاين التوكل ؟ وإن كان وثوقه بالله وحده ، فليقم فى بلده مع الأسباب ، كما أمر الله به فى الشرع . وأما توطين نفسه باختياره على الموت ، فممنوع عقلا ، ومحرم شرعا . قال الله ـ سبحانه :

« وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (١) .

وأما الجالس فى بيته ، التارك لكسبه ، يعبد الله من دون طلب ، فهو أيضاً قد ترك متابعة امر الله . قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن من يقوته أشد عبادة منه » . وربما يكون مثله كلا على الناس ، فإن حاله ينادى بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض الذل . وبالجملة لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها فى التوكل ، بعدما تقرر أن معناه الثقة بالله وحده ، لا بالاسباب ، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها .

فصل

(طريق تحصيل التوكل)

الطريق الى تحصيل التوكل — بعد تقوية التوحيد والاعتقاد ، بأن

(١) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

الأمور باسرها مستندة اليه سبحانه ، وليس لغيره مدخلية فيها – أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه ، وكونه باعث النجاة والكفايه ، ثم يتذكر أن الله – سبحانه – خلقه بعد أن لم يكن موجوداً ، واوجده من كتم العدم ، وهيأله مايحتاج اليه ، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه ، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته ، ولايوصل اليه ما يحتاج اليه ، ولا يدفع عنه مايؤذيه ، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو . وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق الى صاحبها ، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الأغنياء واذلال الأقوياء ، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة ، وكم من ذى مال وثروة هلكت بضاعته أوسرقت وصار محتاجا ، وكم من قوى صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلا بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قوياً واستولى على الكل . ومن تأمل في ذلك ، يعلم أن الامور بيد الله ، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به . والمناط أن يعلم أن الأمور لوكانت بقدرة الله – سبحانه – من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها ، فعدم التوكل عليه – سبحانه – والثقة بغيره غاية الجهل ، وإن كانت لغيره – سبحانه – من الوسائط والاسباب مدخلية ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الامور ، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع اليه كفاه الله كل مؤنة . فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الاسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الامور . وعلامة حصول التوكل ، ألايضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه

وحدوث اسباب ضره . فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، أو تعوق أمر من اموره ، كان راضياً به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحداً . فإن من لم يسكن الى شىء لم يضطرب بفقده ، ومن اضطرب لفقد شىء فقد سكن اليه واطمأن به .

ومنها :

الكفران

(وضده الشكر)

الشكر ـ فضيلة الشكر ـ الشكر نعمة يجب شكرها ـ المدارك تمييز محاب الله عن مكارهه ـ اقسام النعم واللذات ـ الأكل ـ لا فائدة فى الغذاء مالم يكن بشهوة وميل ـ عجائب المأكولات ـ حاجة تحضير الطعام الى آلاف الأسباب ـ تسخير الله التجار لجلب الطعام ـ نعم الله فى خلق الملائكة للانسان ـ الأسباب الصارفة للشكر ـ طريق تحصيل الشكر ـ الصحة خير من السقم .

* * *

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونه متعلقاً باى القوى ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى .

فنقول : الشكر هو عرفان النعمة من المنعم ، والفرح به ، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم . واستعمال النعمة فى طاعته . أما المعرفة . فبأن تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مسخرات من جهته . ولو انعم عليك أحد ، فهو الذى سخره لك ، وألقى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً الى الايصال اليك ، فمن عرف ذلك ، حصل أحد اركان الشكر لله ، وربما كان مجرد ذلك

شكراً ، وهو الشكر بالقلب . كما روى : « أن موسى قال فى مناجاته : إلهى ! خلقت آدم بيدك ، وأسكنته جنتك ، وزوجته حواء أمتك ، فكيف شكرك ؟ فقال : علم أن ذلك منى ، فكانت معرفته شكراً » .

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد ، وهما داخلان فيها . إذ التقديس تنزيهه ـ سبحانه ـ عن صفات النقص ، والتوحيد قصر المقدس عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه ، وهذه المعرفة هى اليقين بأن كل ما فى العالم موجود منه ، والكل نعمة منه ، فينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحانه الله ، فله عشر حسنات ، ومن قال : لا إله إلا الله ، فله عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله ، فله ثلاثون حسنة » . فسبحان الله : كلمة تدل على التقديس ، ولا إله إلا الله : كلمة تدل على التوحيد ، والحمد لله : كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق . ولا تظنن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها ، بل هى بازاء الاعتقاد بمعانيها التى هى المعارف المعدودة من ابواب الايمان واليقين . واما الفرح بالمنعم ، مع هيئة الخضوع والتواضع ، فهو ايضاً من اركان الشكر . بل كما أن المعرفة شكر قلبى برأسه ، فهو ايضاً فى نفسه شكر بالقلب ، وانما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لامن حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه فى الدنيا ، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول فى جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام . وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث إنها توصله الى مجاورة المنعم وقربه ولقائه . وأما

العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . أما المتعلق بالقلب فقصده الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما المتعلق باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه . وأما المتعلق بالجوارح ، فاستعمال نعم الله فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم ، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وامثاله فى جملة شكر نعمة هذه الأعضاء . بل قيل : من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس ايضاً ، إذ الابصار انما يتم بها ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما . بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ، ولا وصول اليه إلا بمحبته والانس به فى الدنيا ، والتجافى عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس إلا بدوام الذكر ولامحبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالارض والماء والهواء والنار ، ولايتم ذلك إلا بخلق الارض والسماء وخلق سائر الاشياء وكل ، ذلك لاجل البدن . والبدن مطية النفس . والنفس الراجعة الى الله هى المطمئنة بطول العبادة والمعرفة . فكل من استعمل شيئاً فى غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها لاقدامه على تلك المعصية . وإذا عرفت حقيقة الشكر ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران ، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم ، أو استعمالها فيما يكرهه .

ثم ، بما ذكرناه، وإن ظهر أن حقيقية الشكر ملتئمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضاً ، كما قال الصادق ﷺ : « شكر كل نعمة ، وإن عظمت ، أن تحمد الله » ، وقال ﷺ : « شكر النعم اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل : الحمد لله رب العالمين » . وسئل عنه ﷺ : « هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً ؟ قال : نعم ! قيل : ما هو ؟ قال : يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وإن كان فيما انعم عليه فى ماله حق أداه . ومنه قوله - جل وعز - :

« سُبْحانَ الّذي سَخَّرَ لنا هـٰذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنينَ » (١) . ومنه قوله - تعالى - : « رَبِّ أَنْزِلْني مَنْزِلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلينَ » (٢) . وقوله : « رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصيراً » (٣) » .

وقال ﷺ : « كان رسول الله ﷺ إذا ورد عليه أمر يسره ، قال : الحمد لله على هذه النعمة . وإذا ورد عليه أمر يغتم به ، قال : الحمد لله على كل حال » . وقال ﷺ : « إذا أصبحت وأمسيت ، فقل عشر مرات : اللهم ما أصبحت بى من نعمة أو عافية فى دين أو دنيا ، فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب ، حتى ترضى وبعد الرضا . فإنك إذا قلت ذلك ، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك فى ذلك اليوم وفى

---

(١) الزخرف ، الآية : ١٣ .
(٢) المؤمنون ، الآية : ٢٩ .
(٣) الاسراء ، الآية : ٨٠ .

تلك الليلة ». وفى رواية : «كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح ، فسمى بذلك عبداً شكوراً ». وقال عليه السلام : «اذا ذكر أحدكم نعمة الله ، فليضع خده على التراب شكراً لله ، فإن كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب ، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه(١)، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه ، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه ». وروى : «أن الصادق عليه السلام قد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله عليّ لأشكرن الله حق شكره ». قال الراوى : فما لبث أن اتى بها ، فقال : «الحمد لله ». فقال قائل له : جعلت فداك ! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره ؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام : «ألم تسمعنى قلت : الحمد لله ؟ »(٢). ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ، ولذا أمر به . وقد كان السلف يتساءلون بينهم ، ونيتهم استخراج الشكر لله ، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل . وقد روى : «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير . فأعاد عليه السؤال ، فأعاد عليه الجواب ، فأعاد السؤال ثالثة ، فقال : بخير ، أحمد الله واشكره . فقال صلى الله عليه وآله : هذا الذى أردت منك ».

﴿ تنبيه ﴾ لا ريب فى أن الجزء الأول من الشكر — اعنى معرفة النعم من الله — من متعلقات العاقلة وفضائلها . والثانى — اعنى الفرح للنفس — إن كان من النعم العقلية الروحانية ، يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً ، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء - مثلا - على عدو ظالم ، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية ، وإن كان من نعمة المال والأولاد ، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية .

---

(١) القربوس — بفتحتين — : حنو السرج ، أى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٢) هذه الرواية مذكورة فى (اصول الكافى) : ج ٢ — باب الشكر . وفى (الوافى) : ٣ /٢٢٤ — باب الشكر . إلا أن المنقول فى نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما فى الموضعين ، فصححناها عليهما .

والجزء الثالث - اعنى العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته . وبهذا يظهر : أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والأول من فضائلها اذا امتزجت وتسالمت ، والثانى من رذائلها .

فصل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار ، وعمدة زاد المسافرين الى عالم الأنوار ، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء . وقد ورد به الترغيب الشديد ، وجعله الله سبباً للمزيد . قال الله - سبحانه - :

« ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » (١). وقال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُم »(٢). وقال : « فاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ وَاشْكُروا لي وَلا تَكْفُرُونِ » (٣) . وقال : « وَسَنَجْزي الشَّاكِرينَ » (٤) .

ولكونه غاية الفضائل والمقامات ، ليس لكل سالك أن يصل اليه ، بل ليس الوصول اليه إلا لأوحدى من كل السالكين . ولذا قال الله رب العالمين :

« وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكورُ » (٥) . وكفى به شرفاً

(١) النساء ، الآية : ١٤٦ .
(٢) ابراهيم ، الآية : ٧ .
(٣) البقرة ، الآية : ١٥٢ .
(٤) آل عمران ، الآية : ١٤٥ .
(٥) سبأ ، الآية : ١٣ .

وفضلاً ، أنه خلق من اخلاق الربوبية ، كما قال الله ـ سبحانه ـ : « وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » (١) . وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمته ، كما قال الله ـ تعالى ـ : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ » (٢) . وقال : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « الطاعم الشاكر ، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب . والمعافى الشاكر، له من الاجر كأجر المبتلى الصابر . والمعطى الشاكر ، له من الاجر كأجر المحروم القانع » . وقال ﷺ : « إن للنعم أوابد كأوابد الوحش ، فقيدوها بالشكر » . وقال ﷺ : « ينادي مناد يوم القيامة : ليقوم الحمادون ! فيقوم زمرة . فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، فقيل : من الحمادون ؟ فقال : « الذين يشكرون الله على كل حال » . وقال السجاد عليه السلام : « إن الله ـ سبحانه ـ يحب كل عبد حزين ، ويحب كل عبد شكور » . وقال الباقر عليه السلام : « كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها ، فقالت : يارسول الله ! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ! ألا أكون عبداً شكوراً ؟ ... قال : وكان يقوم على أطراف اصابع رجليه ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : طه ! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » . وقال الصادق عليه السلام : « ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه ، فتم كلامه ، حتى يؤمر له بالمزيد » . وقال

(١) التغابن ، الآية : ١٧ .
(٢) الزمر ، الآية : ٧٤ .
(٣) يونس ، الآية : ١٠ .

ﷺ : « ثلاث لايضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة »(١) . وقال ﷺ : « في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك ، بل الف أو أكثر ، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - ، أو الرضا بما اعطى ، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من امره ونهيه بسبب نعمته . فكن لله عبداً شاكراً على كل حال ، تجد الله رباً كريماً على كل حال ، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال ، لا طلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها ، فلما لم يكن أفضل منها ، خصها من بين العبادات ، وخص أربابها ، فقال : (وقليل من عبادي الشكور) . وتمام الشكر الاعتراف بلسان السرّ ، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له ، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه ، الى ما لانهاية له ، مستغرقاً في نعمه ، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره ، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه ، والعبد ضعيف لاقوة له أبداً إلا بالله - عز وجل - ، والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الأبد ، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الأصل ، ترى العجب »(٢). ثم كما أن الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا ، فضده - اعني الكفران - من المهلكات المؤدية الى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم . قال الله - سبحانه - :

---

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الشكر . وعلى (البحار) : ج ١٥ ٢ : / ١٣٢ - ١٣٥ ، باب الشكر .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب السادس . وعلى (سفينة البحار) ١ / ٧١٠ .

« فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ » (١) . وقال - تعالى - : « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (٢) .

وقال الصادق عليه السلام : « اشكر من أنعم عليك ، وانعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ، ولا بقاء لها إذا كفرت . الشكر زيادة فى النعم ، وامان من الغير ، أى من التغيير » .

فصل

(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها فى جهة محبة الله ، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها فى جهة محبته . ولا ريب فى أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله ، إذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله ، لأن جوارحنا ، وقدرتنا ، وارادتنا ، ودواعينا ، وافاضة المعارف علينا ، وسائر الأمور التى هى أسباب حركاتنا ، بل نفس حركاتنا ، من الله . وعلى هذا ، فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر ، وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضاً نعمة من الله - سبحانه - ، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه . وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر . وهكذا ، فلابد من الشكر فى كل حال ، وليس يمكن أن تنتهى سلسلة الشكر إلى مالايحتاج الى شكر . فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره - تعالى - ، إذ عرفان

---

(١) النحل ، الآية : ١١١ . (٢) الرعد ، الآية : ١٢ .

عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم ، حتى شكره من الله ، وهذا غاية ما يمكن للعبد . ويشهد بذلك ما روى : «أن الله ـ عز وجل ـ أوحى الى موسى ﷺ : ياموسى ! اشكرنى حق شكرى . فقال : يارب ! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت انعمت به على ؟ قال : ياموسى ! الآن شكرتنى ، حيث علمت أن ذلك منى ». وكذلك أوحى ذلك الى داود ، فقال : «يارب ! كيف اشكرك وانا لا استطيع أن اشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ». وفى لفظ آخر : «وشكرى لك نعمة اخرى منك ، ويوجب على الشكر لك ، فقال : اذا عرفت هذا فقد شكرتنى ». وفى خبر آخر : «اذا عرفت أن النعم منى ، رضيت عنك بذلك شكراً ». وروى : «أن السجاد ﷺ كان اذا قرأ هـذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول : سبحان من لم يجعل فى احد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ! . كما لم يجعل فى احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بانه لايدركه ، فشكره ـ تعالى ـ معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره ، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً ، كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه ، فجعله ايمانا ، علماً منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك ، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته ، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ». وقال ابو الحسن ﷺ : «من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة » (١) ، يعنى أنه نعمة فوق تلك النعمة ، يستدعى شكراً آخر .

---

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافى) ج ٢ ، باب الشكر ، وعلى (الوافى) : ٣ / ٣٢٤ . باب الشكر .

(فصل)

(المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن نقيض ذلك — اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه — ، فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه ، وتمييز محابه عن مكارهه ، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران ، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما . وهذا التمييز والتعريف له مدركان :

احدهما — الشرع ، فإنه كشف عن جميع مايحبه وما يكرهه ، وعبر عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثانى بالمحرمات والمكروهات . فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع فى افعال العباد ، فمن لم يطلع على حكم الشرع فى جميع افعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر .

وثانيهما — العقل والنظر بعين الاعتبار ، فإن العقل متمكن — فى الجملة — من أن يدرك بعض وجوه الحكم فى بعض الموجودات . فإن الله - سبحانه - ما خلق شيئاً فى العالم إلا وفيه حكم كثيرة ، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة ، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله - تعالى - . فمن استعمل كل شىء على النحو الذى يؤدى الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التى خلق لها فقد شكر نعم الله - تعالى - ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذى لم يؤد الى المقصود منه أو فى جهة غير الجهة التى خلق لها ، فقد كفر نعمة الله .

ثم العقل لايتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شىء ، إذ الحكم المقصودة من الأشياء ، إما جلية أو خفية . أما الجلية : كحكمة حصول الليل والنهار فى وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم فى وجود الليل والنهار ، وحكمة انشقاق الأرض بانواع النبات فى وجود الغيم ونزول

الأمطار ، وحكمة الإبصار فى العين ، والبطش فى اليد ، والمشى فى الرجل ، وحصول الأولاد ، وبقاء النسل فى آلات التناسل وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن فى خلق الأسنان وأمثال ذلك . وأما الحكم الخفية : كالحكم التى فى خلق الكواكب السيارة والثابتة ، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التى فى بعض الاعضاء الباطنية للحيوان ، من الامعاء والمرارة والكلية واحاد العروق والاعصاب والعضلات ، ومافيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك . فهذه الحكم وأمثالها لايعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدراً يسيراً . فإن جميع اجزاء العالم .سماءه وكواكبه ، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض ، وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان ، لاتخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف أو اكثر ، وقليل منها جلية ، واكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسط فى الجلاء والخفاء ، يعرفها المتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية ، الروحانية والجسمانية ، جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذى هو مقتضى المصلحة المقصودة منها . وأما الانسان ، فلكونه محل الاختيار ومجراه ، فقد يجرى ويستعمل الأشياء التى يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك ، فيكون كافراً بنعمة الله ـ سبحانه ـ . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله فى اليد ، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه مايؤذيه ، ويأخذ ماينفعه ، لاليهلك به غيره . ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ، لانها خلقت

ليبصر بها ماينفعه فى دينه ودنياه ، ويتق بها ما يضره فيهما · ومن ادخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما ، لانهما حجران لامنفعة ولاعوض فى أعيانهما ، وإنما خلقهما الله ـ تعالى ـ ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة ، فهما عزيزان فى أنفسهما · ولاغرض فى اعينهما . ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً، فانه لايملك إلا الثوب . فان احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب ، إذ لا غرض له فى ذاته ، بخلاف النقدين ، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء . والأشياء إنما تستوى نسبتها الى المختلفات — إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها — كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون ، وكالحرف لا معنى لها فى نفسها ، بل تظهر لها المعانى فى غيرها ، وكذلك النقدان ، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض . فالحكمة فى خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل ، وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتقوم بهما الأشياء المتباينة ، ويحصل التوسل بهما الى سائر الأموال · فيلزم اطلاقهما لتداولهما الأيدى ، وتحصل بهما التسوية فى تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة ،فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الى ما يحتاج ، وانفق الزائد فى سبيل الله ، فهو الذى استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما . ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهيه المكتوبة على صفحاتهما فى فائدتهما وحكمتهما بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت ، أخبرهم الله عن ذلك بقوله :

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (١).

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما ، يظهر أن من اتخذ الأوانى منهما فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، إذ لاغرض فى عينهما ، فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة . وكذلك الحكمة فى خلق الاطعمة أن يغتذى بها ، فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها وتقيد فى الايدى ، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج . ولذا ورد فى الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا فى الاطعمة ، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها . وإذا عرفت ذلك ، فقس عليه جميع افعالك واعمالك وحركاتك وسكناتك ، فإن كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لايتصور أن ينفك عنهما ، مثلا لو استنجيت باليمين ، فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله اليدين وجعل إحداهما أقوى ، واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الاقوى فى الافعال الشريفة ، كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرف الاضعف فى الاعمال الخسيسة ، كازالة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لان الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة فى الحظوظ ينبغى أن تكون بالاشرف ، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة ، فخلافه ظلم وكفران .

(١) التوبة ، الآية : ٣٥ .

وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله فى خلق الجهات وخلق سعة العالم، لانه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرّف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغى استقباله بالأفعال الشريفة ، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء ، دون الافعال الخسيسة ، كقضاء الحاجة ورمى البزاق ، فمن قضى حاجته أورمى بزاقه الى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله . وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمةالله فى خلق الاشجار وفى خلق اليد . أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة المعينة عليها . وأما الشجر ، فلان الله ـ تعالى ـ خلقه ، وخلق له العروق وساق اليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده ، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة . نعم إن كان له غرض صحيح فى كسره فله ذلك . إذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لاغراض الانسان ، فأنهما جميعاً فانيان هالكان . فافناء الأخس فى بقاء الأشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا . واليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ جَميعاً »(١) .

ثم هذه الافعال المتصفه بالكفران ، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذى هو افق الشياطين . ولذلك يوصف بعضها ـ فى لسان الفقه ـ بالكراهة وبعضها بالحضر . وقد سوح فى الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة ، مع أن جميعها عدول عن العدل ،

(١) الجاثية ، الآية : ١٢ .

وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة الى القرب ، لأن الخطاب به إنما هو الى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وقد انغمسوا فى ظلمات اعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها · فإن المعاصى كلها ظلمات ، إلا أن بعضها فوق بعض ، فيتمحق بعضها فى جنب البعض · ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية فى نفسه · ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر ، ولايتسامحون فى شىء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب . حتى نقل : « ان بعضهم جمع أكراراً من الحنطة ليتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً ، فأريد أن اكفره بالصدقة » .

فصل

(أقسام النعم واللذات)

اعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر . وهى تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره ، أى تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية اخرى . وهى مخصوصة بسعادة الآخرة التى لاانقضاء لها ، اعنى لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه ، وسائر لذات الجنة ، من البقاء الذى لافناء له ، والسرور الذى لاغم فيه ، والعلم الذى لاجهل معه ، والغنى الذى لافقر بعده ، وغير ذلك . فإنها لاتطلب ليتوصل بها الى غاية اخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها ، وهذه هى النعمة الحقيقية واللذة الواقعية ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا عيش إلا عيش الآخرة » ، وغالب هذه النعمة والسعادة واقواها واشرفها هى اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية — كما لا يخفى — ، فيختص بادرا كها العقل ،

ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها · والى مايقصد لغيره، أى تكون مطلوبة لاجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها، سواء أ كانت مقصودة لذاتها ايضاً أم لا . وهى تنقسم الى اربعة اقسام :

القسم الاول — وهو الأقرب الأخص : الفضائل النفسية المذكورة فى هذا الكتاب ؛ ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وهذه مع كونها لذيذة فى نفسها ، تكون وسيلة الى النعمة التى هى غاية الغايات بلا توسط وسيلة اخرى . ولذلك قلنا : هى اقرب الوسائل وأخصها · وأشرفها العلم ، وأشرف أفراد العلم : العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله ، وأحوال النشأة الآخرة ، وسائر أفعاله ، وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق ، إذ هو الذى يؤدى الى السعادة الحقيقية بلا توسط شىء آخر ، وسائر العلوم إنما هى مقصودة من حيث كونها وسائل الى هذا العلم ، وهذه الفضائل لذيذة فى الدنيا والآخرة نافعة فيهما ، أى تؤدى الى الراحة فيهما ، وجميلة على الاطلاق ، أى تستحسن فى جميع الأحوال · وضدها — اعنى الجهل والأخلاق السيئة — ضارة مؤلمة فى الدارين ، قبيحة على الاطلاق . وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الأوصاف · فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع ، أى حصول الراحة فى الحال ، ولكنه ضار فى المآل ، وترك الشهوات بعكس ذلك .

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لاتزول أبداً ، لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس . وأما غيرها من اللذات ، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات ، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهــذه اللذة موجودة فى الأسد والنمر وبعض أخر من الحيوانات · وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر

الحيوانات ، كلذة البطن والفرج ، وهى أخس اللذات ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . فمن جاوز هذه اللذة ، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء ، فإن جاوزها أيضاً ارتقى الى اللذة العقلية ، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة ، لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه مرتبة الصديقين ، ولاينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه ، ولذلك قمعها بالكلية ، بحيث لايقع بها الاحساس قط ، يشبه أن يكون خارجا عن مقدرة البشر . نعم ربما غلبت لذة المعرفة فى احوال ، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، إلا أن ذلك لا يدوم ، بل تعتريه الفترات ، فتعود الى الحالة البشرية . وعلى هذا ، تنقسم القلوب الى أربعة أقسام : قلب : لا يحب إلا الله ، ولا يستريح إلا اليه ، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه ، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه . وقلب : أغلب احواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن فى بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع الى أوصاف البشرية . وقلب : أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفى بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والانس به . وقلب : لا يدرى مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات . والأول — إن كان ممكناً فى الوجود فهو فى غاية الندور . والثانى — أيضاً نادر . والسر فى ندور هذين القسمين : أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه ، أو غلب عليه ذلك ، فهو من ملوك الآخرة ، والملوك هم الأقلون ولا يكثرون . فكما لا يكون الفائق فى الملك والاستيلاء فى الدنيا إلا نادراً ، واكثر الناس دونهم ، فكذا فى ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة . إذ الدنيا عالم

الشهادة وفى الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة ، وهى وإن كانت الثانية فى رتبة الوجود ، إلا أنها فى أمر الرؤية أولى ، لأنك ترى صورتك فى المرآة أولا ، ثم ترى نفسك ، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التى هى قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع فى الوجود متبوعاً فى حق الرؤية والمعرفة ، وانقلب المتأخر متقدماً . وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم . وكذا عالم الملك والشهادة يحاكى عالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من لا ينظر فى مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر فى شىء من عالم الملك إلا ويعبر به الى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به ، فقيل :

« فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ » (١)

ومنهم من عميت بصيرته ، فلم يعتبر ، فاحتبس فى عالم الملك والشهادة ، وستفتح الى حبسه له أبواب جهنم . وأما الثالث — فأكثر وجوداً منه . وأما الرابع — فدار الدنيا طافحة به ، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم ، إما لعدم الذوق ، إذ من لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق فرع الذوق ، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل ، ولا يستلذ إلا باللبن ، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل . وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لا يدرك لذة السكر ، أو الميت الذى سقط عنه الادراك . وهؤلاء كالمرضى أو الأموات بسبب اتباع الشهوات .

القسم الثانى — الفضائل البدنية : وهى أربعة : الصحة ، والقوة ، وطول العمر ، والجمال .

(١) الحشر ، الآية : ٢ .

الثالث — النعم الخارجة المضيفة بالبدن : وهى : المال ، والجاه ، والأهل ، وكرم العشيرة .

الرابع — الأسباب التى تناسب من وجه الفضائل النفسية ، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية : وهى : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض ، الى أن ينتهى الى السعادة التى هى مطلوبة لذاتها . والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة ، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية ، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن ، أو على سبيل النفع والاعانة ،كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة فى تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر . واعانة الجمال فى كسب الفضائل النفسية والبدنية مبنى على أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل الى الاجابة أقرب ، وجاهه فى الصدور أوسع . وأيضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس ، لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن . ولذلك عوّل اصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيئات البدن . ثم إنا لا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة ، فإن ذلك انوثة ، بل نعنى به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة ، وارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال فى اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناسب خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه . وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية الى النعم التوفيقية ، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، بشرط كون المراد والمقضى سعادة . وبعبارة اخرى : هو توجيه الأسباب نحو المطلوب .

وأما الهداية ، فلها مراتب : أولاها : الهداية العامة ، وهى إراءة طريق الخير وتعريفه . وثانيتها : الخاصة ، وهى الافاضات المتتالية الواردة من

الله على بعض عبيده ، نظراً الى مجاهدتهم . وثالثتها : الهداية المطلقة ، وهى النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية ، فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى اليه بالعقل . وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة ، كائناً ما كان ، على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ، ظاهر .

وأما الرشد ، فالمراد به العناية الإلٓهية، التى تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده ، فيقويه على ما فيه صلاحه ، ويفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن . وبعبارة اخرى : هو هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها . وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ، ليصل اليه فى أسرع وقت . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الأعضاء الى صوب الصواب والسداد . وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً فى طلب الخير أيضاً من حاق معناه .

وأما التأييد ، فإنه جامع للكل ، إذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة ، فكأنه من داخل ، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وتقرب منه العصمة ، وهى عبارة عن وجود إلٓهى يسنح فى الباطن ، يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع باطنى غير محسوس يمنع عن الشر . وهو المراد من برهان الرب فى قوله ـ تعالى ـ :

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » (١) .

(١) يوسف ، الآية : ٢٤ .

تنبيه

اعلم أن النعم الاخروية ، التى هى الغايات المطلوبة لذواتها ، وتفاصيلها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه ، الى أن ينتهى الى مسبب الأسباب ، مما لا يمكن دركها ، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

وأما الوسائل الأربعة من النعم التى انقسم كل منها أيضاً الى أربعة أقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسما ، فيستدعى كل قسم من الستة عشر أسبابا ، وتلك الاسباب اسبابا ، حتى تنتهى بالآخرة الى مسبب الأسباب وموجد الكل . والمتفكر يعلم ، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء . فان نعمة الصحة التى من النعم الواقعة فى المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل . وإن احصاءها وإن لم يكن ممكناً ، إلا أنا نشير الى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء ، لتقاس عليها البواقى . فنقول :

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه ، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته وأسبابه ، وعلى القدرة الى تحصيله واسبابه ، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكونه ، وعلى اصلاحه بعد وجوده وتكونه ، وعلى الأسباب الموصلة له الى كل انسان لو كان بعيداً عنه ، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة الى أن يصير جزء للبدن ، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة . فها هى نذكرها اجمالا وتلويحاً فى فصول :

فصل

(الأكل)

الأكل يتوقف أولا على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماما وذوقاً ، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أو صافه اللازمة فى الأكل ، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد ، لا سيما لبعض الحيوانات ، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة ، فخلقها الله ـ سبحانه ـ . ثم ، الأسباب التى يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى. فلا نتعرض لبيانها . وبعد ادراك الغذاء — على ما ذكر — لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذى ذاقه سابقاً ورآه مرة أخرى موافقاً أو مخالفاً ، وهذه القوة هى الحس المشترك ، الذى يتأدى اليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه ، فإنك اذا أكلت شيئاً أصفر ـ مثلا ـ فوجدته مراً مخالفاً لك فتركته ، فاذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ ما لم تذقه ، لو لا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مرّ ، فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذه القوة — أعنى الحس المشترك — يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن احصاؤها ، فلتقدرها على سنابلها .

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك ، مما تشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان أيضاً به لكان ناقصاً . إذ البهيمة

تأ كل ما تستلذ به فى الحال ويضرها فى ثانى الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، وأما ادراك العواقب فليس لها اليه سبيل . فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى . فخلق الله للانسان العقل ، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى المآل ، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها واعداد أسبابها ، فينتفع بعقله فى الأكل الذى هو سبب صحته ، وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه ، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى ، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله . والعقل بمنزلة السلطان فى مملكة البدن ، والحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الأخبار والموكلين بنواحى المملكة ، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص . فواحدة بأخبار الألوان ، واخرى بأخبار الأصوات ، وأخرى بأخبار الروائح ، وأخرى بأخبار الطعوم ، وأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة . فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها الى الحس المشترك ، وهو قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك ، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم ، ويأخذها ويسلمها الى العقل الذى هو السلطان مختومة ، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها ، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه . ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك ، سلم ، لأنها آتية اليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها . وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرّك الجنود — أعنى الأعضاء — فى الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التى تعن له . ثم عجائب حكم العقل والاسباب التى يتوقف خلقه عليها ليس دركها فى مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها .

فصل

(لا فائدة فى الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

إذا أدرك الغذاء ، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه . إذ لو لا الميل اليه لكان ادراكه بأى حس وقوة فرضاً معطلا[٢] . ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته ، فلا يتناوله . فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه ؟ فيتوقف الأكل على ميل الى الموافق ، ويسمى شهوة ، ونفرة عن المخالف ، ويسمى كراهة . فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمتقاضى الذى يضطره الى التناول ، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه ، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها ، ولم يجعلها كالزرع الذى لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى اسافله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج الى آدمى يقدّر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى . ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفى ، ما لم تنبعث الداعية الى تناول الغذاء . فخلق الله - تعالى - له الارادة — أعنى انبعاث النفس الى تناوله . وربما حصل الاحتياج الى قوة الغضب - ايضاً - ليندفع عن نفسه المؤذى وما يضاده ويخالفه ، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء . ثم لكل واحد من الشهوة ، والكراهة ، والارادة ، والغضب ، اسباب لا يمكن احصاؤها . ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارادته ، لا يفيد شيئاً من ذلك مالم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما . فكم من زمن شائق الى شىء بعيد منه مدرك له مائل اليه مريد له ، لا يمكنه أن يمشى اليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو عذر فيهما . فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة فى تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً . فلذلك

خلق الله - تعالى - لك الأعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها . فمنها ما هو آلة للطلب ، كالرجل للانسان ، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ما هو آلة لدفع المؤذى والمانع من طلب الغذاء ، كالقرن لبعض الحيوانات ، والأنياب لبعض أخر منها ، والمخلب لبعض آخر منها ، والأسلحة للإنسان القائمة مقام هذه الآلة . ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول ، كاليدين للانسان . ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر ، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها فى باب التفكر .

فصل

(عجائب المأكولات)

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه ، هى الأغذية والأطعمة المأكولة ، ولله - تعالى - فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، واسباب متوالية لا تتناهى . والأغذية والأدوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً يمكن احصاؤها وحصرها ، فضلاً عن بيان عجائبها واسبابها . فنحن نترك الجميع ، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة ، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها . فنقول :

قد خلق الله فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك فى الحس والحركة دون الاغتذاء ، لأنه يغتذى بالماء . ولا نتعرض لذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة . فنقول :

إنّ الحبة لا تغتذى بكل شيء ، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء . ولابد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء اليها ، فلو تركتها فى ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء . ثم الهواء

لا يتحرك اليها بنفسه ، فلابد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » (١)

وإلقاحها إنما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم لا يكفي ذلك فى إنباته فى برد مفرط ، فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع . فهذه أربعة اسباب . فإن الماء لابد أن ينساق الى ارض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقى ، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك . ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع اليها مياه العيون والقنوات ، فخلق الله الغيوم ، وهى سحب ثقال حاملات للماء ، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه الى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها مدراراً على الأراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة ، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله ـ تعالى ـ وعجائب صنعه وحكمته فى السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن احصاؤها . وأما الحرارة ، فإنها لا يمكن أن تحصل فى الماء والأرض ، لكونهما باردين . فخلق الله الشمس ، وسخرها ، وجعلها ـ مع بعدها عن الأرض ـ مسخنة لها فى وقت دون وقت ، ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه أخس حكم الشمس ، والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إن أرتفع على الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فخلق الله القمر ، وجعل من خاصيته الترطيب ، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له فى الليل ، فإنه تغلب على رأسك

(١) الحجر ، الآية : ٢٢ .

الرطوبة المعبر عنها بـ (الزكام) ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم . وهذا ايضاً أخس فوائد القمر وحكمه ، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع فى استقصائه ، بل كل كوكب فى السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لاتفى القوى البشرية باحصائها. وكما أنه ليس فى اعضاء البدن عضو لا فائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من اعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهى متفاوتة تفاوت اعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس فى مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله - سبحانه - ، وآثار من قدرته الكاملة ، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست فى انفسها إلا أعدام صرفة . فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له ، إذا نظروا الى ملكوت السماوات والأرض ، والآفاق والأنفس ، والحيوانات والنباتات ، لا ينظرون اليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون تفكرهم وسعيهم فى العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغوفاً بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له . فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله ، فإن العالم كله من تصنيفه - تعالى - ، بل جميع المصنفين أيضاً من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف ، فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتأليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة ،فلا تتعجب من اللعب،فإنها خرق محركة لا متحركة،ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا

(١) المشعوذ : الرجل الحيال ، الذي يصنع الشعبذة .

يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التى هى مركوزة فيها ، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الأسباب الى أن تنتهى الى مسبب الأسباب وغاية الكل ، وليس لنا سبيل الى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها .

فصل

(حاجة تحضير الطعام الى آلاف الأسباب)

ثم ما ينبت من الأرض من النبات ، وما يحصل من الحيوانات ، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك ، بل لابد فى كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف ، بالقاء البعض وابقاء البعض ، الى غير ذلك من الأعمال التى لا تحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة ، واستقصاء ذلك فى كل طعام طويل . فلنأخذ رغيفاً واحداً ، وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير ويصلح للأكل ، إذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض ، ثم إلقاء البذر فيها ، ثم الثور الذى يثير الأرض مع آلاته ، كالفدان وغير ذلك ، ثم تنقية الأرض من الحشائش ، والتعهد بسق الماء الى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد، ثم الفرك، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الافعال ، واستحضر سائر الافعال التى لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها . وانظر الى اعمال الصناع فى اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما ، واحتياج

كل منها الى آلات كثيرة . ثم انظر كيف ألف الله - سبحانه - بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين ، وسلط عليهم الأنس والمحبة ، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض . ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة ، والانحراف عن الحق ، ربما زالت المحبة بين البعض لا عراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى إلى التنافر والتقابل . فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا اليها عند التنازع ، فيرتفع نزاعهم . ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها . وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلط الله السلاطين اولى القوة والعدة على الناس ، وألقى رعبهم فى قلوبهم ، والهمهم اصلاح العباد ، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق ، واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التآلف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض . فإصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين ، وإصلاح السلاطين بالعلماء ، وإصلاح العلماء بالأنبياء ، وإصلاح الأنبياء بالملائكة ، واصلاح الملائكة بعضهم ببعض ، الى ان ينتهى الى حضرة الربوبية ، التى هى ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وقد ظهر مما ذكر : أن من فتش يعلم ، أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل مالم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس .

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد فى كل مكان وبلد ، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها ، لا يمكن إلا أن يوجد فى بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون اليه من الأطعمة ، بحيث تحول بينهم وبينها البرارى والبحار ، فسخر الله - تعالى - التجار ، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح ، حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الأخطار فى قطع المفاوز وركوب البحار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب فى البوادى والجبال ، من الجمال وكيفية قطعها البرارى والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش ، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها ، ومن الحمار وصبره على التعب ، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج اليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء ، وينتهى الى حد لا يمكن تحديده .

فصل

(نعم الله فى خلق الملائكة للانسان)

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن . وهذا موقوف على اعمال كثيرة ، محتاجة الى أسباب كثيرة ، من الطحن ، والجذب ، والهضم المعدى والكبدى ، وغير ذلك من الأفعال التى يحتاج كل منها الى أسباب كثيرة . وقد أشرنا الى لمعة من

كيفية ذلك فى باب التفكر ، فارجع اليه . وهنا نشير الى أنموذج من نعمة الله فى خلق الملائكة . فنقول :

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصوره تفصيلا أو إجمالا . ولهم طبقات وأصناف : منها : طبقات الملائكة الأرضية . ومنها : الملائكة السماوية . ومنها : حملة العرش العظيم . ومنها : المسلسلون . ومنها : المهيمنون . . . وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم ، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه - . فكل صنع من صنائع الله فى الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به . فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الأكل والاغتذاء الذى كلامنا فيه ، دون ما يجاوز ، وذلك من صنائع الله وافعاله ، ومن الوحى الى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر . فنقول : إن كل جزء من اجزاء بدنك ، بل من اجزاء النبات ، لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة ، هم أقل الأعداد ، إلى عشرة الى مائة ، الى أكثر من ذلك بمراتب .

بيان ذلك : ان معنى الاغتذاء : أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك . وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء ، حتى يصير جزءاً للبدن،كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظما.ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى اطوارها ، كما أن البُر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخا إلا بصناع ، والصناع فى الباطن هم الملائكة ، كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد . فالغذاء ، بعد وضعه فى الفم إلى أن يصير دماً ، لا بد له من صناع من الملائكة ، ولا نتعرض لهم و لبيان عددهم ، ونقول : بعد صيرورته دماً الى أن يصير جزءاً للبدن ، يتوقف على سبعة من

الملائكة ، إذ لا بد من ملك يجذب الدم الى جوار اللحم والعظم ، إذ الدم لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا ، ولابد من سابع يراعى المقادير فى الإلصاق ، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض على ما لا يبطل عرضـــه ، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه ، وهكذا ... ويراعى فى الالصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج اليه . فلو جمع لانف الصبى — مثلا — من الغذاء ما يجمع على فخذه ، لكبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته ، بل ينبغى أن يسوق الى الاجفان مع رقتها ، والى الأفخاذ مع غلظتها ، والى الحدقة مع صفائها ، والى العظم مع صلابته ، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعى العدل فى القسمة والتقسيط ، وإلا بطلت الصورة ، وتشوهت الخلقة ، ورق بعض المواضع وضعف البعض . فراعاة هذه الهندسة مفوضة الى ملك من الملائكة . وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن من أحال هذه الأمور الى الطبع جاهل ولا يدرى ما يقول . فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور ، ويقول : إن كل فعل من هذه الأفعال موكول الى قوة لا شعور لها ، فنقول : ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته ، إذ لا ريب فى أن ما لا شعور له ليس له فى نفسه أن يفعل فعلا ما ، فضلا عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة، مشتملة على الحكم الدقيقة ، والمصالح الجلية والخفية . فتكون هذه شروطا ناقصة لإيجاد الله ـ سبحانه ـ هذه الأفعال بلا واسطة ، أو بواسطة عدد هذه

القوى من الملائكة . وعلى أى تقدير ، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله ـ سبحانه ـ مسخرين فى باطنك ، موكلين بهذه الأفعال ، قد شغلوا بك ، وأنت فى النوم تستريح ، وفى الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم ، وكذلك فى كل جزء من اجزائك التى لا تتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء – كالعين والقلب – الى أكثر من مائة ملك . ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ،والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس ، المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت . ومن أراد أن يعلم – اجمالا – كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والأرضين ، وأجزاء النبات والحيوانات ، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك ، فليرجع فى ذلك الى الأخبار الواردة من الحجج – عليهم السلام – . ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكا واحداً على حدة ، ولا يمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال فى الحنطة ، كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كسرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالتنور . إذ الملك وحدانى الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات . فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله ـ تعالى ـ :

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » (١)

(١) الصافات ، الآية : ١٦٤ .

ولذلك ، ليس بينهم تحاسد وتنافس . ومثالهم فى تعين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس ، وليس كالانسان الذى يتولى بنفسه اموراً مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه ، فإنه لما لم يكن وحدانى الصفة لم يكن وحدانى الفعل ، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى . وذلك غير موجود فى الملائكة ، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور فى حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة . فالراكع منهم راكع أبداً ، والساجد منهم ساجد دائماً ، والقائم منهم قائم أبداً ، لا اختلاف فى افعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم . وإذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية ، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء ، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة ، فإن بيان ذلك ليس ممكناً . ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة فى عالمى الجبروت والملكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما ، فإن اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية ، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء ، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات ؟ .

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة ، الى أن ينتهى الى الله ، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما : أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة فى الوجود ، فمن نظر الى غير محرم — مثلا — فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله فى الأجفان ، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين ، ولا العين إلا بالرأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شىء من ذلك إلا

بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة . فإن الكل كالشيء الواحد ، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض. فاذن قد كفر كل نعمة فى الوجود ، من ابتداء الثرى الى منتهى الثريا . وحينئذ لا يبق جماد ولا نبات ولا حيوان ، ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك ، إلا يلعنه . ولذلك ورد فى الأخبار : « ان البقعة التى يجتمع فيها الناس ، إما تلعنهم إذا تفرقوا ، أو تستغفر لهم » . وكذلك ورد : « ان الملائكة يلعنون العصاة » . وورد : « ان العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت فى البحر » . وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء ، وكل ذلك اشارة الى أن العاصى بتطريفة واحدة يجنى على جميع الملك والملكوت .

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم ، فاعتبر ما سواه . ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ؟ كيف ولله فى كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء ؟ فإن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا نقطع قلبه وهلك . ولما كان اليوم والليلة اربعاً وعشرين ساعة ، وفى كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً ، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم ، يكون عليك فى كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة فى كل جزء من اجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ :

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا » (١)

وورد : « أن من لم يعرف نعمة الله إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قل

(١) ابراهيم ، الآية : ٣٤ . النحل ، الآية : ١٨ .

عليه وحضر عذابه ». فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء ، ولا يلم خاطره بموجود ، إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه . ولذلك قال موسى بن عمران : « إلهي ! كيف أشكرك ولك عليّ في كل شعرة من جسدي نعمتان : أن لينت اصلها ، وأن طمست رأسها » .

فصل

(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر ، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله - سبحانه - ، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها ، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها ، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرّد أن يقولوا بلسانهم : الحمد لله ، أو الشكر لله ، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر ، كما في سائر الفضائل والطاعات ، أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة . ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم ، لكونها عامة للخلق ، مبذولة لهم في جميع الحالات . فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها ، فلا يعدها نعمة . وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها ، فلا يتصورون خلاف ذلك ، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال . فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء ، ووفور الماء ، وصحة البصر والسمع ، وأمثال ذلك . ولو أخذ بمخنقهم ، حتى انقطع عنهم الهواء ، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء ، ماتوا . فإن ابتلي واحد بشيء من ذلك ، ثم نجى منه ، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله

عليه . وكذا البصير ، اذا عميت عينه ، ثم أعيد عليه بصره ، عده نعمة وشكره ، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر . وهذا غاية الجهل ، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، مع أن النعمة فى جميع الأحوال أولى بالشكر . فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق فى جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة . ومثلهم كمثل العبد السوء الذى لو لم يضرب بطر وترك الشكر ، وإذا ضرب فى غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك . ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه فى شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الأرض كلها . كما نقل : « ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء ، وفى يده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظني . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله ، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً ، فهل تعطيه ؟ قال : نعم ! قال : فكيف تفرح بملك لا يساوى شربة ماء ! » . هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر فى حاله ، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد ، أو يشاركه يسير من الناس ، إما فى العقل ، أو فى الخلق ، أو فى الورع والتقوى ، أو الدين ، أو فى صورته وشخصه ، أو اهله وولده ، أو مسكنه وبلده ، أو رفقائه وأقاربه ، أو عزّه وجاهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه . بل نقول : لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشىء من ذلك ، فلا ريب فى أنه يعتقد فى نفسه اختصاصه ومزيّته فى بعض هذه على سائر الخلق . فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخلاقاً منهم ، مع أنّ الأمر ليس كذلك . ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه .

وبالجملة : كل أحد يقدّر فى نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه فى غيره ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع . ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطى ما خصص به غيره ، لكان لا يرضى به . بل التأمل يعطى : أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون فى جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان ، بل لو وكل اليه الاختيار ، وقيل له : أنت مخير فى صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس ، لم يخير إلا نفسه . والى هذا أشار الله ـ سبحانه ـ بقوله :

« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١)

وإذا كان الأمر هكذا ، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة ؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة ، لعظمت النعمة فى حقه ، ولم يخرج عن عهدة الشكر . قال رسول الله ﷺ : « من أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، وعنده قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . ومهما فتشت الناس ، لوجدتهم يشكون عن امور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم . بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذى به وصوله الى النعيم المقيم والملك العظيم ، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف فى الشكر عمره . بل ينبغى للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان . ونحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق الى الغرب ، من اموال واتباع وانصار وبلدان وممالك ، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه ، لرجائه أن نعمة العلم تفضى به الى قرب الله ـ تعالى ـ فى الآخرة . بل لو سلم اليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم فى الدنيا ، مع نيله فى الآخرة الى ما يرجوه ،

(١) المؤمنون ، الآية : ٥٤ . الروم ، الآية : ٣٢ .

لم يأخذه ولم يرض به ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تغصب ، وصافية لا كدورة فيها ، بخلاف لذات الدنيا .

فصل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق الى تحصيل الشكر أمور :

الأول — المعرفة والتفكر فى صنائعه - تعالى - ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة .

الثانى — النظر الى الأدنى فى الدنيا والى الأعلى فى الدين .

الثالث — أن يحضر المقابر ، ويتذكر أن أحب الأشياء الى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات فى الدنيا ، ليتخلصوا فى الآخرة من العذاب ، أو يزيد ثوابهم وترتفع درجاتهم . فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته ورده الى الدنيا ، فليصرف بقية عمره فيما يشتهى أهل القبور العود لأجله .

الرابع — أن يتذكر بعض ما ورد عليه فى بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التى ظن هلاك نفسه بها ، فليتصور أنه هلك بها ، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم ، فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافى طبعه .

الخامس — أن يشكر فى كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها ، وإنه لم تصبه مصيبة فى الدين . ولذلك قال عيسى ﷺ فى دعائه : « اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى ! » . وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص فى بيتى وأخذ متاعى » ، فقال له : « اشكر الله لو

كان الشيطان يدخل بدله فى قلبك ويفسد توحيدك ، ماذا كنت تصنع ؟ » . ومن حيث إن كل مصيبة إنما هى عقوبة لذنب صدر منه ، فاذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إن العبد اذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء فى الدنيا ، فالله اكرم من أن يعذبه ثانياً » . وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا ـ عليهم السلام ـ أيضاً ، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها الى الآخرة . ومن حيث إن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية اليه ألبتة ، فقد أتيت وفرغ منها . ومن حيث إن ثوابها اكثر منها وخير له ، لما يأتى فى باب الصبر من عظم مثوبات الإبتلاء بالمصائب فى الدنيا . ومن حيث إنها تنقص فى القلب حب الدنيا والركون اليها ، وتشوّق الى الآخرة والى لقاء الله سبحانه . إذ لا ريب فى أن من آتاه النعم فى الدنيا على وفق المراد ، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، يورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأنساً بها ، حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته . واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها ، وصارت الدنيا سجناً عليه ، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها ، والتفاتها الى عالمها الأصلى ، وتشوقها الى الخروج عنها اليه ورغبتها الى لقاء الله وما أعد فى الدار الآخرة لأهلها .

فان قلت : غاية ما يتصور فى البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه فغير متصور ، إذ الشكر إنما يستدعى نعمة وفرحا ، والبلاء مصيبة وألم ، فكيف يشكر عليه ؟ وعلى هذا ينبغى ألا يجتمع الصبر والشكر على شىء واحد ، إذ الصبر يستدعى بلاء وألماً ، والشكر يستدعى نعمة وفرحا ، فهما متضادان غير مجتمعين ، فكيف حكمتم باجتماعهما فى المصائب والبلايا الدنيوية ؟

قلنا : كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد . فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق الحسنة فى الدنيا ، والنعمة المقيدة فى الدنيا — أى ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه — كالمال الذى يصلح الدين من وجه ، ويفسده من وجه . والبلاء المطلق ، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصى فى الدنيا ، والبلاء المقيد ، كمصائب الدنيا ، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب ، فإنها وإن كانت بلاء فى الدنيا ، ولكنها نعم فى الآخرة . وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة ، أو رياضة النفس ، أو زيادة التجرد ، أو رفع الدرجة . فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق ، ولا معنى لاجتماع الصبر معه ، والصبر الذى يجتمع معه لا ينافيه ، كما يأتى . والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه ، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية ، بل يجب عدم الصبر عليه والسعى فى تركه . وأما البلاء المقيد ، فهو الذى يجتمع فيه الصبر والشكر ، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين ، بل الصبر من حيث ايجابه الاغتمام والألم فى الدنيا ، والشكر من حيث ادائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر .

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة ، ولم يشكر على جهة خيريته ، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر . واما النعمة المقيدة ، كالمال والثروة ، فإن أدت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ، ولم يكن محلا للصبر ، وإن أدت الى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك ، وإن ادت الى بلاء الدنيا ، كأن يصير ماله سبباً لهلاك أولاده ، وفساد مزاجه ، ويصير فرته باعثاً لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية ، كان حكمه حكم البلاء المقيد . ثم يأتى فى باب الصبر : أن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية ، وفيهما

يتحقق الشكر والصبر ، إذ الشكر — كما عرفت — هو عرفان النعمة من الله والفرح به ، وصرف النعمة الى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر — كما يأتي — هو ثبات باعث الدين ، اعنى العقل النظرى ، فى مقابلة باعث الهوى ، اعنى القوة الشهوية . ولا ريب فى أنه فى اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور ، إذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى ، وقد صرفه الى مقصود الحكمة . وأنت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر فى هذه الطاعة وترك هذه المعصية . إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، إذ الصبر إنما هو عليهما ، واما الشكر فعلى باعث الدين ، أعنى العقل الباعث لهـــذه الطاعة وترك هذه المعصية ، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية ، فاختلف فيهما الصبر والشكر فى المتعلق ، أى ما يصبر عليه وما يشكر عليه ، واتحدا فى فعل الصبر والشكر ، إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة ، وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر هو صرف النعمة فى مقصود الحكمة ، وهو ايضاً عين الطاعة وترك المعصية . ويمكن أن يقال : إن من فعل هذه الطاعة ، وترك هذه المعصية ، عرف كونهما من الله وفرح به ، ويعمل طاعة اخرى شكراً له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر فى هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، أعنى المشكور عليه وما يصبر عليه ، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها ، ويختلف فعلاهما . إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، وفعل الشكر تحميد أو طاعة اخرى .

فصل

(الصحة خير من السقم)

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه الى سعادة الأبد أنه خير من العافية فى الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية فى الدنيا خير من البلاء والمصيبة

فيها ، فاياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب فى الدنيا ، فان رسول الله ﷺ كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء — عليهم السلام — : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة » ، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء . وقال ﷺ : « سلوا الله العافية ، فما أعطى عبد أفضل من العافية إلا اليقين » ، وأشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن . وقال ﷺ فى دعائه : « والعافية أحب إلىّ » .

وبالجملة : هذا أظهر من أن يحتاج الى الاستشهاد . إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة الى ما هو أكثر منه فى الدنيا والآخرة ، وبالاضافة الى ما يرجى من الثواب فى الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة . فينبغى أن يسأل تمام النعمة فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة على شكر المنعم ، والتجافى عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، فانه قادر على اعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : « أود أن أكون جسراً على النار يعبر علىّ الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا فى النار » ، وقال سمنون المحب : « وليس لى فى سواك حب ، فكيفما شئت فاختبرنى » ، فمبناه على غلبة الحب ، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه ، وليس لها حقيقة . فان من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه . وقد روى : « ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذى يمنعك عنى ، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمع ذلك

سليمان ﷺ ، فطلبه وعاتبه فى ذلك ، فقال : يا نبى الله كلام العشاق لا يحكى ، . ونقل : « أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ، ابتلى بمرض الحصر ، فكان يصيح ويجزع ، ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة مما قال ، ويدور على ابواب المكاتب ، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب » . والحاصل : أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية ، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون فى غليان الحب ، فلا يثبت ولا يدوم . ومع ذلك كله ، فاعلم ان الظاهر من بعض الأخبار الآتية فى باب الصبر : ان فى الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع ، من الأنبياء والأولياء ، بالمصائب العظيمة فى الدنيا ، وما ورد من ان أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء ، ثم بالأمثل فالأمثل فى درجات العلاء والولاء . وعلى هذا ، فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس . فمن كان قوى النفس صابراً شاكراً فى البلاء ، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله ، فالبلاء فى حقه افضل فى بعض الأوقات ، إذ بأزائه فى الآخرة من عوالى الدرجات ما لا يبلغ بدونه . ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً أو كفراناً ، أو منعه عن شىء مما ذكر ، فالعافية أصلح فى حقه . وربما كان البلاء مما منعه من الوصول الى المراتب العظيمة ، فلا ريب فى أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلى منه . فان البصير الذى توسل بعينيه الى النظر الى عجائب صنع الله ، وتوصل به الى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين الى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من انواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور ، وينتفع من علومه الناس ابداً ، وربما بلغ لأجل العينين الى غاية

درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق ، ولولا وجود العينين له لم يبلغ الى شيء من ذلك ، فلا ريب فى أن وجود البصر لمثله أفضل واصلح من عدمه ، ولو لا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا — وقد كان ضريراً من بين الأنبياء — فوق رتبة موسى وابراهيم وغيرهما — عليهم السلام — لانه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه ، ولكان الكمال فى أن يسلب الانسان الأطراف كلها ويترك كالحم على وضم . وهذا باطل ، فإن كل واحد من الأعضاء آلة فى الدين ، فيفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ماورد فى عدة من الأخبار : « أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له وأصلح فى حقه » ، وما ورد فى بعض الأحاديث القدسيه : « إن بعض عبادى لا يصلحه إلا الفقر والمرض ، فاعطيته ذلك ، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة ، فاعطيته ذلك » . وبذلك يجمع بين اخبار العافية واخبار البلاء .

ومنها :

الجزع

وهو إطلاق دواعى الهوى ، من الإسترسال فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر . وهو وإن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذى من رذائل القوة الغضبية فقط ، إلا أنه لما كان ضده الصبر ، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية — كما يأتى — فلذلك لم نذكره فى متعلقات قوة الغضب فقط ، بل ذكرناه هنا . ثم الجزع فى المصائب من المهلكات ، لأنه فى الحقيقة انكار لقضاء الله ، وإكراه لحكمه ، وسخط على فعله . ولذا قال رسول الله ﷺ : « الجزع عند البلاء تمام المحنة ،

وقال ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله اذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » . وفى الخبر القدسى : « من لم يرض بقضائى ، ولم يشكر على نعمائى ، ولم يصبر على بلائى ، فليطلب رباً سواى » . وروى : « ان زكريا لما هرب من الكفار ، واختفى فى الشجرة ، وعرفوا ذلك ، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا ، فأن أنة ، فأوحى الله اليه : يا زكريا ! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة ! فعض زكريا ﷺ على اصبعه حتى قطع شطرين » . وبالجملة : العاقل يعلم ان الجزع فى المصائب لا فائدة فيه ، إذ ما قدر يكون ، والجزع لا يرده . ولا ريب فى أنه يترك الجزع بعد مضى مدة ، فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره . وقد نقل : « انه مات ابن لبعض الأكابر ، فعزاه مجوسى ، وقال له : ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال : اكتبوه عنه » . وقال الصادق ﷺ : « الصبر يظهر ما فى بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما فى بواطنهم من الظلمة والوحشة . والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المخبتون ، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين ، لان نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب . وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً . وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون والحال . وكل نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإنابة والتضرع الى الله فصاحبها جزوع غير صابر . والصبر ما أوله مر وآخره حلو ، من دخله من أواخره فقد دخل ، ومن دخله من أوائله فقد خرج . ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ، قال الله ـ تعالى ـ فى قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ : فكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، فمن صبر كرهاً ، ولم يشك الى الخالق ،

ولم يجزع بهتك ستره ، فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله - عز وجل - : وبشر الصابرين : أى بالجنة والمغفرة . ومن استقبل البلاء بالرحب ، وصبر على سكينة ووقار ، فهو من الخاص ، ونصيبه ما قال الله - عز وجل - : إن الله مع الصابرين » (١) .

فصل

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر فى الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم بين الصبر والشكر - القانون الكلى فى معرفة الفضائل - تفضيل الصبر على الشكر .

* * *

ضد الجزع (الصبر) ، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها فى الشدائد والمصائب ، بأن تقاوم معها ، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيحبس لسانه عن الشكوى ، وأعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة . وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع . وله أقسام أخر لها اسماء خاصة تعد فضائل اخر : كالصبر فى الحروب ، وهو من انواع الشجاعة ، وضده الجبن . والصبر فى كظم الغيظ ، وهو الحلم ، وضده الغضب . والصبر على المشاق ، كالعبادة ، وضده الفسق ، أى الخروج عن العبادات الشرعية . والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات ، وهى العفة ، واليه أشير فى قوله - سبحانه - :

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : باب ٩٢ . وعلى (البحار) : باب الصبر واليسر بعد العسر ، ج ١٥ : ٢ / ١٤٣ .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ » (١).

وضده الشره . والصبر عن فضول العيش ، وهو الزهد ، وضده الحرص . والصبر فى كتمان السر ، وضده الاذاعة ، والأولان ، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب . والرابع، من نتائج المحبة والخشية . والبواقى ، من فضائل قوة الشهوة - كما يأتى - . وبذلك يظهر : أن من عدّ الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه .

ويظهر من ذلك : أن أكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الايمان ، قال : «هو الصبر ، لأنه أكثر اعماله وأشرفها » ، كما قال : « الحج عزم » . وقد عرّف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة اخرى : أنه ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى . والمراد بباعث الدين هو العقل النظرى الهادى الى طريق الخير والصلاح ، والعقل العملى المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح . والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل . والقتال دائماً بين الباعثين قائم ، والحرب بينهما أبداً سجال (٢) ، وقلب العبد معركته ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته ، غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على

(١) النازعات ، الآية : ٤٠ — ٤١ .

(٢) « الحرب بينهم سجال » : مثل مشهور ، أى تارة لهم وتارة عليهم .

دفعه ، التحق باتباع الشياطين . وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة ، أي اليقين بكون الهوى عدواً قاطعاً لطريق الوصول الى الله مضاداً لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . ثم باعث الدين إما يقهر داعي الهوى بالكلية ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، فيدوم الصبر ، وتستقر النفس في مقام الاطمينان ، وتنادى من وراء سرادقات الجمال بخطاب : (يا أيتها النفس المطمئنة ! ارجعى الى ربك راضية مرضية) ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتنسلك في سلك عباده الصالحين . أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، وييأس عن المجاهدة والمقاومة ، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته إلى حزب الشيطان . ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع الكمالات ، ويسلمه الى الكفار من اعدائه ، فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه ، بل هو أسوء حالا منه بمراتب - كما لا يخفى - . إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذاك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب أحد الباعثين ، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان . ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها ، وتخرج من القسمين ثلاثة احوال :

الأولى — أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية — أن يغلب عليه الجميع في الجميع .

الثالثة — أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها كلا أو بعضاً دون بعض .

وقد أشير الى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله - تعالى - :

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... الى آخر الآية »(١) .

والى الثانية بقوله : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٢) .

والى الثالثة بقوله : « خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » (٣) .

فصل

(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات ، إن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وإن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازاً . واذا أدام التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة ، كما قال الله ـ سبحانه ـ :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » (٤) .

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا ، واذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة . وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » .

---

(١) الفجر ، الآية : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) السجدة ، الآية : ١٣ .
(٣) التوبة ، الآية : ١٠٣ .
(٤) الليل ، الآية : ٥ ـ ٧ .

قال بعض العارفين : «أهل الصبر على ثلاث مقامات : الأول : ترك الشكوى ، وهذه درجة التائبين . الثانى : الرضا بالمقدر ، وهذه درجة الزاهدين . الثالث : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين» . وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن . ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس ، ليكون عندهم مرضياً ، كما نقل عن معاوية : أنه أظهر البشاشة ، وترك الشكوى فى مرض موته ، وقال :

وتجلدى للشامتين أريهم　　　إنى لريب الدهر لا أتزعزع

وهذا صبر العوام ، وهم الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة فى دار الآخرة ، وهذا صبر الزهاد والمتقين ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

«إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (١) .

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله ـ سبحانه ـ . إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحب يشتاق الى التفات محبوبه ، ويرتاح به ، وإن كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له ، وهذا صبر العارفين ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ» (٢) .

(١) الزمر ، الآية : ١٠ .　　(٢) البقرة ، الآية : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

وقد ورد : أن الإمام محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - قال لجابر ابن عبدالله الأنصاري - وقد اكتنفته علل وأسقام ، وغلبه ضعف الهرم -: «كيف تجد حالك ؟» ، قال : أنا في حال الفقر أحب إليّ من الغنى ، والمرض أحب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة . فقال الإمام عليه السلام : «أما نحن أهل البيت ، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة ، فهو أحب الينا» . فقام جابر ، وقبل بين عينيه ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لي : «ياجابر ! ستدرك واحداً من أولادي اسمه اسمي ، يبقر العلوم بقراً» .

تزنيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم الى الأقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل ، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام ، كالصبر على قطع يده ، أو يد ولده ، أو قصد حريمه بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع . وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محموداً ، بل بعض أنواعه ممدوح ، وبعض انواعه مذموم ، والشرع محكم ، فما حسنه حسن ، وما قبحه قبيح .

فصل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين . وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين . وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعاً

من القرآن . ووصف الله الصابرين بأوصاف ، فقال ـ عز من قائل ـ :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا » (١) . وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » (٢) . وقال : « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٣) . وقال : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » (٤) . فما من فضيلة إلا واجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولذا قال : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٥) . ووعد الصابرين بأنه معهم ، فقال : « وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٦) . وعلق النصرة على الصبر ، فقال : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (٧) . وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى ، فقال : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (٨) .

---

(١) السجدة ، الآية : ٢٤ .
(٢) الأعراف ، الآية : ١٣٦ .
(٣) النحل ، الآية : ٩٦ .
(٤) القصص ، الآية : ٥٤ .
(٥) الانفال ، الآية : ٤٧ .
(٦) آل عمران ، الآية : ١٢٥ .
(٧) البقرة ، الآية : ١٥٧ .
(٨) الزمر ، الآية : ١٠ .

والآيات الواردة فى مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى . قال رسول الله ﷺ : « الصبر نصف الايمان » . وقال ﷺ : « من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمته الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولئن تصبروا على مثل ما انتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكرُ بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » . . . ثم قرأ قوله - تعالى - :

« ما عِندَكُم يَنفَدُ وَما عِندَ اللهِ باقٍ » (١)

وقال ﷺ : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وقال ﷺ : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » . ولاريب فى ان الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل : (الصبر صبر) . وقال ﷺ : « فى الصبر على تكرّه خير كثير » . وقال ﷺ : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لا صبر له » . وسئل ﷺ عن الايمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وقال ﷺ : « ما تجرع عبد قط جرعتين ، أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت بقطارة أحب الى الله - تعالى - من قطرة دم اهريقت فى سبيل الله ، وقطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب الى الله - تعالى - من خطوة الى الصلاة الفريضة ، وخطوة الى صلة الرحم » . وروى : « أنه - تعالى - أوحى الى داود عليه السلام : يا داود ! تخلق باخلاقى ، وإن من اخلاقى انى أنا الصبور » . وروى : « أن المسيح قال

(١) النحل ، الآية : ٩٦ .

للحواريين : إنكم لا تدر كون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون ، (١) . وقال ﷺ : « ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال - كما أمره الله - : إنا لله وإنا اليه راجعون ، اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها ، إلا وفعل الله ذلك » . وقال ﷺ : « قال الله - عز وجل - : اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه أن انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً » (٢) . وقال ﷺ : « الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش » . وقال ﷺ : « سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي » (٣) . وقال ﷺ : « ان الله - تعالى - قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! لا علم لنا الا ما علمتنا . قال : جزاؤه

---

(١) صححنا النبويات على (احياء العلوم) : ٤ / ٥٣ ، كتاب الصبر .

(٢) صححنا الرواية على (البحار) : مج ١٥ : ٢ / ١٤٨ ، باب الصبر واليسر بعد العسر .

(٣) صححنا الرواية ، وكذا ما قبلها ، على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الصبر . وعلى (الوافي) : ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣ ، باب الصبر .

الخلود فى دارى ، والنظر إلى وجهى » . وقال ﷺ لرجل قال له : ذهب مالى وسقم جسمى : « لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره » . وقال ﷺ : « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله ـ تعالى ـ لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك » . وقال ﷺ : « اذا اراد الله بعبد خيراً ، واراد أن يصافيه ، صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجا ، فاذا دعاه ، قالت الملائكة : صوت معروف ، واذا دعاه ثانياً ، فقال : يا رب ! قال الله ـ تعالى ـ : لبيك عبدى وسعديك ! ألا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك ، أو رفعت لك ما هو خير ، وادخرت لك عندى ما هو أفضل منه . فاذا كان يوم القيامة جيء باهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان ، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى باهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا ، فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب ، فذلك قوله ـ تعالى ـ : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقال ﷺ : « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب ، وهو مقيم على معصيته ، فاعلموا أن ذلك استدراج » . . . ثم قرأ قوله ـ تعالى ـ :

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » (١) :

يعنى : لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا — أى بما اعطوا من الخير — اخذناهم بغتة . وروى : « أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه ، فقال : يا رب ، العبد المؤمن يطيعك

---

(١) الانعام ، الآية : ٤٤ .

ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فاوحى الله - تعالى - اليه : أن العباد إلي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدى. فيكون المؤمن عليه من الذنوب ، فازوى عنه الدنيا واعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى ، فاجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات. فابسط له فى الرزق وازوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فاجزيه بسيئاته » (١) . وعن أبى عبد الله ﷺ قال : « قال رسول الله ﷺ : قال الله - عز وجل - : إنى جعلت الدنيا بين عبادى قرضا ، فمن اقرضنى منها قرضاً اعطيته بكل واحدة منهن عشراً الى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضنى منها قرضاً فاخذت منه شيئاً قسراً ، اعطيته ثلاث خصال لو اعطيت واحدة منهن ملائكتى لرضوا بها منى . قال : ثم تلا ابو عبد الله ﷺ قوله - عز وجل - (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم) ، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان ، (واولئك هم المهتدون) ثلاث . ثم قال ابو عبد الله ﷺ : هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً » . وقال أمير المؤمنين ﷺ : « بنى الايمان على اربع دعائم: اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل » . وقال أمير المؤمنين ﷺ « الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرم الله - عز وجل - عليك » . وقال علي ﷺ : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء » . وقال أمير المؤمنين ﷺ : « أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات ، فهو شهيد ، وإن ضربه فمات ، فهو

---

(١) صححنا الاحاديث الاربع على (احياء العلوم) : ٤ / ١١٤ ، باب الصبر .

شهيد »(١) . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « من اجلال الله ومعرفة حقه ألاّ تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « ألا أخبركم بأرجى آية فى كتاب الله ؟ » قالوا : بلى ! فقرأ عليهم :

« وَما أَصابَكُم مِنْ مُصيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثيرٍ » (٢) .

فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار ، فإذا عافاه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً ، وان عفى عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة » . وقال الباقر عليه السلام : « الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن صبر على المكاره فى الدنيا دخل الجنة . وجهنم محفوفة باللذات والشهوات ، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار » . وقال عليه السلام : « مروة الصبر فى حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى ، اكثر من مروة الاعطاء »(٣) . وقال عليه السلام : « لما حضرت ابى على بن الحسين ـ عليهما السلام ـ الوفاة ، ضمنى الى صدره ، ثم قال : يا بنى ! أوصيك بما أوصانى به أبى حين حضرته الوفاة ، وبما ذكر أن أباه أوصاه به ، قال : يا بنى اصبر على الحق وإن كان مراً » . وقال الصادق عليه السلام : « إذا دخل المؤمن قبره ، كانت الصلاة عن يمينه ، والزكاة عن يساره ، والبر مطل عليه ، ويتنحى الصبر ناحيته ، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته ، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر :

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الصبر . وعلى (الوافى) : ٣ / ٣٢١ ـ ٣٢٣ ، باب الصبر .

(٢) الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٣) قال العلامة (المجلسى) ـ قدس سره ـ فى (بحار الانوار) : مج ١٥ ، ج٢ ، فى باب الصبر على المصيبة ، فى ذيل هذا الخبر : « بيان المروة : هى الصفات التى بها تكمل انسانية الانسان » .

دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فانا دونه». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصى الله، فيقول الله - تعالى -: صدقوا! أدخلوهم الجنة. وهو قول الله - تعالى -: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال ﷺ: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد». وقال ﷺ: «إن الله - عز وجل - أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة». وقال ﷺ: «من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز». وقال ﷺ: «إن من صبر صبر قليلا، وإن من جزع جزع قليلا... ثم قال: عليك بالصبر فى جميع أمورك، فإن الله - عز وجل - بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق، فقال:

«وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً» (١)».

وقال ابو الحسن ﷺ لبعض اصحابه: «إن تصبر تغتبط، وإلا تصبر ينفذ الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً» (٢). والأخبار فى فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الأتقياء والأكابر محبين طالبين له، حتى نقل: «أن واحداً منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بنى! لئن تكن فى ميزانى أحب إلي من أن أكون فى ميزانك.

---

(١) المزمل، الآية: ١٠.

(٢) صححنا الاحاديث الواردة عن أهل البيت - عليهم السلام - فى باب الصبر، على الجزء الثانى من (أصول الكافى) باب الصبر، وعلى (الوافى): ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣، كتاب الصبر.

فقال : يا أبه ! لئن يكن ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب » . وقال بعضهم : « ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ، ما علم به أحد » .

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقى العبد فى الدنيا ، وما يوافق هواه ، أو لا يوافقه ، بل يكرهه ، وهو فى كل منهما محتاج إلى الصبر . اذ ما يوافق هواه ، كالصحة الجسمية ، واتساع الأسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الأولاد والاتباع ، لو لم يصبر عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به ، أدركه الطغيان والبطر . (فإن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) . وقال بعض الأكابر : « البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى لا يصبر عليها إلا الصديق » . وقال بعض العرفاء : « الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء » . ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش ، قالوا: « ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها » . ومن هنا قال الله ـ سبحانه ـ :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » (١) . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » (٢) .

ومعنى الصبر على متاع الدنيا : ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده ، وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك فى التنعم والتلذذ ، ولا يتفاخر

(١) المنافقون ، الآية : ٩ . (٢) التغابن ، الآية : ١٤ .

به على فاقده من اخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى منصبه باعانة المظلومين ،وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر فى كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء : أنه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها ، بخلاف البلاء ، فانه مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه ، فالصبر عليه أسهل . ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه .

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه ، فله ثلاثة اقسام :

الأول — ما يكون مقدوراً للعبد ، كالطاعات والمعاصى . أما الطاعة، فالصبر عليها شديد،لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهى التقهر والربوبية، كما يأتى وجهه .ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل ، وبعضها باعتبار البخل ، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد،فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر فى حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة ، إذ يحتاج اليها قبل العمل فى تصحيح النية والإخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفى حالة العمل لئلا يغفل عن الله فى اثنائه ، ولا يخل بشىء من وظائفه وآدابه ، ويستمر على ذلك الى الفراغ وبعد الفراغ عنه ، لئلا يتطرق اليه العجب،ولا يظهر رياءوسمعة. والنهى عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر . وأما المعاصى ، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس . فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة اشد ، إذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فإن الاستبعاد فى مثل لبس الحرير اكثر من الاستبعاد فى اطلاق اللسان طول النهار فى اعراض الناس ، مع أن الغيبة أشد من الزنا ، كما نطقت به الأخبار . فاذا انضافت

العادة الى الشهوة،ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله،فيصعب تركها.

ثم المعصية إن كانت مما يسهل فعلها ، كان الصبر عنها اشد ، كمعاصى اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية ، كالكلمات التى توجب نفى الغير ، والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصريحا أو تعريضا ، كان الصبر عنها اشد . اذ مثل ذلك — مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفا معتاداً — انضافت اليه شهوتان للنفس فيه : احداهما نفى الكمال من غيرها ، والاخرى اثباته لذاتها . وميل النفس الى مثل تلك المعصية فى غاية الكمال ، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلوّ ، فصبرها عنها فى غاية الصعوبة . وقد ظهر مما ذكر : أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصى إنما يصدر من اللسان . فينبغى لكل أحد أن يجتهد فى حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد أن يتكلم به ، فان لم يكن معصية تكلم به ، وإلا تركه . ولو لم يقدر على ذلك ، وكان لسانه خارجا عن اطاعته فى المحاورات،وجبت عليه العزلة والانفراد، وترك التكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه . ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعاصى قوة وضعفاً،فينبغى لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه الى أى معصية اشد ، فيكون سعيه فى تركها اكثر . ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات ، فلا يمكن الصبر عنها اصلا ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه ، كمن اصبح وهمومه هم واحد . وأكثر جولان الخاطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له ، أو فى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور . وكيف كان ، فهو تصور باطل ، وتضييع وقت . إذ آلة استكمال

العبد قلبه ، فاذا غفل القلب فى لحظة من ذكر يستفيد به أنساً بالله ، أو فكر يستفيد به معرفة بالله ، ويستفيد بالمعرفة حب الله ، فهو مغبون .

الثاني — ماليس حصوله مقدوراً للعبد ، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفى ، كالو أوذى بفعل أو قول ، أو جنى عليه فى نفسه أو ماله ، فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره . إلا أنه يقدر على التشفى من المؤذى أو الجانى بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات . وهو قد يكون واجباً ، وقد يكون فضيلة ، وهو أعلى مراتب الصبر . ولأجل ذلك خاطب الله نبيه ﷺ بقوله :

« وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » (١).

وبقوله : « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً » (٢) . وبقوله : « وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ » (٣). وقال : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٤). وقال : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » (٥).

---

(١) الاحقاف ، الآية : ٣٥ .
(٢) المزمل ، الآية : ١٠ .
(٣) الأحزاب ، الآية : ٤٨ .
(٤) آل عمران ، الآية : ١٨٦ .
(٥) النحل ، الآية : ١٢٦ .

وقال رسول الله ﷺ : « صل من قطعك، واعط من حرمك ،واعف عمن ظلمك » . وروى : « أنه ﷺ قسم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ! فاخبر به رسول الله ، فاحمرت وجنتاه ، ثم قال : رحم الله أخي موسى ، قد اوذى باكثر من هذا فصبر » .

الثالث — ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً ، كالمصائب والنوائب . والصبر عليه شديد فى غاية الصعوبة ، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين ، والوصول اليه يتوقف على اليقين التام . ولذا قال النبي ﷺ : « أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا » . وقد تقدم بعض الأخبار الواردة فى فضيلة هذا القسم من الصبر . وقال ﷺ : « قال الله : اذا ابتليت عبدى ببلائى فصبر ، ولم يشكنى الى عوّاده ، أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، فإن ابرأته ابرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فالى رحمتى » . وقال ﷺ : « من اجلال الله ومعرفة حقه : ألا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال ﷺ : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظُلم فغفر ، اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . وقال ﷺ : « إن الله ـ تعالى ـ قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا . قال : جزاؤه الخلود فى دارى ، والنظر الى وجهى » . وقال داود عليه السلام : « يا رب ! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان ، لا انزعه عنه أبداً » . وقال لابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ : « يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فى ماقدفات » . وروى : « أن من ابتلي بموت ثلاثة أولاد ، لم يرد على النار أصلا » .

تذنيب

(اختلاف مراتب الصبر فى الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها، فهو راجع الى الصبر عن المعصية . وعلى هذا، فاقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية . ثم ما تقدم من الخبر النبوى صريح فى كون الاول أقل ثواباً ، والآخر أكثر ثوابا ، والوسط وسطاً بينهما . وربما ظهر من بعض الأخبار : كون الأول أكثر ثوابا . وأبو حامد الغزالى رجح الأول أولا ، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوى ، ثم رجح الثانى ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال : « الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله -تعالى- فله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله -تعالى- وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، فله تسعمائة درجة » . وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين ، لكونه شديداً على النفس .

وعندى : أن القول بكون أحدهما أكثر ثواباً على الاطلاق غير صحيح ، إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة ، أكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيد ، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصى ، وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد ، فالصواب : التفصيل بأن كل صبر من أى قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر ، كائناً ما كان ، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحمزها ، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار .

فصل

(طريق تحصيل الصبر)

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى. والأول : إنما يكون بأمور :

الأول — أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة ، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة في الدنيا ، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية . ومن أسلم خسيساً في نفيس ، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال .

الثاني — أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها ، واستخلاصه عنها عن قريب ، مع بقاء الأجر على الصبر عليها .

الثالث — أن يعلم أن الجزع قبيح مضرّ بالدين والدنيا ، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : «إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور ، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور» .

الرابع — أن يعوّد مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجاً، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيتجرى عليها ، ويقوى منته في مصارعتها . فان الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال . ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة — كالحمالين والفلاحين — على قوة التاركين لها . فمن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد .

وأما الثاني : أعني تضعيف الهوى ، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة ،

من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها وتخيلها ، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذى يشتهيه بشرط ألاّ يخرج عن القدر المشروع .

تتميم

إن قيل : الصبر فى المصائب إن كان المراد به ألاّ تكون فى نفسه كراهة المعصية ، فذلك غير داخل تحت الاختيار ، إذ الانسان مضطر إلى الكراهة ، فبماذا ينال درجة الصبر فى المصائب ؟

قلت : من كان عارفاً بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، بأن يعلم يقيناً بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أوسعة ، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك بما يعده شراً ، فأمر عرضى لا يمكن نزع الخير المقصود منه ، وأن ذلك إذا كان متيقناً له ، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى فى الغم والحزن ، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقع حكمه ، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة . وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين ﷺ بقوله : « اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين » . ومن بلغ بهذه الدرجة ، يتلذذ بكل ما يرد عليه . ومثله يتمتع بثروة لا تنفد ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح فى ملك الأبد ، ويعرج إلى قضاء السرمد . هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة فى الشكوى ، واظهار الكآبة ، وتغيير العادة فى الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغى أن يجتنب عنها ، ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك

كان وديعة فاسترجعت ، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع ، لأن ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ قال : « هذه رحمة ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . وقال أيضاً ﷺ : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا يقول ما يسخط الرب » . بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً ، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به ، مع أنه متألم بسببه لا محالة . نعم ، من كمال الصبر كتمان المصائب ، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر . وقد ورد المدح فى كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب . وقال الباقر عليه السلام : « الصبر الجميل ، صبر ليس فيه شكوى الى الناس » . وفى بعض الأخبار : « أن الشكاية أن تقول : ابتليت بما لم يبتل به أحد ، واصابنى ما لم يصب أحداً ، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة ، وحميت اليوم ، ونحو ذلك » . وقال الصادق عليه السلام : « من اشتكى ليلة ، فقبلها بقبولها ، وأدى إلى الله شكرها ، كانت كعبادة ستين سنة » ، قيل له : ما قبولها ؟ قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها ، فإذا أصبح حمد الله على ما كان » .

تتميم

(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم أنه اختلف فى أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلاً منهما على الآخر طائفة . والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر ، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر . إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً ، كما مر فى باب الشكر . والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من

أنّ الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً ،فالصبر على هذه الشدائديستلزم الشكر على تلك النعم ، ولأنّ الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله - سبحانه - . وهذا هو الشكر بعينه ، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية . وأيضاً ، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر . فكل صبر يستلزم الشكر ، وبالعكس .

وبالجملة : لا ريب فى استلزام كل من الصبر والشكر للآخر ، فإن اجتماعهما فى الطاعة وترك المعصية ، بل اتحادهما فيهما ، أمر ظاهر ، كما تقدم . وفى البلاء المقيد الدنيوى ، اذا حصل فيه الصبر ، فلا ريب فى عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له ، من الثواب الاخروى ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة الى الآخرة ،فيشكر على ذلك . فهو لا ينفك عن الشكر ،لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضاً من الله ، فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره . وفى النعمة المقيدة، مثل المال ، إذا توسل به الى تحصيل الدين ، فلا ريب فى أنه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر أيضاً . إذ فى انفاق المال وبذله فى تحصيل الدين حبس النفس عما تحبه وتميل اليه ، وثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى . وفى البلاء المطلق ، كالكفر والجهل ، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه ، وفى النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الأخلاق ، كما يتحقق فيها الشكر يتحق فيها الصبر ايضاً . إذ تحصيل السعادة ، والعلم ، والأخلاق الفاضلة ، والإبقاء عليها ، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه . مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران ، وهو الصبر على المعصية . حتى أن شكر العينين بالنظر الى عجائب صنع الله يستلزم

الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك .

فإن قيل : استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه ، إلا أن الكلام فى أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما فى فعل ، كما فى فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما ، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين ، فأى الجهتين أفضل ؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية ، فصبر عليها ، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها أيضاً ، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروى وغيرها من الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى ، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر ، أو جهة الشكر ؟

قلنا : التأمل يعطى : أن كل صبر هو شكر بعينه ، وبالعكس . فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما . فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله . وهذا هو عين الشكر ، إذ كل طاعة لله - سبحانه - شكر ، وفى الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران ، وهو عين الصبر عن المعصية .

فإن قلت : فعلى هذا ، يجتمع الصبر والشكر فى محل واحد بجهة واحدة ، وقد تقدم أنهما متضادان ، إذ الصبر يستدعى ألماً ، والشكر يستدعى فرحاً ، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر فى محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة .

قلنا : امتناع الاتحاد فيهما إنما هو فى الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه ، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد — اعنى حبس النفس عن الجزع — هو عين الشكر على النعمة . إذ موت الولد بعينه ليس

نعمة ، بل هو مستلزم للنعمة . فالشكر على اللازم ، والصبر على الملزوم . فاختلفت جهتا الصبر والشكر ، فلا اتحاد . وما ذكرناه من الاتحاد إنما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، أو على البلاء والطاعة . وندعى أن من وصلت اليه نعمة ، فشكر عليها بعرفانها من الله ، ففرح بها ، وعمل بمقتضى الفرح ، من التحميد أو طاعة اخرى ، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هى الكفران ، أو على الطاعة التى هى التحميد وغيره . كذا من ابتلى ببلية ، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع . فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التى هى تعظيم الله بكف النفس عن الجزع ، أو عن المعصية التى هى الجزع والاضطراب . وهذا الاتحاد والعينية يطرد فى كل صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه ، وبالعكس . وليس بينهما تضاد وتغاير اصلاً ، والاستلزام واختلاف الجهة إنما هو فى الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ، ولايمكن هنا اتحادهما لتضادهما . وفى هذه الصورة ، يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر ، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق،فلا يمكن الترجيح فى هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضاً.

فإن قيل : عرفان النعم من الله داخل فى حقيقة الشكر ، وليس داخلا فى الصبر ، فينبغى أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر .

قلنا : فى الشق الأول من صورة العينية والاتحاد ، يكون عرفان النعمة داخلا فى الصبر ، وفى الشق الثانى منهما ، وفى صورة الاستلزام ، يدخل عرفان البلاء من الله فى الصبر . فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله ، فكذا الصابر يرى العمى من الله ، فهما فى المعرفة متساويان . ثم جميع ما ذكر فى الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس

عن الشكوى فى البلاء مع الكراهة والتألم (١)، وعلى هذا يكون الرضا فوقه ، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً ، ويكون الشكر فوق الرضا ، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح . والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر فى مفهوم الصبر الكراهة والتألم ، لصار الرضا والشكر فى بعض درجاته ، إذ يمكن أن يصل حال العبد فى الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به ، لأنه يراه من محبوبه . وحينئذ ، فترك الشكوى فى البلاء مع الكراهة صبر ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر .

تنبيه
(القانون الكلي فى معرفة الفضائل)

إعلم أن المعيار والقانون الكلي فى معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند ارباب القلوب : أن العمل كلما كان أكثر تأثيراً فى اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد إعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، كان أفضل. وعلى هذا القانون،لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما ،لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما ، إذ لكل منهما درجات مختلفة فى تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف أسباب :

منها — الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء .

ومنها — اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين فى الشكر ،

(١) قال استاذ البشر المحقق (الطوسى) — قدس سره — فى تعريف الصبر : « الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه ، وهو يمنع الباطن عن الاضطراب ، واللسان عن الشكاية ، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة . . . » .

واختلاف الطاعة التى تفعل فى كل منهما صعوبة وسهولة . فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويراً وأكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الأمر بعكس ذلك فى بعض آخر من درجاتهما . فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف درجاتهما . فمن الأمور والأحوال التى تندرج تحت الشكر : حياء العبد من تتابع نعم الله عليه ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر ، واعتذاره من قلة الشكر ، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله - تعالى - من غير استحقاقه لها ، وعلمه بأن الشكر ايضاً نعمة من نعمه ومواهبه ، وحسن تواضعه بالنعم ، والتذلل ، وقلة اعتراضه ، وحسن ادبه بين يدى المنعم وتلقى النعم بحسن القبول ، واستعظام صغيرها ، وشكر الوسائط ، لقوله ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » . وقال السجاد عليه السلام : « أشكركم لله أشكركم للناس » . وقال عليه السلام : « يقول الله - تعالى - لعبد من عبيده يوم القيامة : أشكرت فلانا ؟ فيقول : بل شكرتك يا رب ! فيقول : لم تشكرنى إذ لم تشكره » . وقال الصادق عليه السلام : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك » . ولا ريب فى أنه كلما ازدادت هذه الأحوال فى الشكر ، وطال زمانه ، ازداد فضله . وقد نقل : « أن رجلا (كان) يهوى ابنة عم له ، وهى أيضاً تهواه ، فاتفق مزاوجتهما ، فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله على ما جمعنا ، فقالت : نعم ! فصليا تلك الليلة بأسرها ، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية ، قالا مثل ذلك ، فصليا طول الليل . . . فهكذا يفعلان فى ثمانين سنة ، وبقيا على تلك الحالة فى ثمانين سنة فى كل ليلة ، من دون رجوع لأحدهما إلى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما ، فضلا عن شىء آخر » . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من

صبرهما على بلاء العزوبة ، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل .

تتميم

(تفضيل الصبر على الشكر)

اعلم أن الظاهر من بعض الأخبار : أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر . كما روى : « أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض ، فيجزيه الله جزاء الشاكرين . ويؤتى بأصبر أهل الأرض ، فيقال له : أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يا رب ! فيقول الله - تعالى - : كلا ! أنعمت عليه فشكر ، وابتليتك فصبرت ، لا ضعفن عليك الأجر عليه ! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » . وكقوله ﷺ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » . وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر ، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه . وكقول الباقر ﵇ : « مروّة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى ، اكثر من مروّة الإعطاء » . ويؤيد ذلك قوله - تعالى - : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان :

احدهما — التقييد ببعض المراتب ، بأن يقال : المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر . وهذا مما لا ريب فيه ، فان من سلب اعز أولاده وابتلي بالفقر والمرض ، ومع ذلك صبر ولم يجزع ، فهو أفضل البتة ممن اعطى مالا كثيراً فقال : شكراً لله ، الحمد لله ، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات . وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً افضل من كل درجة من درجات الشكر . إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات ، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية ، من

دون فتور ، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه .

وثانيهما ــ التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر . فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر ، ولا يلتفتون الى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله ، وهو عين الشكر . وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر ، ولا يلتفتون الى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران ، وهو الشكر بعينه .

ومنها :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيق وعبادته . وضده الطاعة ، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة . وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي : الطهارة ، والصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والصوم ، والحج ، وزيارة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ والأئمة ـ عليهم السلام ـ : والجهاد في سبيل الله ، واداء المعروف الشامل للزكاة ، والخمس ، والصدقة المندوبة ، وغيرها . والأخير ــ اعني اداء المعروف باقسامه ــ قد تقدم . والجهاد في هذا الزمان ساقط . فنشير الى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي ، في مقاصد وخاتمة . وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة ، فهي مذكورة في الفقهيات .

المقصد الأول

الطهارة ـ حقيقة الطهارة ـ ما ينبغي للمؤمن في الطهارة ـ ازالة الاوساخ ـ آداب الحمام ـ السر في ازالة الاوساخ .

* * *

اعلم ان الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد . إذ الطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة ، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية . ولذا ورد في مدحها ما ورد ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (١). وقال: « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ » (٢).

وقال رسول الله ﷺ : « بني الدين على النظافة » . وقال ﷺ : « الطهور نصف الايمان » . وقال ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور » . وقال ﷺ : « بئس للعبد القاذورة » . وقال ﷺ : « من اتخذ ثوبا فلينظفه » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « النظيف من الثياب يذهب الهمّ والحزن ، وهو طهور للصلاة » .

ثم للطهارة أربع مراتب :

الأولى ـ تطهير الظاهر من الاحداث والاخباث والفضلات .

الثانية ـ تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .

---

(١) التوبة ، الآية : ١٠٩ . (٢) المائدة ، الآية : ٧ .

الثالثة — تطهير القلب من مساوى الأخلاق ورذائلها .

الرابعة — تطهير السر عما سوى الله ـ تعالى ـ ، وهى تطهير الأنبياء والصديقين . والطهارة فى كل مرتبة نصف العمل الذى فيها ، إذ الغاية القصوى فى عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامة ، والحب والأنس . ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ :

« قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » (١) . فان الله وغيره لا يجتمعان فى قلب واحد : « وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » (٢) .

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه . والغاية القصوى فى عمل القلب عمارته بالأخلاق المحمودة ، والعقائد الحقة المشروعة . ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها ، من الأخلاق المذمومة ، والعقائد الفاسدة . فتطهيرها عنها أحد الشطرين ، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة .

وأما عمل الجوارح ، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات . ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصى والمناهى . فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات . وقس على ذلك الحال فى المرتبة الأولى . والى ذلك الأشارة بقول النبى ﷺ : « الطهور نصف الايمان » . فإن المراد : أن تطهير الظاهر ، والجوارح ، والقلب ، والسر ، من النجاسات والمعاصى

(١) الانعام ، الآية : ٩١ . (٢) الأحزاب ، الآية : ٤ .

ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الايمان ، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق ، والاستغراق فى شهود جمال الحق وجلاله . ولا تظن أن مراده ﷺ أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان ، مع تلوّث الجوارح باخباث المعاصى ، وتنجس القلب باقذار مساوى الأخلاق ، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله . فالمراد التطهير فى المراتب الأربع ، التى هى من مقامات الدين ، وهى مرتبة يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق ، ما لم يتجاوز ما دونه ، فلا يصل الى طهارة السر مما سوى الله ، وعمارته بمعرفة الله ، وانكشاف جلاله وعظمته ، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة ، وتحليته بالملكات المحمودة . ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصى وعمارتها بالطاعات . ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر ، وعمارته بالنظافة والنزاهة .

فصل

(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهر ، إما عن الخبث ، أو عن الحدث ، أو عن فضلات البدن ، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة ، مستقصاة فى كتب الفقه .

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلى لقضاء الحاجة ، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، وخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الأقذار ، وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر باستراحة نفسه عند اخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجات ، وأن

الأخلاق الذميمة التى فى باطنها نجاسات باطنة ، واقذار كامنة ، لتستريح نفسها عند اخراجها ، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها ، وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول الى حريم العزة . فكما يسعى فى اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة فى الدنيا ، فينبغى أن يجتهد أيضاً فى اخراج الأقذار الباطنة ، والنجاسات الداخلة الغائضة (١) فى الأعماق ، المفسدة على الاطلاق ، لتستريح الروح والبدن فى الدنيا والآخرة أبد الآباد . قال الصادق ﷺ : « إنما سمى المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من أثقال النجاسات ، واستفراغ الاقذار والكسافات فيها . والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر فى نفسه المكرمة فى حال كيف تصير ذليلة فى حال ، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين . فإن الراحة فى هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفى إزالة النجاسة من الحرام والشبهة . فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ، ويفرّ من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد فى أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلباً لحسن المآب ، وطيب الزلفى . ويسجن نفسه فى سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات ، الى أن يتصل بامان الله - تعالى - فى دار القرار ، ويذوق طعم رضاه ، فإن المعول على ذلك ، وما عداه فلاشىء » (٢) .

---

(١) الغائضة : الغائرة . غيض الدمع : حبسه وأخفاه .

(٢) الحديث مذكور فى (مصباح الشريعة) ، الباب التاسع وفى (مستدرك الوسائل) : ١ / ٣٢ - ٣٨ ، كتاب الطهارة . وفى الموضعين اختلاف كثير عما ذكرنا ، فصححناه كما كان فى الموضعين .

وينبغي أن يتأمل فى أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه ، ويحترص فى طلبه من لذائذ الأطعمة ، وكلما كانت ألذ عفونتها أشد ، فما كانت عاقبته ذلك ، فليحذر من أن يأخذه من غير حله ، فيعذب أبد الآباد لأجله .

فصل

(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث : أن تكليفه بها للدخول فى العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون اعضائه التى أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية ، منهمكة فى الكدورات الطبيعية ، فخرجت عن أهلية القيام بين يدى الله - سبحانه - ، والاشتغال بعبادته . فالأمر بغسلها ، لتتطهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة . ولا ريب فى أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية ، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ، وما لم يعزم على الرجوع الى الله ، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها . فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ، جازماً على فطام الأعضاء التى هى اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا ، لتسرى نوريته وطهارته الى تلك الأعضاء ، ثم أمر فى الوضوء أولاً : بغسل الوجه ، الذى هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة ، التى هى أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا ، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله ، وهو خال من تلك الأدناس ، وثانياً : بغسل اليدين ، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة ، وثالثاً : بمسح الرجلين ، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية ، والمقاصد الطبيعية .

فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها فى العبادات والإقبال عليها . وأمر فى الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الانسان وأشدها تعلقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع ، ولجميع بدنه مدخل فى تلك الحالة . ولهذا قال رسول الله ﷺ: « تحت كل شعرة جنابة » . فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية ، منغمساً فى اللذات الدنية ، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة ، والدخول فى العبادة المنيفة . وأمر فى التيمم بمسح الأعضاء بالتراب ، عند تعذر غسلها بالماء ، وضعاً لتلك الأعضاء الرئيسة ، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة .

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء ، والمستخدم لها فى تلك الأمور المبعدة عن جنابه - تعالى - ، وهو الموضع لنظر الله - سبحانه - ، كما قال ﷺ : « إن الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل . فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة ، وتحليته بالأوصاف الجميلة ، لرسوخه على حب الدنيا الدنية ، فليقمه فى مقام الهضم والازراء ، ويسقه بسياط الذل والإغضاء . كما أنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب ، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع ، فإنه عند المنكسرة قلوبهم ، كما ورد فى الأثر ، فترق من هذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الإقبال ، ويتدارك سالف الإهمال .

ثم ما ذكر من السر فى الطهارة ، يمكن استنباطه — مع الزيادة — من كلام مولانا الصادق عليه السلام فى (مصباح الشريعة) ، حيث قال : « إذا أردت

الطهارة والوضوء ، فتقدّم الى الماء تقدّمك الى رحمة الله ، فإن الله ـ تعالى ـ قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلا إلى بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَهوَ الَّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحمَتِهِ وَأَنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهوراً » (١) . وقال الله ـ تعالى ـ : « وَجعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنونْ » (٢) .

فكما أحيي به كل شيء من نعيم الدنيا ، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات . وتفكر في صفاء الماء ورقته ، وطهره وبركته ، ولطيف امتزاجه بكل شيء . واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها ، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه . فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب. ثم عاشر خلق الله ـ تعالى ـ كامتزاج الماء بالأشياء ، يؤدي كل شيء حقه ، ولا يتغير عن معناه ، معتبراً لقول الرسول ﷺ : (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء) . ولتكن صفوتك مع الله ـ تعالى ـ في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهورا ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء ، (٣) .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٤٨ . (٢) الأنبياء ، الآية : ٣٠ .

(٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) ، الباب العاشر . وعلى (المستدرك) : ١/ ٥١ ـ ٥٢ ، كتاب الطهارة .

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء ، ما أشار اليه مولانا الرضا ﷺ بقوله : « إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدى الجبار عند مناجاته إياه ، مطيعاً له فيما أمره ، نقياً من الأدناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرد النعاس ، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدى الجبار . وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد إذاقام بين يدى الجبار ، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد . وامر بالغسل من الجنابة دون الخلاء ، لأن الجنابة من نفس الانسان ، وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب » (١) .

فصل

(ازالة الاوساخ)

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر

(١) هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسي) — قدس سره — في (البحار) : ١٨ / ٥٦ ، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه ، ومن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) — رضوان الله عليه — ، ولم أعثر عليها إلا في الموضع المذكور من (بحار الانوار) .

ولا يخفى أن ما نقله العلامة (المجلسي) — قدس الله روحه — في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية والمطبوعة ، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب . وذلك غير ممكن ، لضيق المقام ، فلأجله تركنا تصحيحها ، لعل القارىء الكريم يقف على مصدر آخر لها . فمن أراد الاطلاع على الرواية ، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور .

الرأس بالحلق ، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل فى شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ فى معاطف الأذنين بالمسح ومثله ، وما يجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما يجتمع فى الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق ، وما يجتمع من الوسخ تحت الأظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منه فى رؤس الأنامل وفى معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه ، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول فى الحمام .

تنبيه

(آداب الحمام)

ينبغى لمن يدخل الحمام ، أن يتذكر بحرارته حرّ النار ، ويقدّر نفسه محبوساً فى البيت ساعة ، ويقيسه الى جهنم ، ويستعيذ بالله منها . قال الصادق عليه السلام : « فاذا دخلت البيت الثالث ، فقل : نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة . وترددها الى وقت خروجك من البيت الحار » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « نعم البيت الحمام ، يذهب بالدرن ، وتذكر فيه النار » . وفيه اشارة الى أنه ينبغى للعاقل ألاّ يغفل عن ذكر الآخرة فى لحظة ، فإنها مقره ومستقره . فيكون له فى كل ما يراه ، من ماء أو نار أو غيرهما ، عبرة وموعظة . فإن المرأ ينظر فى كل شىء بحسب همته . فالبزار إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل فى قيمتها . والحائك إذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل فى كيفية نسجها ، والنجار إذا دخلها ينظر الى أبوابها وشبابيكها ويتأمل فى كيفية نجرها وتركيبها ، والبناء

إذا دخلها ينظر الى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر الى شيء إلاّ وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة. فإن نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر الى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر الى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية ، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له فى آخر أمره بعد الحساب من الردّ والقبول ، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة . . . إلى غير ذلك .

تتميم

(السر فى إزالة الأوساخ)

السر فى إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر ، فإنها توجب تنوير القلب ، وانشراح الصدر ، وطرد الشيطان . إذ هى كسافات مانعة عن النورية والتجرد ، فتشمئز منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين . ومن تأمل فى الأحكام والآداب التى جاء بها رسول الله ﷺ، وكانت له بصيرة ناقدة ، يعلم أن شيئاً منها لا يخلو عن حكمة ، حتى أن ما صدر عنه فى الآداب والحركات والأفعال والأقوال ، من ترتيب خاص ، أو تخصيص بعدد معين ، أو ابتداء من موضع خاص ، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة ، يتضمن حكماً أو حكمة البتة . مثال ذلك : أنه ﷺ كان يكتحل فى عينه اليمنى ثلاثاً وفى عينه اليسرى اثنين ، والسر فى هذا الترتيب وهذا التخصيص : أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها ، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً ، فإن للوتر فضلاً على الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فلا ينبغي أن يخلو

فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب ، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر ، لأن اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة ، والغالب أن الواحدة لا تستوعب اصول الأجفان بالكحل ، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضيل لابد منه للايثار ، واليمين أفضل ، فهو بالزيادة أحق ، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً،إذ الزوجية في احداهما لازمة ضرورية، اذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً ، إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد . مثال آخر . روى الجمهور في تقليم الأظفار : « أن رسول الله ﷺ كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى ، ويختم بابهام اليمنى ، بأن يبتدىء من مسبحتها الى خنصرها ، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى الى ابهام اليمنى » . وفي طريقنا روايتان : احداهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، واخراهما بعكس ذلك ، وهي أشهر . فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغي أن يبتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف ، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى . ولا ريب في أنه اذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى ، ووضع ظهر اليد على الأرض وان اقتضى كون الابهام هو اليمين ، إلا أن الاعتبار الأول أولى ، إذ اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الأرض ، لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسار ، واليسرى إلى جهة اليمين ، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً ، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى ، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى . ثم إذا وضعت

الكف على الكف ، صارت الأصابع فى حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى أن يعود الى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بابهامها، ويبقى ابهام اليمنى، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص فى حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع.

هذا ، وأما السر على الرواية الأولى من طريقنا ، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة فى حكم صف واحد ثابت على الأرض ، والابتداء باليمين ، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها . وأما الرواية الثانية ، فلعل السر فيها تحصيل التيامن فى كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها ، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع . هذا ، وأما اصابع الرجل ، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها .فينبغى اعتبار أحد الطريقين المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى ، وينبغى أن يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين إن وقعا فى وقت واحد ، إذ اليد أشرف من الرجل . وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات ، فإنه لا يخلو شىء منها على سر حكمى ، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك أكثرها .

المقصد الثانى

الصلاة - حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع اشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعانى الباطنة - اسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلى - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفاته - ما ينبغى فى إمام الجماعة - ما ينبغى فى صلاة الجمعة والعيدين - ما ينبغى للمؤمن عند ظهور الآيات .

إعلم أن الصلاة معجون سماوى ، وتركيب إلهى ، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة ، متفاوتة فى الفضل والاهتمام بها . فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء .

وتوضيح ذلك : أن الانسان — مثلا — لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة ، فهو لايكون انسانا موجوداً كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح ، وأعضاء محسوسة بعضها فى جوفه وبعضها فى ظاهره . وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب ، إذ بعضها مما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله ، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه أصل الحياة ، إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً ، كاليد والرجل والعين وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته الحسن ، كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا اصله، كاستقواس الحاجبين ، وتناسب الخلقة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالحمرة ، وامثال ذلك . وكذلك الصلاة حقيقة مركبة ، وصورة صورها الشرع من امور متفاوتة ، وتعبدنا باكتسابها . فروحها : النية ، والقربة ، وحضور القلب ، والاخلاص . واعمالها الاركانيه : من تكبيرة الاحرام ، والركوع ، والسجود ، والقيام ، بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها . وسائر الأعمال الواجبة : من الفاتحة ، والسورة ، واذكار الركوع ، والسجدتين ، والطمأنينة فيهما ، وفى رفع الرأس عنهما ، والتشهد ، والتسليم ، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التى تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً ، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك ، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به ، والأعمال المسنونة ، والهيئات المندوبة ، والآداب

المستحبة : من القنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات ، والتعوذ ، والزائد عن قدر الواجب فى التشهد والتسليم من الاذكار ، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهواً ، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب ، فهى بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها ، ويصير الشخص بسببه مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه .

واذا عرفت ذلك : فاعلم ـ يا حبيبي ـ أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك ، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم . وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك فى يوم العرض الأكبر ، فاليك الخيرة فى تحسين صورتها أو تقبيحها ، فمن أدّاها على النحو المأمور به ، باعمالها الواجبة والمندوبة ، وشرائطها الظاهرة والباطنة ، مع الاخلاص وحضور القلب ، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سويّاً شاباً جميلا عاقلا كاملا الى ملك من الملوك . ومن اقتصر على اعمالها الظاهرة ، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص ، كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح الى ملك من الملوك . ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته ، كان كمن أهدى عبداً مقتولا اليه . ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى اليه عبدحى أعمى ، أو أصم ، أو أبكم ، أو مقطوع الأطراف ، أو هرماً ، أو قبيح المنظر ، أو مجروح الأعضاء ، أو أمثال ذلك . فتنبه أيها الغافل ، وتأمل فى أنك اذا اهديت تحفة الى ملك من ملوك الدنيا ، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة ، من الأمراء والحكام ، كيف تجتهد وتسعى فى تجويدها وتحسينها ليقبلها ، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك الى ملك الملوك الذى منه

بدؤك واليه عودك ؟! وقد ورد : أن كل صلاة لا يتم الانسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر ، وتقول : « ضيعك الله كما ضيعتنى ! » .

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام ، إذ بيانها على عهدة الفقه . فلنشر الى المعانى الباطنة التى بها تتم حياتها ، والى الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة ، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول : المعانى الباطنة ، التى هى روح الصلاة وحقيقتها ، سبعة :

الأول — الاخلاص والقربة ، وخلوّها عن شوائب الرياء . وقد تقدم تفصيل القول فى ذلك .

الثانى — حضور القلب : وهو أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله ، من غير جريان الفكر فى غيرهما . فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه ، وكان فى قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه ، فقد حصل حضور القلب . ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب ، فإن الخشوع فى الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب : وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها ، بحيث لا يكون فى قلبه غير المعبود . وخشوع بالجوارح : وهو أن يغض بصره ، ولا يلتفت ، ولا يعبث ، ولا يتثاءب ، ولا يتمطى ، ولا يفرقع أصابعه ،

وبالجملة : لا يتحرك لغير الصلاة ، ولا يفعل شيئاً من المكروهات ، وربما عبر ذلك بالخضوع .

الثالث — التفهم لمعنى الكلام : وهو أمر وراء حضور القلب . فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ، ولا يكون حاضراً مع معناه . فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، إذ ليس يشترك الناس فى تفهم معانى القرآن والتسبيحات ، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين فى اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم اموراً تمنع تلك الامور عن الفحشاء والمنكر لا محالة .

الرابع — التعظيم : وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم . إذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظما له .

الخامس — الهيبة : وهى زائدة على التعظيم ، لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً . ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال .

السادس — الرجاء : ولا ريب فى كونه زائداً عما ذكر . فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك ، ويهابه ويخاف سطوته ، ولا يرجو بره واحسانه . والعبد ينبغى أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله ، كما أنه خائف بتقصيره عقابه .

السابع — الحياء : ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء ، لتصورها من غير حياء ، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

فصل

(حضور القلب)

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها ، والمقصود الاصلى منها ، أمر ظاهر . إذ الغرض الأصلى من العبادات والطاعات هى تصفية النفس وتصقيلها ، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون أفضل . ولا ريب فى أن المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها ، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه ، مع أن المصلى فى صلاته ودعائه مناج ربه ؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وأيضاً الكلام إعراب عما فى الضمير ، ولا يتأتى الإعراب عما فى الضمير إلا بحضور القلب ، فاى سؤال فى قوله : « إهدنا الصراط المستقيم » اذا كان القلب غافلا ؟ ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله - تعالى - ، فاذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة ، ولا يراه ولا يشاهده ، بل كان غافلا عن المخاطب ، ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب ، وتجديد ذكر الله ، ورسوخ عقد الايمان بها . هذا حكم القراءة والذكر . وأما الركوع والسجود ، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً ، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ، واذا خرج عن كونه تعظيما ، لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، كما فى أفعال الحج ، واعطاء المال فى الزكاة ، وامساك النفس عن الشهوات فى الصوم . فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل

بين الكفر والاسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص ، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة ، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها ، وعلى ذم الغفلة والتفكر فى امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء واكابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم فى الصلاة فى غاية الإقبال والخشوع والخوف . قال الله - سبحانه - :

« الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعونَ » (١). وقال : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي » (٢) . والغفلة تضاد الذكر ، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره . وقال : « وَلا تَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ » (٣) . وقال : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِم ساهُونَ » (٤) ، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين ، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها . وقال : « لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتى تَعلَمُوا ما تَقولونَ » (٥) .

قيل المراد : سكارى من كثرة الهم ، وقيل : من حب الدنيا ، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا ، إذ بين فيه العلة . وقال : حتى تعلموا ما تقولون . وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول فى

(١) المؤمنون ، الآية : ٢ .
(٢) طه ، الآية : ١٤ .
(٣) الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .
(٤) الماعون ، الآية : ٤ - ٥ .
(٥) النساء ، الآية : ٤٢ .

صلاته . وقال رسول الله ﷺ : « من صلى ركعتين ، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقال ﷺ : « إذا صليت صلاة فريضة ، فصل لوقتها صلاة مودّع يخاف ألا يعود فيها » . وقال ﷺ : « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » . وقال ﷺ : « إنما فرضت الصلاة ، وامر بالحج والطواف ، واشعرت المناسك ، لإقامة ذكر الله ، فاذا لم يكن في قلبك المذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟! » .

وعن ابي عبدالله عليه السلام قال : « قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : انما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي ، ويقطع نهاره بذكري ، ولا يتعاظم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويرحم المصاب ، ويؤوي الغريب ، فذلك يشرق نوره مثل الشمس ، أجعل له في الظلمات نوراً ، وفي الجهالة علماً ، أكلأه بعزتي ، واستحفظه بملائكتي ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه . فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس ، لا تيبس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها » (١) . وفي اخبار موسى : « يا موسى ، اذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنغض اعضاءك ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً . واذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك . واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل ، وناجني بقلب وجل ، ولسان صادق » . وأوحى اليه عليه السلام : « قل لعصاة أمتك : لا تذكروني ، فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته ، واذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » . وفي بعض الأحاديث القدسية : « ليس كل مصل أتقبل صلاته ، إنما أقبل صلاة من تواضع

(١) الحديث مروي في (بحار الأنوار) : ١٨ / ١٩٦ ، باب آداب الصلاة من (المحاسن) ، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) ، فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار) .

لعظمتى ، ولم يتكبر على عبادى ، وأطعم الفقير الجائع لوجهى » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه ، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره » . وقال الصادق عليه السلام : « لا تجتمع الرغبة والرهبة فى قلب إلا وجبت له الجنة ، فإذا صليت ، فاقبل بقلبك على الله - عز وجل - ، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله - عز وجل - فى صلاته ودعائه ، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين ، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة » . وقال الباقر عليه السلام : « إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها ، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه ، وإنما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة » . وروى : « أن ابراهيم الخليل كان يسمع تأوهه على حد ميل ، وكان يسمع له فى صلاته أزيز كأزيز المرجل (١) » . وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك . وقال بعض أزواجه : « كان النبي صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة ، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ فى الوضوء ، يتغير وجهه من خيفة الله . وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون ، فقيل له : ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان » . وروى : « أنه وقع نصل فى رجله عليه السلام ، فلم يمكن أحداً من اخراجه . فقالت فاطمة - عليها السلام - : أخرجوه فى حال صلاته ، فإنه لا يحس حينئذ بما يجرى عليه . فاخرج وهو فى صلاته ، فلم يحس به أصلاً » . وكانت

---

(١) الأزيز : صوت غليان القدر . والمرجل - وزان منبر - : القدر من الحجارة .

الصدّيقة فاطمة - عليها السلام - تنهج (١) فى الصلاة من خيفة الله . وكان الحسن بن علي - عليهما السلام - اذا فرغ من وضوئه ، تغير لونه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « حق على من أراد أن يدخل على ذى العرش أن يتغير لونه » . وكان الإمام علي بن الحسين - عليهما السلام - اذا توضأ اصفر لونه ، فيقال له : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : « إنى أريد الوقوف بين يدى ملك عظيم » . وقال أبو حمزة الثمالى : « رأيته يصلى ، فسقط رداؤه عن منكبه ، فتركه حتى فرغ من صلاته ، فسألته عن ذلك ، فقال : ويحك ! أتدرى بين يدى من كنت ؟ شغلنى والله ذلك عن هذا ! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه ؟ . فقلت له : يا بن رسول الله ، هلكنا اذاً . قال : كلا ! ان الله يتم ذلك بالنوافل » . وروى : « أنه ﷺ اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً » . وروى : « أنه ﷺ كان اذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة ، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه » . وسئل مولانا الصادق ﷺ عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشياً عليه ، فقال : « ما زلت اكرر آيات القرآن ، حتى بلغت الى حال كأننى سمعتها مشافهة ممن أنزلها » (٢) . قيل : وكان لسان الإمام ﷺ فى تلك الحال كشجرة طور حين قالت : « انى أنا الله » . وسئل بعض الأكابر عن صلاته ، فقال : « اذا جاءت الصلاة ، أسبغت الوضوء ، وأتيت الموضع الذى اريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى ، ثم أقوم الى الصلاة ، فأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، وملك الموت ورائى ، وأظنها آخر

(١) النهج - بالتحريك - : تتابع النفس والبهات .

(٢) صححنا الأحاديث الواردة فى الصلاة على (بحار الأنوار) : ١٨ / ١٦٩ - ٢٠٢ ، باب آداب الصلاة .

صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيراً بتحنن ، وأقرأ القرآن بترتيل ، وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع ، وأقعد على الورك اليسرى ، وأفرش ظهر قدمها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص ، ثم لا أدرى أقبلت مني أم لا ! » .

ثم ، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء ، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس ، تعلم : ان الناس ينقسمون في صلاتهم : الى غافل يتمّ صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة . والى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتها ، وزيادة احدهما على الآخر ، فله مراتب غير متناهية . والى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة . بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته ، وربما كان مستوعب الهم بها ، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين ﷺ باخراج النصل من رجله الشريفة . وبعضهم حضر الجماعة مدة ، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين . وكان جماعة تصفرّ وجوههم ، وترتعد فرائصهم عند الصلاة . وكل ذلك غير مستبعد ، فان اضعافه مشاهدة في همّ الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع ضعفهم وعجزهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم . حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ، ويحدثه بمهم ويخرج ، ولو سئل عمن كان على حواليه ، وعن ثوب الملك ، لكان غير قادر على الإخبار عنه ، لا شتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله :

« وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا » (١)

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فان موضع

(١) الأنعام ، الآية : ١٣٢ . الأحقاف ، الآية : ١٩ .

نظر الله القلوب ، دون ظاهر الحركات . ولذا قال بعض الصحابة : « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة ، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها »، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل : « من صفات القلوب تصاغ الصور فى دار الآخرة ، ولا ينجو :

« إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (١) » .

تنبيه
(دفع اشكال)

إن قيل : المستفاد من الظواهر المذكورة ، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير ، فكيف التوفيق ؟

قلنا : فرق بين القبول والإجزاء ، فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد الى الله ، ويترتب عليه الثواب فى الآخرة ، والمجزى منها ما يسقط التكليف عن العبد ، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله . والناس مختلفون فى تحمل التكليف ، فان التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة ، فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب فى جميع الصلاة ، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون . وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة ، فلا مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ، ولو فى اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه ، فاقتصر على التكليف بذلك . ونحن — مع ذلك — نرجوا ألا يكون حال الغافل فى جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً ، واحضر القلب

(١) الشعراء ، الآية : ٨٩ .

لحظة ، وكيف لا والذى صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله ، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ؟ والحاصل : أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وأن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى اجزاء الصلاة ، وكم من حى لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل فى جميعها ، إلا عند التكبير ، حى لا حراك فيه .

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعانى الباطنة المذكورة اسبابا لا تتحقق بدونها .

أما حضور القلب : فسببه الاهتمام .

فإن قلت : كل احد تابع لهمه ، فلا يحضر إلا فيما يهمه ، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه ، شاء أو لم يشأ ، فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلا ، بل كان حاضراً فيما يهمه من امور الدنيا . فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب فى الصلاة إلا بصرف الهمة اليها ، والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة اليها . واذا اضيف الى هـــذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها ، حصل من مجموع ذلك حضور القلب فى الصلاة . ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب فى أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر اذا حضرت بين يدى ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدى بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك . فاذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذى بيده الملك والملكوت ، والنفع والضر ، فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الايمان واليقين . فينبغى حينئذ السعى فى تقوية اليقين والايمان .

وأما التفهم : فسببه — بعد حضور القلب — ادمان الفكر ، وصرف الذهن الى ادراك المعنى . وعلاجه ما هو علاج احضار القلب ، مع الاقبال على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها ، أعنى النزوع عن الأسباب التى تنجذب الخواطر اليها . وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر . فإن من أحب شيئاً أو أبغض شيئاً أو خاف من شيء ، أكثر ذكره . فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة . ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه ، لا تصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم : فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : إحداهما : معرفة جلال الله وعظمته ، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه ، وهذه المعرفة من اصول الايمان . الثانية : معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها ، وكونها عبداً مسخراً مربوبا لا يقدر شيئاً من النفع والضر . وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه ، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ، ولا يكون خاشعاً معظما له ، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه .

وأما الهيبة والخوف : فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله — تعالى — وسطوته ونفوذ مشيته فيه ، مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء : فسببه معرفة لطف الله - تعالى - وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة . فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه ، انبعث منهما الرجاء .

وأما الحياء : فسببه إستشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها ، وقلة اخلاصها وخبث باطنها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعالها ، مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب ، وإن دقت وخفيت . وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً ، انبعثت منها - بالضرورة - حالة تسمى بالحياء .

فصل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة ، اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، هو تحصيل أسباب هذه المعاني ، وقد عرفت اسبابها . وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين:

الأول - معرفة الله ، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه ، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد . ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية ، ليترتب عليها الأثر . اذ ما لم يحصل اليقين بأمر ، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه . وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمان . ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة واسبابها . اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهماً لما يسأله عنه ، معظماً له ، وخائفاً منه ، وراجياً منه ، ومستحيياً من تقصيره .

الثاني - فراغ القلب ، وخلوه من مشاغل الدنيا . فإن انفكاك

المؤمن العارف ، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته ، وباطلاعه عليه من المعانى المذكورة فى صلاته ، لا سبب له إلا تفرق الفكر ، وتقسم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ، ولا تلهى عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء فى احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر، ولا يدفع الشىء إلا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر ، إما أن يكون أمراً خارجاً ، أو أمراً فى ذاته باطناً .

والأول : ما يظهر للبصر ، او يقرع على السمع . فإن ذلك قد يختطف الهمَّ حتى يتبعه ، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر الى غيره ، ويتسلسل فيكون الإبصار او الاستماع سبباً للافتكار ، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض . ومن قويت رتبته وعلت همته ، لم يلهه ما يجرى على حواسه . ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق فيه فكره . فعلاجه : قطع هذه الأسباب ، بأن يغض بصره ، أو يصلى فى بيت مظلم ، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته ، حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفى المواضع المنقوشة المصبوغة ، والعمارات العالية المرتفعة . ولذلك كان المتعبدون يصلون فى بيت مظلم صغير ، سعته بقدر السجود ، ليكون أجمع للهم . والأقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغضون البصر ، ولا يجاوزونه موضع السجود ، كما ورد الأمر به ، ويرون كمال الصلاة فى ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم .

وأما الثانى : اعنى الأسباب الباطنة ، فهى أشد . فإن من تفرقت همومه ، وتشعبت خواطره فى أودية الدنيا ، لم ينحصر فكره فى فنّ

واحد ، بل لا يزال يطير من جانب الى جانب . وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع فى القلب من قبل كاف للشغل . فهذا علاجه : أن يرد نفسه قهراً الى فهم ما يقرؤه ، ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم ، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدى الله - تعالى - ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا ، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت اليه خاطره ، فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن ، فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من اعماق العروق ، وهو أن ينظر فى الأمور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب . ولا ريب فى أنها تعود الى مهماته ، وهى إنما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق . فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه ، وجند ابليس عدوه ، فإمساكه أضر عليه من اخراجه . فيتخلص عنه باخراجه . وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ، ولا يغنى غيره . فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ، إنما ينفع فى الشهوات الضعيفة ، والهمّ الذى لا يشغل إلا حواشى القلب . وأما الشهوة القوية المرهقة ، فلا ينفع معها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ، ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة . ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره ، وكانت أصوات العصافير تشوّش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هى فى يده ويعود الى فكره ، فتعود العصافير ، فيعود الى التنفير بالخشبة ، فقيل له : إن هذا سير الوانى ولا ينقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوة ، إذا استعملت وتفرعت اغصانها ، انجذبت اليها الأفكار انجذاب العصافير الى الأشجار ، وانجذاب الذباب الى

الأقذار ، والشغل يطول فى دفعها . فإن الذباب كلما ذب آب ، ولأجله سمى ذباباً ، وكذلك الخواطر . وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها ، ويجمعها أصل واحد ، وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ، وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شىء منها لا يتزوّد منها ويستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن فى أن تصفو له لذّة المناجاة فى الصلاة . فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرة عينه ، فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف همه لامحالة اليها . ولكن — مع هذا — لا ينبغى أن تترك المجاهدة ، ورد القلب الى الصلاة ، وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء ، ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالاً . حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا ، فعجزوا عنه . فاذاً لا مطمع فيه لأمثالنا ، ويا ليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس ، لنكون ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً .

وعلى الجملة : فهمة الدنيا وهمة الآخرة فى القلب مثل الماء الذى يصب فى قدح فيه خل ، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة ، ولا يجتمعان . ثم جميع ما ذكر إنما هو فى الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا ، حتى اذا خرجت هذه الأمور من القلب ، خرجت منه هذه الخواطر أيضاً . وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة ، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوى يكون لها ، ومن دون اختيار للعبد فى خطورها وعدم خطورها ، والأمر فيها أصعب ، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة فى زوالها أيضاً ، إذ مادة هذه الوساوس أيضاً ، إما حب المال وحب الجاه ، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية الدنيوية . وقد تقدم

تفصيل القول فيها وفى طريق علاجها فى بحث الوساوس .

فصل

(أسرار الصلاة)

فى تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبيهات ، فينبغى للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها ، فها هى نذكرها :

أما الأذان : فاذا سمعت نداء المؤذن ، فأخطر فى قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بباطنك وظاهرك للاجابة والمسارعة ، فإن المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فإن وجدته مملوأ بالفرح والاستبشار ، مشحونا بالرغبة الى الابتدار ، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال سيد الأنبياء : « أرحنا يا بلال ! » ، أى أرحنا بها وبالنداء اليها ، إذ كانت قرة عينه فيها . واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا فى تكبيرك ، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل . وأحضر النبي ﷺ ، وتأدب بين يديه ، واشهد له بالرسالة مخلصاً ، وصلّ عليه وآله ، وحرك نفسك ، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الأعمال وأفضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذلك كما افتتحت به . واجعل مبدءك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته . فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فصل

(الوقت)

واذا دخل الوقت ، استحضر أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأمل للمثول فى حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك . فاستعد له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار ، والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، وعدم تناهى قدرته وكماله ، ونقصان قدرك ومرتبتك ، وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصل

(آداب الصلاة)

اذا اتيت بالطهارة فى مكانك ، وهو ظرفك الأبعد ، ثم فى ثيابك ، وهو غلافك الأقرب ، ثم فى بشرتك ، وهى قشرك الأدنى ، فلا تغفل عن لبك وذاتك ، وهو قلبك ، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك فى المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فإنه موضع نظر ربك . ثم اذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس ، فاخطر ببالك فضائح سرك التى لا يطلع عليها إلا ربك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر ، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء ، فتستفيد بإظهارها فى قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها ، فتذل به نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدى الله - تعالى -

قيام العبد المجرم المسيء الآبق ، الذى ندم فرجع الى مولاه ، ناكساً رأسه من الخوف والحياء . قال الصادق ﷺ : « أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى ، وأنعمه الايمان ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ » (١)

وأما اللباس الظاهر ، فنعمة من الله ـ تعالى ـ تستر بها عورات بنى آدم ، وهى كرامة أكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم ، وهى للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم . وخير لباسك مالا يشغلك عن الله ـ عز وجل ـ ، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء ، فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة فى القلب . فاذا لبست ثوبك ، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق فى ستر الهيبة ، وظاهرك فى ستر الطاعة . واعتبر بفضل الله ـ عز وجل ـ ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء . ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما أعظم منه . واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره . واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك ، وتهلك نفسك ، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله فى العاجل ، وأوفر أسباب العقوبة فى الآجل . وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله ـ تعالى ـ ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين فى دين الله ـ عز وجل ـ ، فهو بمعزل عن الآفات ، خائض فى بحر رحمة الله ـ عز وجل ـ ، يفوز بجواهر

(١) الأعراف ، الآية : ٢٥ .

الفوائد من الحكمة والبيان . وما دام ناسياً لذنوبه ، جاهلا بعيوبه ، راجعاً الى حوله وقوته ، لا يفلح إذاً أبداً ، (١) :

فصل

(آداب المصلي)

إذا أتيت مصلاك ، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته ، والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، ونظره اليك بعين الرحمة . فاختر مكاناً يصلح ، كالمساجد الشريفة ، والمشاهد المطهرة ، مع الإمكان . فانه - تعالى - جعل تلك المواضع محلاً لاجابته ، وموضع نزول فيوضاته ورحمته ، على مثال حضرة الملوك ، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب . فادخلها بالسكينة والوقار ، ومراقباً للخشوع والانكسار . قال الصادق عليه السلام : « إذا بلغت باب المسجد ، فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم ، لا يطأ بساطه إلا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون ، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم إن غفلت ، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك . فان عطف عليك برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً . وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك ، حجبك ورد طاعتك وإن كثرت . وهو فعال لما يريد . واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه ، فإنك قد توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به . واعرض أسرارك عليه ، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم . وكن كأفقر عباده بين يديه . واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص . وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك ،

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢/ ١٣٧ - ١٣٨ .

فإن ذقت حلاوة مناجاته ، ولذيذ مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته ، فقد صلحت لخدمته ، فادخل فلك الأذن والامان ، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل ، وقصر عنه الأمل ، وقضى عليه الأجل . فان علم الله - عز وجل - من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما تحب وترضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته . قال الله - تعالى - :

« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ » (١) » (٢) .

فصل

(الاستقبال)

وأما الاستقبال ، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله. وهذا إشارة الى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله ، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات فى جهة واحدة ، لأجل ألا تبقى على القلب ، لأنها إذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب فى التوجه الى أشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ، ليتذكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة واحدة . قال رسول الله ﷺ : « إن الله - تعالى - مقبل على المصلى ما لم يلتفت » ، وهذا

---

(١) النمل ، الآية : ٦٢ .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٦٢ / ١٤٠ - ١٤١ .

الإلتفات يشمل التفات القلب ايضاً، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الإلتفات الى الجهات، فكذلك يجب حراسة السرّ عن الالتفات الى غير الله وغير الصلاة، فان التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره باطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجى عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله ﷺ - وقد رأى مصلياً يعبث بلحيته -: «أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»، فان الرعية بحكم الراعى». وفى الدعاء: «اللهم اصلح الراعى والرعية»، وهو القلب والجوارح.

وبالجملة: ينبغى لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجه قلبه الى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب الى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد الى صلاته، وكان هواه وقلبه الى الله، انصرف كيوم ولدته أمه»، وقال ﷺ: «أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟!». قيل: هذا نهى عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمته فى حال الصلاة، فان الملتفت يميناً وشمالاً غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار فى قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله - تعالى -، وعاين بسرك عظمة الله - عز وجل -، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله - تعالى -:

« هُنالِكَ تَبْلو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مَولاهُمُ الحَقِّ » (١) .

وقف على قدم الخوف والرجاء» (٢) .

فصل

(القيام)

وأما القيام ، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله - سبحانه - . فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مطوقاً متطأطاً متنكساً ، تنبيهاً للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار ، والتبرى عن التكبر والترؤس . وينبغي أن تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدى الله فى هول المطلع عند التعرض للسؤال ، وتذكر فى الحال أنك قائم بين يدى الله وهو مطلع عليك ، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله ، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك ، فقم بين يديه قيامك بين يدى ملك زمانك ، بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك ، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح ، فانه تهد عند ذلك أطرافك ، وتخشع جوارحك ، ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع . وبالجملة : الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال ، يقتضيها الطبع بين يدى من يعظم من ابناء الدنيا ، فكيف لا يقتضيها بين يدى ملك الملوك عند من يعرفه ؟ فمن يكون بين يدى غير الله خاشعاً ، ولا يكون بين يدى الله

---

(١) يونس ، الآية : ٣٠ .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

كذلك ، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره ، وعدم تدبره فى قوله - تعالى - :

« الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ »(١)

فتباً لمن يدعى معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه ، ومع ذلك يستحي من أحد عبيده المساكين الذى لا يقدر على نفع ولا ضر ، ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ، ولا يخشاه !

فصل

(التكبيرات)

وأما التوجه بالتكبيرات ، فينبغى أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله ، وصغر نفسك وذلتها فى جنب عظمته ، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته . واذا قلت : (اللهم إنك أنت الملك الحق) ، فتذكر عظيم ملكه ، وعموم قدرته ، واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار . وإذا قلت : (لبيك وسعديك ! والخير فى يديك ، والشر ليس اليك) ، مثل نفسك بين يديه ، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك ، يسمع نداءك ، ويجيب دعاءك ، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره ، وأنه خير محض منزه عن الشر . واذا قلت : (عبدك وابن عبديك ، منك وبك ولك واليك) ، فقد اعترفت له بالعبودية ، وبأنه ربك وخالقك ومالكك ، وموجدك ومخترعك ، وانت اثره وفعله ، ومنه وجودك ، وبه قوامك ، وله ملكك ، واليه معادك ، فانت منه . فلا يتركك ويرحمك ، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين

(١) الشعراء ، الآية : ٢١٨ - ٢١٩ .

يديه ، وكل امورك فى الدنيا والآخرة اليه ، ولا تعتمد فى مقاصدك إلا عليه ، فاحضر فى ذهنك فى هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التى ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، واحفظ نفسك عن الوقوع فى أودية الوساوس والهوى ، فتلق الفيض من العالم الأعلى .

فصل

(النية)

وأما النية ، فحقيقتها القصد الى الفعل ، امتثالا لأمر الله ، وطلباً لتقربه ، ورجاء لثوابه ، وخوفا من عقابه . فينبغى أن تجتهد فى خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوى فتفسد ، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة فى محلها . وينبغي أن تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك ، حيث اذنك فى المناجاة مع سوء أدبك ، وكثرة جناياتك ، وعظم فى نفسك قدر مناجاته . وانظر من تناجى ، وكيف تناجى ، وبماذا تناجى ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة ، وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف والخشية .

فصل

(تكبيرة الاحرام)

واذا كبرت تكبيرة الاحرام ، تذكر أن معناها : أنه ـ تعالى ـ اكبر من أن يوصف ، أو أكبر من كل شىء ، أو أكبر من أن يدرك بالحواس ، أو يقاس بالناس . فانتقل منه الى غاية عظمته وجلاله ، واستناد ما سواه اليه ، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم . وينبغى أن تكون

على يقين بذلك ، حتى لا يكذب لسانك قلبك ، فان كان فى قلبك شيء هو اكبر من الله - تعالى - عندك ، فالله يشهد أنك كاذب ، وان كان الكلام صدقا ، كما شهد على المنافقين فى قولهم : إن النبي رسول الله . وإن كان هواك اغلب عليك من امر الله - تعالى - ، وانت اطوع له منك لله ولأمره ، فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قولك (الله اكبر) كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر فى ذلك ، لو لا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه . قال الصادق ﷺ : « فاذا كبرت ، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه ، فان الله - تعالى - اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر ، وفى قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : يا كذاب أتخدعنى ؟! وعزتى وجلالى ! لأحرمنك حلاوة ذكرى ، ولأحجبنك عن قربى والمسرة بمناجاتى ! »(١) .

فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك ، فان كنت تجد حلاوتها وفى نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسرور بمناجاته ، وملتذ بمخاطباته ، فاعلم أنه - تعالى - قد صدقك فى تكبيرك ، وإن سلبت لذة المناجاة ، وحرمت حلاوة العبادة ، فاعلم أنه تعالى كذبك فى تكبيرك ، وطردك عن بابه ، وابعدك عن جنابه ، فابك على نفسك بكاء الثكلى ، وبادر الى العلاج قبل ان تدركك الحسرة العظمى .

فصل

(دعاء الاستفتاح)

وأما دعاء الاستفتاح ، فأول كلماته : (وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض) ، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ ،

الوجه الظاهر ، لأن الله سبحانه منزه عن الأمكنة والجهات حتى توجه اليه الوجه الظاهر . فانت تدعى فى هذا الكلام أن قلبك متوجه الى فاطر السماوات والأرض ، فاياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، إذ لو كان قلبك متوجهاً الى أمانيه، وهمه فى البيت والسوق ، أو واقعاً فى أودية الوساوس ، أو كان غافلا ، لم يكن مقبلا على الله متوجهاً اليه ، وكنت كاذبا فى أول مخاطبتك مع ربك . فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه فى هذا الوقت ، وإن عجزت عنه على الدوام ، لئلا تكون كاذبا فى أول كلامك . واذا قلت: (حنيفاً مسلماً)،فاخطر ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من يده ولسانه ، فإن لم تكن موصوفا بهذا الوصف ، كنت كاذبا ، فاجتهد أن تعزم عليه فى الاستقبال ، وأن تندم على ما سبق من الأحوال . واذا قلت : (وما أنا من المشركين)، فاخطر ببالك الشرك الخفى ، وكونه داخلا فى الشرك ، لاطلاق الشرك على القليل والكثير . فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله ، من مدح الناس وطلب المنزلة فى قلوبهم ، كنت مشركا كاذبا فى هذا الكلام . فانف هذا الشرك عن نفسك ، واستشعر الخجلة فى قلبك ، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به فى الواقع . واذا قلت : (محياى ومماتى لله رب العالمين) ، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيده ، فانٍ عن ذاته ، باق بربه ، بحيث لا يرى لذاته من حيث هى قدرة وقوة ، بل يعلم حياته وبقاءه من الله ـ تعالى ـ ، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى . فالقائل بهذا الكلام ، اذا رأى لنفسه من حيث هى قدرة وأثراً ، أو صدر عنه فعل : من الرضا ، أو الغضب ، أو القيام ، أو القعود ، أو الرغبة فى الحياة ، أو الرهبة من الموت لامور الدنيا ، كان كاذبا .

فصل

(الاستعاذة)

فاذا قلت : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ينبغى أن تعلم أن الشيطان اعدى عدوك ، مترصد لصرف قلبك عن الله ، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة . وينبغى ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول ، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله ، فقال : اعوذ منك بهذا الحصن الحصين ، وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن . فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان ، وما لم يأت بما يحبه الله . فمن اتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، لا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان ، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال : « لا إله إلا الله حصنى ، ومن دخل حصنى أمن من عذابى » . والدخول فى حصن (لا إله إلا الله) ليس ايضاً بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبى واليقين القطعى بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شىء منه وله وبه واليه ، ولا مؤثر فى الوجود إلا هو . فالمتحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله ، وأما من اتخذ إله هواه ، فهو فى ميدان الشيطان لا فى حصن الله . ومن مكائد اللعين أن يشغلك فى الصلاة بفكر الآخرة ، وتدبير فعل الخيرات ، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معانى القرآن والأذكار ، فهو وسواس ، إذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعانى . واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فانو به التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا

المسمى ، فمعناه : أن كل الأشياء والأمور بالله ، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله) ، إذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر إنما يكون على النعم ، فاذا كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصراً به ، فمن يرى نعمة من غير الله ، أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله ، فى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه . واذا قلت : (الرحمن الرحيم) ، فاحضر فى قلبك أنواع لطفه ، وضروب احسانه ، لتتضح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . واذا قلت : (مالك يوم الدين) ، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف ، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالكه . ثم جدد الاخلاص بقولك : (إياك نعبد) . وجدد العجز والافتقار والتبرى من الحول والقوة بقولك : (وإياك نستعين) ، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانته ، وأن له المنة ، إذ وفقك لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لمناجاته ، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ، واستحضر أن الاعانة لا تكون إلا منه ، ولا يقدر غيره أن يعين أحداً ، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى . واذا قلت : (إهدنا الصراط المستقيم) ، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك ، وهى الهداية الى النهج الحق الذى يسوقك الى جوار الله ، ويفضى بك الى مرضاته ، ويوصلك الى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين . واذا تلوت (الفاتحة) كذلك ، فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي ﷺ : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لى ، ونصفها لعبدى . يقول العبد : الحمد لله رب

العالمين ، فيقول الله - عز وجل - :حمدني عبدى وأثنى على . وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده . . . ، الى آخر الحديث . فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التلذذ بذكر الله فى جلاله وعظمته ، فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله . وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه وأخبار أنبيائه ، وذكر منته واحسانه ، فلكل واحد حق : فحق الأمر والنهي العزم ،وحق الوعد الرجاء ،وحق الوعيد الخوف ،وحق الموعظة الاتعاظ ، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنة الشكر ، وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات . فهذا حق القراءة ، وهو أيضاً حق الأذكار والتسبيحات . واعلم أن الناس فى القراءة ثلاثة : بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل . وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره ، وهو درجة اصحاب اليمين . وبعضهم يسبق قلبه الى المعانى أولا ، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون ألسنتهم ترجمان تتبع القلب . ثم ينبغى أن تراعى الهيئة فى القراءة ، فترتل ، ولا تسرد ولا تعجل ، فإن ذلك أيسر للتأمل ، وتفرق بين نغماته فى آية الرحمة والعذاب ، والوعد والوعيد ، والتمجيد والتعظيم ، كان بعضهم اذا مر بمثل قوله :

« ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ »(١) .

يغضّ صوته ، كالمستحيي عن أن يذكره بكل شيء . وروى : « أنه

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٩٢ .

يقال يوم القيامة لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية صعد درجة ».

فصل

(الركوع)

وأما الركوع ، فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله ، وترفع بذلك معظما له منبهاً على غاية عظمته وارتفاعه ، وكونه أرفع من أن تصل اليه أيدى العقول والأوهام ، ومستجيراً بعفوه من عقابه ، وتستأنف بهويّك للركوع ذلا وتواضعاً ، وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلّك وعزه ، وضعفك وقوته ، وعجزك وقدرته ، واتضاعك وعلوه ، وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك ، فتسبحه وتشهد له بالعظمة ، وأنه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله ، ثم ترفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك ، وتؤكد الرجاء فى نفسك بقولك : (سمع الله لمن حمده) : أى اجاب الله لمن شكره ، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد ، فتقول : (الحمد لله رب العالمين) ، ثم تزيد فى التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله ، فتقول : (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت) . روى (الصدوق) — رضوان الله عليه — عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنه سئل عن معنى مد العنق فى الركوع ، فقال عليه السلام : تأويله : آمنت بك ولو ضربت عنق » . وقال الصادق عليه السلام : « لا يركع عبدلله ركوعا على الحقيقة ، إلا زينه الله بنور بهائه ، وأظله فى ظل كبريائه ، وكساه كسوة أصفيائه . والركوع أول ، والسجود ثان . فمن أتى بمعنى الأول صلح للثانى . وفى الركوع أدب ، وفى السجود قرب ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب . فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه ، متذلل وجل

تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين ، (١) . وحكى : « أن ربيع بن خثيم ، كان يسهر بالليل الى الفجر فى ركعة واحدة ، فاذا هو اصبح ، تزفر وقال : آه ! سبق المخلصون وقطع بنا » . واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحط عن همتك فى القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه ، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده ، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ، ويهديهم الى اصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم .

فصل

(السجود)

وإذا هويت الى السجود ، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والإنكسار ، إذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فمكن أعز أعضائك ، وهو الوجه ، لأذل الأشياء ، وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزاً ، بل اسجد على الأرض ، لأنه أجلب للخضوع ، وأدل على الذل . فإذا وضعت نفسك موضع الذل ، والقيتها على التراب ، فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى أصله ، فانك من التراب خلقت ، واليه رددت . فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل : (سبحان ربى الأعلى وبحمده) ، وأكده بالتكرار ، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ، فإن رق قلبك ، وطهر لبك ، فليصدق رجاؤك فى رحمة ربك ، فإن رحمته تتسارع الى موضع الذل والضعف ، لا الى محل التكبر والبطر . فارفع رأسك مكبراً

(١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة) . وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٣٥٦ ، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة . وعلى (المستدرك) : ١ / ٣٢٥ ، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضاً .

ومستغفراً من ذنوبك ، وسائلاحاجتك ، ثم أكد التواضع بالتكرار ، وعد الى السجود ثانياً كذلك . وسئل مولانا أمير المؤمنين ﷺ عن معنى السجدة الأولى ، قال : « تأويلها : اللهم إنك منها خلقتنا » : يعنى من الأرض ، وتأويل رفع رأسك : « ومنها أخرجتنا » ، والسجدة الثانية : « واليها تعيدنا » ، ورفع رأسك : « ومنها تخرجنا تارة اخرى » . وقال مولانا الصادق ﷺ : « ما خسر والله - تعالى - قط من أتى بحقيقة السجود ، ولو كان فى العمر مرّة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه فى مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه ، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه فى السجود ، ولا قرب اليه أبداً من أساء أدبه ، وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه فى حال سجوده . فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق ، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكوّن ولم يكن ، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر والروح ، فمن قرب منه بعد من غيره ، ألا ترى فى الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتوارى عن جميع الأشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن . فمن كان قلبه متعلقاً فى صلاته بشىء دون الله تعالى ، فهو قريب من ذلك الشىء ، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه فى صلاته . قال الله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : ما اطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتى لوجهى وابتغاء مرضاتى ، إلا توليت تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل فى صلاته بغيرى فهو من المستهزئين بنفسه ،

واسمه مكتوب فى ديوان الخاسرين » (١) .

فصل

(التشهد)

إذا جلست للتشهد – بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة – فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلاً بوظائفه وشرائطه ، ولا مكتوباً فى ديوان القبول . فاجعل يدك صفراً من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الأمر ، وأصل الدين ، اعنى كلمة التوحيد ، وحصن الله الذى من دخله كان آمناً ، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره ، فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك ، واشهد له بالعبودية والرسالة ، وصل عليه وعلى آله ، مجدداً عهد الله باعادة كلمتى الشهادة ، متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل ، ومتوسلاً إلى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقباً بذلك عشراً من صلاته ﷺ عليك – كما ورد فى الخبر – ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت أبداً . قال الصادق عليه السلام : « التشهد ثناء على الله . فكن عبداً له فى السر ، خاضعاً له فى الفعل ، كما أنك عبد له فى القول والدعوى . وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك ، فإنه خلقك عبداً ، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك ، وتعلم أن نواصى الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته ، وهم عاجزون عن اتيان أقل شىء فى مملكته إلا باذنه

(١) صححنا الحديث على: الباب ١٦ من: (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٣٦٣ ، باب السجود وآدابه .

وارادته . قال الله عز وجل :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ » (١) .

فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرك ، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق ارادته ومشيته ، فاستعمل العبودية فى الرضا بحكمته ، وبالعبادة فى اداء أوامره ، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ ، فاوصل صلاته بصلاته ، وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته ، وأمره بالاستغفار لك ، والشفاعة فيك ، إن أتيت بالواجب فى الأمر والنهى والسنن والآداب ، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل ، (٢) .

فصل

(التسليم)

وإذا فرغت عن التشهد ، فاحضر بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة المقربين ، وبقية أنبياء الله وأئمته - عليهم السلام - والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك ، وأحضرهم جميعاً فى بالك . فسلم أولاً على نبيك الذى هو أفضل الكل ، وواسطة هدايتك وإيمانك ، بقولك : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) . ثم توجه الى الجميع ، وسلم عليهم بقولك :

---

(١) القصص ، الآية : ٦٨ .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٧ . وعلى (بحار الأنوار) : ١٨ / ٤٠٣ ، باب التشهد وأحكامه .

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب فى ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد ، لو لا فضل الله فى اجتزائه بذلك عن أصل الواجب ، وإن كان بعيداً عن درجات القبول ، منحطاً عن اوج القرب والوصول . وإن كنت إماماً لقوم ، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك ايضاً ، وإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الاكرام . قال الصادق عليه السلام : « معنى التسليم فى دبر كل صلاة : الأمان ، أى من أتى أمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله خاضعاً له خاشعاً منه ، فله الأمان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ، ليستعملوا معناه فى المعاملات والأمانات والإنصافات ، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فإن أردت أن تضع السلام موضعه ، وتؤدى معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألا تدنسها بظلمة المعاصى، ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك . فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب اليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم ، وكان كاذباً فى سلامه وإن أفشاه فى الخلق » (١) .

فصل

(افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه)

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات ، واخلاصها لوجه الله ، وادائها بالشروط الباطنة المذكورة ، من الحضور ، والخشوع ، والتعظيم ، والهيبة ،

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٨ / ١٤٤ .

والحياء : سبب لحصول أنوار فى القلب ، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وإنما يفيض منها على كل مصل على قدر صفائه من كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة ، والقوة والضعف ، والجلاء والخفاء ، ويختلف ايضاً بما ينكشف من العلوم ، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، ولبعضهم من عجائب أفعاله ، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، ولبعضهم غير ذلك ، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهمه ويكون فى طلبه. والى ما ذكرنا من ترتب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة ، أشار النبي ﷺ بقوله : « إن العبد إذا قام فى الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وان المصلى لينشر عليه البر من أعنان السماء الى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلى من يناجي ما التفت . وأن أبواب السماء تفتح للمصلين ، وان الله يباهى ملائكته بصدق المصلى » . فإن رفع الحجاب وفتح ابواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه . وورد فى التوراة : « يا ابن آدم ، لاتعجز أن تقوم بين يدى مصلياً باكياً ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى » . وورد : « أن العبد إذا صلى ركعتين ، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله به مائة الف » . وذلك لأن العبد جمع فى الصلاة بين القيام والقعود ، والركوع والسجود ، والذكر باللسان ، وغير ذلك . وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل ، بل هذه الأفعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لا يركعون الى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لا يرفعون الى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما اعطى الملائكة

من القرب والرتبة لازم لهم ،مستمر على حالة واحدة ، لاتزيد ولا تنقص ، وليس لهم مرتبة الترقى من درجة الى اخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ، ولذلك قالوا : « وما منا إلا له مقام معلوم » ، بخلاف الانسان ، فإن له الترقى فى الدرجات ، والتقلب فى أطوار الكمالات ، ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلاة ، قال الله سبحانه : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ، فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة ، وهى المقرونة بالخشوع ، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً ، فقال فى آخرها :

« وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » ، ثم قال فى ثمرة تلك الصفات : « أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١) .

فوصفهم بالفلاح أولاً ، وبوراثة الفردوس آخراً . فالمصلون هم ورثة الفردوس ، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب . وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح ، مع غفلة القلب ، لا تنتهى درجته الى هذا الحد .

فصل

(ما ينبغى فى إمام الجماعة)

ينبغى لإمام الجماعة : أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب ، واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة ، لأنه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما أقبح به أن يكون قلبه

(١) المؤمنون ، الآية : ٩ — ١١ .

غافلا عن الله ، أو واقعاً فى أودية الوساوس الباطلة فى الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظما لله سبحانه ، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه الى من وراءه من الناس الذين لايقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه الى مالك الملك المحيط بالكل ، الذى حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت ، أولا يستحيي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل ﷺ ، ويحل محل رسول الله ﷺ وأوصيائه الراشدين - عليهم السلام -، وينوب عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله ؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم ؟ فينبغى لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه ، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة ، فليؤم ، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه ، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بامامة غيره من أمثاله وأقرانه ، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة ، واحياء رسوم الملة ، فينبغى أن يكون فرحه بامامة غيره ممن هو مرضى ، والاهتمام به ، اكثر من إمامة نفسه ، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة ، وينبغى — أيضاً — ألا يكون باعثه ومحركه الى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب ، فلو كان فى بعض زوايا قلبه باعث خفى من حب الشهرة والمنزلة فى القلوب ، أو الوصول الى ما ينتظم به معاشه ، فله الويل والثبور ، ويكون ممن ضل وأضل وهلك وأهلك !

فصل

(ما ينبغى فى صلاة الجمعة والعيدين)

ينبغى للحاضر الى صلاة الجمعة والعيدين : أن يستحضر أن هذه الأيام

أيام شريفة عظيمة ، وأعياد مباركة كريمة ، قد خص الله بها هذه الأمة ، وجعلها أوقاتاً شريفة لعباده ، ليقربهم فيها من جواره ، ويبعدهم من عذابه وناره ، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال ، وتلافى ما فرط منهم فى بقية الأيام والشهور من الاعمال . فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات ، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والمثول فى حضرته ، والفوز بمخاطبته . فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة ، من التنظيف والتطييب ، والتعمم ، وحلق الرأس ، وقص الشارب والأظفار ، وغير ذلك من السنن ، فى تخليص النية ، واحضار القلب ، واكثار الخشوع ، والابتهال الى الله تعالى فى صلاته . وينبغى أن يحضر قلبه فى العيدين من قسمة الجوائز وتفرقه الرحمة ، وافاضة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما ، فليكبر فى صلاتهما وقبلها وبعدها فى قبول اعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد ، فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته ، فيفوز الفائزون ، ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون ، وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

(ما ينبغى للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات ، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ، ينبغى لكل مؤمن أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر ، وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ، فيكثر فى صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف ، فى النجاة من تلك الشدائد ورد

النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة ، وينبغي أن يكون منكسر النفس ، مطرق الرأس ، مستحيياً من التقصير ، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله . وبالجملة : حصول الخوف والخشية ، والمبادرة الى التضرع والابتهال ، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات ، من شعار أهل الايمان . قال سيد الساجدين ﷺ : « لا يفزع للآيتين ولا يرهب ، إلا من كان من شيعتنا ، فان كان ذلك منهما ، فافزعوا الى الله وراجعوه » . وقال الرضا ﷺ : « إنما جعلت للكسوف صلاة ، لأنه من آيات الله تعالى ، لا يدرى ألرحمة ظهرت أم لعذاب ، فاحب النبي ﷺ أن يفزع امته الى خالقه وراحمه عند ذلك ، ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروهها ، كما صرف عن قوم يونس ﷺ حين تضرعوا الى الله تعالى » .

المقصد الثالث

الذكر - فضيلة الاذكار - الدعاء

* * *

اعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء ، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة . وقد ورد في فضائلهما من الآيات والأخبار ما لا يمكن احصاؤه ، ولاشتهارها لا حاجة الى ذكرها هنا .

فصل

(الذكر)

أما الذكر ، فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في اكثر الأوقات ، مع حضور القلب ، وفراغ البال ، والتوجه الكلي الى الخالق المتعال ، حتى يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلى عظمته الباهرة عليه ،

وينشرح الصدر بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات . وللذكر أول وآخر ، فاوله يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجبه الأنس والحب ، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس . فان العبد فى بداءة الأمر يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول الى ذكر الله ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور . ومن أحب شيئاً أكثر ذكره ، ومن اكثر ذكر شيء ، وإن كان تكلفاً ، أحبه . ومن هنا قال بعضهم : « كابدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة » . ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة ، حتى يصير التكلف طبعاً . وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولا ، ويكابد اكله ، ويواظب عليه ، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه ؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت : « هى النفس ما عوّدتها تتعود » .

ثم اذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى الله يفارقه عند الموت ، ولا يبقى إلا ذكر الله ، فإن كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات فى الحياة تصد عن ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذى كان ممنوعا فيه عما به انسه، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته الى أن ينزل فى جوار الله ، ويترقى من الذكر الى اللقاء ، قال الصادق ﷺ : « من كان ذاكراً الله على الحقيقة فهو مطيع ، ومن كان غافلا عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية علامة الضلالة ، واصلهما من الذكر والغفلة ، فاجعل قلبك قبلة للسانك ، ولا تحركه إلا باشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان ، فإن الله

تعالى عالم بسرك وجهرك ، وكن كالنازع روحه ، أو كالواقف فى العرض الأكبر ، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك فى أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك ، واغسل قلبك بماء الحزن ، واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك ، فإنه ذكرك وهو غنى عنك ، فذكره لك أجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق ، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت فى جنب منته ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له ، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة فى خلقه ، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً ، ولا تستجلب به على مضى الأيام إلا وحشة . والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك ينفى ذكر غيره ، كما قال رسول الله ﷺ : (انا لا احصى ثناء عليك ، انت كما أثنيت على نفسك) . فرسول الله ﷺ لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، ومن دونه أولى ، فمن أراد أن يذكر الله تعالى ، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره ، لا يقدر العبد على ذكره »(١) .

تتميم

(فضيلة الأذكار)

الأذكار كثيرة ، كالتهليل ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ،

---

(١) الحديث مذكور فى (مصباح الشريعة) : الباب ٥ / ١٣٦ . وفى (المستدرك) : ١ / ٤٠١ ، كتاب الصلاة ، ابواب الذكر . وفى للوضعين اختلاف يسير ، فصححناه على (مصباح الشريعة) ، للوضع المذكور .

والحوقلة ، والتسبيحات الأربع ، وأسماء الله الحسنى ، وغير ذلك . وقد وردت فى فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر ، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال ، فهى أفضل . ولذا صرحوا بأن افضل الاذكار التهليل ، لدلالته على توحده فى الالوهية ، واستناد الكل اليه . وربما كان بعض اسماء الله تعالى فى مرتبته أدل ، والعارف السالك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث فى القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم .

فصل

(الدعاء)

وأما الدعاء ، فهو مخ العبادة ، ولذا ورد فى فضله ما ورد من الآيات والأخبار ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة فى كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها .

ومما ينبغى لكل داع ، أن يراعى شرائط وآدابا فى الدعاء ، حتى يستجاب له ، ويصل الى فائدته ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهى أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، والأحوال الشريفة ، والأماكن المتبركة المشرفة ، وأن يدعو متطهراً ، مستقبل القبلة ، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطيه ، وأن يخفض صوته بين الجهر والإخفات ، ولا يتكلف السجع فى الدعاء ، ويكون فى غاية التضرع والخشوع والرهبة ، وأن يجزم ويتيقن اجابة دعائه ، ويصدق رجاءه فيه ، وأن يلح فى الدعاء ، ويكرره ثلاثاً ، ويفتتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتدىء بالسؤال ، وأن يتوب ، ويرد مظالم العباد ، ويقبل على الله بكنه الهمة ، وهو السبب القريب للاجابة ، وأن

يكون مطعمه وملبسه من الحلال ، وهو أيضاً من عمدة الشرائط ، وأن يسمى حاجته ، ويعم فى الدعاء ، ويبكى عنده ، وهو أيضاً سيد الآداب ، وأن يتقدم فى الدعاء قبل الحاجة اليه ، وألا يعتمد فى حوائجه على غير الله تعالى ، قال الصادق ﷺ : « احفظ ادب الدعاء ، وانظر من تدعو ، وكيف تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبرياءه ، وعاين بقلبك علمه بما فى ضميرك ، واطلاعه على سرك وما تكنّ فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك ، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك ، قال الله تعالى :

(وَيَدْعُو الإِنسانُ بالشرِّ دُعاءَه بالخيرِ وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً)(١) .

وتفكر ماذا تسأل ، ولماذا تسأل . والدعاء استجابة الكل منك للحق ، وتذويب المهجة فى مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً ، وتسليم الأمور كلها — ظاهرها وباطنها — الى الله تعالى ، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر واخفى ، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك . واعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء ، لكننا اذا اخلصنا الدعاء ، تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط الدعاء ، وسئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم . فقال : (كل اسم من اسماء الله اعظم) . ففرغ قلبك عن كل ما سواه ، وادعه باى اسم شئت ، فليس فى الحقيقة لله اسم دون ، بل هو الله الواحد القهار . وقال النبي ﷺ : (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه) . فاذا اتيت بما ذكرت لك من

(١) الأسراء ، الآية : ١١ ،

شرائط الدعاء ، واخلصت سرك لوجهه ، فابشر باحدى ثلاث : إما أن يعجل لك بما سألت ، وإما أن يدخرلك بما هو أفضل منه ، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت » (١) . وسئل من الصادق ﷺ : ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا ؟ فقال : « لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون من لا تفهمونه ، فالاضطرار عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان ، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله ، حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى » .

المقصد الرابع
(تلاوة القرآن)

اعلم أنه لا حد لثواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة فى عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة ، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله ، حامله روح الأمين الى سيد المرسلين ، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة ، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام ، ومخبراً عن دقائق صنع الله ، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة فى سوالف القرون والأعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس ؟ . وبالجملة : العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة فيه مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة .

---

(١) الحديث مذكور فى (مصباح الشريعة) : الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦ . وفيه اختلاف كثير عما هنا ، فصححناه على (المصباح) ، الموضع المذكور .

أما الآداب الظاهرة ، فالوضوء ، والوقوف على هيئة الأدب ، والطمأنينة ، إما قائماً أو جالساً ، مستقبل القبلة ، مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكىء ، والترتيل والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء . وإلا فالسر أفضل ، وتحسين القراءة وتزيينها ، ومراعاة حق الآيات ، فإذا مر بآية السجود سجد ، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله ، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى أن يرزقه ، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر ، وافتتاح القراءة بقوله : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة : (صدق الله العلى العظيم وبلغ رسوله الكريم ، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين) .

وأما الآداب والأعمال الباطنة :

فنها — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه ، فى نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه : فلينظر كيف لطف بخلقه فى ايصال معانى كلامه الذى هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة فى طى حروف وأصوات هى صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه ، ولو لا استتاركنه جمال كلامه بكسوة الحروف ، لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى ، ولا شىء ما بينهما ، من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولولا تثبيت الله موسى ﷺ لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكاً ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق ، ولهذا عبر عنه بعض العارفين ، فقال : « إن كل حرف من كلام الله فى اللوح أعظم من جبل قاف ، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما اطاقوه ،

حتى يأتى اسرافيل . وهو ملك اللوح ، فيرفعه . فنقله باذن الله ورحمته ، لا بقوته وطاقته ، . وايصال معانى الكلام مع علوّ درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته ، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور . فإن الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها ، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه ، فينزل الى درجة تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لائقة بها : من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها ، يطيقون حملها . وكذلك الناس ، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته ، فتنزل من عرش العظمة والجلال الى درجة أفهامهم ، فتجلى فى مظاهر الأصوات والحروف ، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه . فكما أن بدن البشر يكرّم ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التى فيها . والكلام عالى المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم فى الحق والباطل ، وهو القاضى العادل ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة ، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به ابصارهم ويستدلون به على حوائجهم . فالكلام كالملك المحجوب ، الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ، ودواء الأسقام الذى من سق منه لم يسقم .

ومنها — تعظيم المتكلم : فينبغى للقارىء عند الابتداء بالتلاوة ، أن يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أنه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام

خالق الشمس والقمر ، وفى تلاوة كلامه غاية الخطر ، إذ كما لا ينبغى أن تمسّ جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث ، فكذلك لا ينبغى أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات ، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الأخلاق والصفات ، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد ، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس ، إلا إذا كان متطهراً ، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب ، إلا اذا كانت منقطعة عن كل رجس ، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير . وبالجملة : ينبغى ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ، ليتحقق تعظيم الكلام ايضاً ، اذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه ، فليرجع الى التفكر فى صفاته وافعاله ، ويستحضر أن المتكلم هو الذى أوجد وأظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه ، من العرش والكرسى والسماوات والأرضين ، وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وأنه الخالق والرازق للجميع ، والكل فى قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته . وجميع ذلك لا نسبة له الى عوالم المجردات . فالتفكر فى أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام . ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشى عليه ، ويقول : (هو كلام ربى ، هو كلام ربى !) .

ومنها — الخضوع والرقة : قال الصادق ﷺ : « من قرأ القرآن ، ولم يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشىء حزناً ووجلاً فى سرّه ، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى ، وخسر خسراناً مبيناً ، فقارىء القرآن محتاج الى ثلاثة اشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال . فإذا خشع لله قلبه فرّ منه

الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (١) .

فاذا تفرغ نفسه من الأسباب ، تجرد قلبه للقراءة ، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده . فإذا اتخذ مجلساً خالياً ، واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس روحه وسرّه بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم ، بفنون كراماته ، وبدائع اشاراته ، فإن شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ ، لا يختار على ذلك الحال حالاً ، ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأنّ فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة . فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) .

فرتله ترتيلا ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر فى أمثاله ومواعظه ، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه فى إضاعة حدوده ، (٣) .

ومنها — حضور القلب ، وترك حديث النفس : وهو يترتب على التعظيم ، فإن من يعظم شيئاً ، كلاماً كان أو غيره ، يستبشر ويستأنس

(١) النحل ، الآية : ٩٨ .

(٢) فصلت ، الآية : ٤١ — ٤٢ .

(٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٤/ ١٤٢ .

به ، ولا يغفل عنه . ولا ريب فى أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب ، وتفرح به النفس ، ان كان التالى أهلاً له .

ومنها — التدبر : وهو زائد على حضور القلب ، اذ التالى ربما لم يتفكر فى غير القرآن ، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه ، من دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه فى الباطن ، قال الله سبحانه :

« أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفالُها » (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا خير فى عبادة لا فقه فيها ، ولا فى قراءة لا تدبر فيها » . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد ، فليردد . ولذلك كان الأكابر كثيراً ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها ، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم : « لى فى كل جمعة ختمة ، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة ، ولى ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد ! » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه .

ومنها — التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر الجنة والنار ، وأحوال النشأة الآخرة ، وذكر أحوال انبيائه ، وأحوال المكذبين ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك . فإن مر بآيات صفاته تعالى ، كقوله :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ » (٢).

(١) محمد — صلى الله عليه وآله — ، الآية : ٢٤ .

(٢) الشورى ، الآية : ١١ .

وكقوله تعالى : « المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ ... » الى آخر الآية (١) ، وغير ذلك .

فليتأمل فى معانى هذه الأسماء والصفات ، لتنكشف له أسرارها المكنونة تحتها ، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا المؤيدين فى فهم كتاب الله . قال أمير المؤمنين ﷺ : « ما أسره الي رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس ، إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً فى كتابه » . وإن من بآيات الأفعال ، أى الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض ، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك ، فليفهم التالى منها عظمة الله وجلاله . إذ الفعل يدل على الفاعل ، فعظمته تدل على عظمته . وينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ، إذ من عرف الحق رآه فى كل شيء ، إذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل فى وحده ، ومن لا يراه فى كل مايراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وإن اعتبر من حيث هو ، إذ مع قطع النظر عن الواجب وايجاده ، لا ذات ولا وجود ، بل محض العدم وعدم المحض . فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلى العظيم . فإذا قرأ التالى آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله ، فليتأمل فى تلك العجائب ، ثم يترقى منها الى أعجب العجائب ، وهى الصفة التى صدرت منها هذه الأعاجيب . وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة ، فليتذكر أن ما فى هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له الى ما فى عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك

(١) الحشر ، الآية : ٢٣ .

الى عظمة الله تعالى ، وينقطع اليه باطناً ، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ، ويوصله الى نعيمها ولذاتها . وإذا سمع أحوال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم ، فليفهم منه صفة الإستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر فى ملكه ، وإذا سمع نصرتهم فى الأمر ، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين ، وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال ، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته ، ويعتبر فى نفسه ، ويعلم أنه غفل وأساء الأدب ، واغتر بما امهل ، فربما تدركه النقمة . وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن ، لأنه لا نهاية له ، إذ (لا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

« قُلْ لَوْ كانَ البَحرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ أنْ تَنفَدَ كَلِماتُ رَبّي » (١) .

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه .

ومنها ــ التخلى عن موانع الفهم : وهى التقليد والتعصب لمذهب ، فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها ، والجمود على تفسير ظاهر ، ظاناً ان غيره تفسير بالرأى لا يجوز ارتكابه ، وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة بين القراء ، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعانى ، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه ، وإشراق المعارف الحقة عليه . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ :

---

(١) الكهف ، الآية : ١١٠ .

«اذا عظمت امتي الدينار والدرهم ، نزع منها هيبة الاسلام ، واذا تركوا الأمر بالمعروف ، حرموا بركة الوحي» . وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر ، قال الله تعالى :

« تَبصِرَةً وذِكرى لِكُلِّ عَبدٍ مُنيبٍ » (١) . وقال تعالى : « وَما يَتَذَكَّرُ إلاّ مَن يُنيبُ » (٢) . وقال تعالى :

« إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألبابِ » (٣) .

ومنها — التخصيص : وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن ، من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، حتى أنه لو سمع قصص الأولين ، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتسمر . فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته ، ولذلك قال سبحانه :

« ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ » (٤)

فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة ، ونور وموعظة وبصائر للعالمين . فكل احد اذا قرأه ينبغي أن تكون قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . قال بعض الأكابر : «هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، فنتدبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات» .

ومنها — التأثر : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال : من الخوف ، والحزن ، والوجل ،

---

(١) ق ، الآية : ٨ .
(٢) المؤمن ، الآية : ١٣ .
(٣) الرعد ، الآية : ٢١ . الزمر ، الآية : ٩ .
(٤) هود ، الآية : ١٢٠ .

والوجد ، والفرح ، والارتياح ، والرجاء ، والقبض ، والانبساط . فاذا سمع الوعيد ، فليضطرب قلبه ، ويتضاءل من الخوف كأنه يموت ، وإن سمع وسعة الرحمة ووعد المغفرة ، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج ، واذا سمع وصف الجنة ، فلينبعث باطنه شوقا اليها ، واذا سمع وصف النار ، فلترتعد فرائصه خوفا منها ، واذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله ، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه ، واذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله ، فليغض صوته وينكسر فى باطنه حياء من قبح مقالتهم . . . وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة ، كانت الخشية اغلب الأحوال على القلب ، اذ التضيق غالب على آيات القرآن ، إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها، ولذلك كان فى الخائفين من يصير مغشياً عليه عند استماع آيات الوعيد ، ومنهم من مات بمجرد استماعها . وبالجملة : المقصود الأصلى من القرآن ، استجلاب هذه الأحوال الى القلب والعمل به ، وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة . وحق تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب . فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل إدراك المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة . فاللسان واعظ القلب ، والعقل مترجم ، والقلب متعظ .

ومنها — الترقى: وهو أن يترقى الى أن يسمع الكلام من الله تعالى ، لا من نفسه . فدرجات القراءة ثلاث : الأولى : وهى ادناها ، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه ، وهو ناظر اليه ومستمع منه ، فتكون حاله — على هذا التقدير — التملق والسؤال والتضرع والابتهال . الثانية : أن يشهد بقلبه ، كأن ربه يخاطبه بألطافه ، ويناجيه باحسانه

وإنعامه ، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والإصغاء . الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم ، وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه والى تلاوته ، ولا الى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على التكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره . وهذه درجة المقربين والصديقين ، وما قبله من درجات أصحاب اليمين . وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين . وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء — أرواحنا فداه — حيث قال ﷺ : « الذى تجلى لعباده فى كتابه ، بل فى كل شىء ، وأراهم نفسه فى خطابه ، بل فى كل نور » . وأشار اليها الإمام ابو عبد الله الصادق ﷺ حيث قال : « والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ! ولكن لا يبصرون » . وروى : « أنه لحقته حالة فى الصلاة ، حتى خر مغشياً عليه ، فلما سرى عنه ، قيل له فى ذلك ، فقال ﷺ : ما زلت أردد الآية على قلبى ، حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته » . وفى مثل هذه الدرجة تشتد البهجة ، وتعظم الحلاوة واللذة . ولذلك قال بعض الحكماء : « كنت اقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأنى أسمعه عن رسول الله ﷺ يتلوه على اصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه ، فكنت اتلوه كأنى اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله ﷺ ، فعندها وجدت لذة ونعيما لا اصبر عنه » . وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب ، لم تشبع من قراءة القرآن » . وذلك لأنها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم فى الكلام ، بل التوحيد الخالص للعبد ، ألا يرى فى كل شىء إلا الله ، إذ لو رأى غيره ، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه ، كان مشركا بالشرك الخفى .

ومنها — التبرى : وهو أن يتبرى من حوله وقوته ، ولا يلتفت

الى نفسه بعين الرضا والتزكية . فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار ، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها فى زمرتهم ، بل يشهد أهل الصدق واليقين ، ويتشوق الى أن يلحقه الله بهم . وإذا قرأ آيات المقت والوعيد ، وذم العصاة والمقصرين ، شهد نفسه هناك ، وقدر أنه المخاطب خوفا واشفاقا . والى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين ﷺ ، حيث قال فى وصف المتقين : « واذا مروا بآية فيها تخويف ، أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم فى آذانهم ». فاذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير فى القراءة ، كانت رؤيته سبب قربه . فإن من شهد البعد فى القرب ، لطف له بالخوف ، حتى يسوقه الى درجة اخرى فى القرب وراءها ، ومن شهد القرب فى البعد ، مكر به بالأمن الذى يفضيه الى درجة اخرى فى البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا ، صار محجوبا بنفسه . فاذا جاوز حد الالتفات الى نفسه ، ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته ، كشف له سر الملكوت بحسب احواله ، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، ويغلب على حاله الاستبشار ، وتنكشف له صورة الجنة ، فيشاهدها كأنه يراها عيانا ، وإن غلب عليه الخوف ، كوشف بالنار ، حتى يرى أنواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والمخوف ، وذلك بحسب أوصافه ، إذ منهـــا الرحمة واللطف .

ومنها — القهر والبطش والانتقام : فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب فى اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً ، إذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ،

وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالى ، وكلام منان متعطف لا يهمل .

المقصد الخامس

(الصوم)

اعلم أن الصوم اجره عظيم ، وثوابه جسيم ، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى ، وهى معروفة مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى ما يتعلق به من الأمور الباطنة :

فصل

(ما ينبغى للصائم)

ينبغى للصائم أن يغض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه ، أو يكره ، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة ، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه ، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المكاره . وقد ورد فى اشتراط جميع ذلك فى الصوم فى ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة . وينبغى أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء ، إذ ما من وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال ، كيف والسر فى شرع الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة والهوى ، لتتقوى النفس على التقوى ، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ، وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الإفطار مافاته ضحوة نهاره ، لا سيما اذا زيد عليه فى ألوان الطعام ، كما استمرت العادات فى هذه الأعصار ، وربما يؤكل من الأطعمة فى شهر رمضان ما لا يؤكل فى عدة شهور . ولاريب فى أن المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى العشاء ، حتى

هاجت شهوتها وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ماكان يأكل ضحوة الى ما يأكل ليلا ، واكل الجميع فى الليل مرة أو مرتين أو أكثر ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها ، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم ، أعنى تضعيف القوى الشهوية التى هى وسائل الشيطان ، فلا بد من التقليل ، وهو ان يأكل فى مجموع الليلة أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، من دون ضم مما يأكل فى النهار اليه ، حتى ينتفع بصومه . والحاصل : أن روح الصوم وسره ، والغرض الأصلى منه : التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى ، أعنى الصمدية ، والإقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله فى غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء ، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر ، من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء ، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات ، فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل فى الأكل .

فصل

(ما ينبغى للصائم عند الافطار)

ينبغى لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطربا ، معلقاً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها . روى : «ان الامام ابا محمد الحسن المجتبى عليه السلام مر بقوم يوم العيد، وهم يضحكون، فقال عليه السلام : إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه . يستبقون فيه لطاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل

العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه المسارعون ، وخاب فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لا شتغل المحسن باحسانه ، والمسيء عن إساءته ! » ، أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك .

فصل

(درجات الصوم)

للصوم ثلاث درجات :

الأولى — صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب .

الثانية — صوم الخصوص : وهو الكف المذكور ، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصى ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع .

الثالثة — صوم خصوص الخصوص : وهو الكفان المذكوران ، مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأخلاق الردية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سواه بالكلية ، ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فى ما سوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم إقبال بكنه الهمة على الله ، وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » ، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين ، ويترتب عليه الوصول الى المشاهدة واللقاء ، والفوز بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب احد . والى هذا الصوم أشار مولانا الصادق عليه السلام حيث قال : « قال النبي صلى الله عليه وآله : الصوم جنة . أى ستر من آفات الدنيا وحجاب من

عذاب الآخرة ، فاذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات ، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين ، وأنزل نفسك منزلة المرضى ، ولا تشتهي طعاماً ولا شرابا ، وتوقع فى كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله . قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : الصوم لى وأنا اجزى به . والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء ، وحبل الإلتجاء الى الله ، وسبب انكسار الهمة ، وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات . وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد ، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله » (١) .

تتميم

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقربا اليه ، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصى والآثام ، واجتنب عن الحرام ، ولم يأكل إلا الحلال ، ولم يفرط فى الأكل ، وواظب على جملة من النوافل والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه ، استحق المغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة ، بمقتضى الأخبار المتواترة . ثم إن كان من العوام ، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وإن كان من أهل المعرفة ، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه ، فينكشف له شىء من الملكوت ، لا سيما فى ليلة القدر ، إذ هى الليلة التى تنكشف فيها الأسرار ، وتفيض على

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢٠ . وعلى (المستدرك) : ١ / ٥٨٩ - ٥٩٠ ، كتاب الصوم .

القلوب الطاهرة الأنوار ، والمناط والعمدة فى نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحس ألم الجوع ، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام ، فهو محجوب عن عوالم الأنوار .ويستحيل أن ينكشف له شىء من الأسرار .

المقصد السادس

(الحج)

اعلم أن الحج أعظم اركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو أهم التكاليف الإلهية واثقلها ، وأصعب العبادات البدنية وافضلها ، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين ، ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الخسران المبين . والأخبار التى وردت فى فضيلته وفى ذم تاركه كثيرة مذكورة فى كتب الأخبار ، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء ، فلنشر الى الأسرار الخفية ، والأعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة ، التى يبحث عنها أرباب القلوب :

فصل

(الغرض من ايجاد الانسان)

إعلم أن الغرض الأصلى من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها . فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً ، كان انسها وحبها بالله أشد وأكثر . وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، والإنقطاع عن الحطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله فى الأعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه . ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور ، إذ بعضها

إنفاق المال وبذله ، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيوية ، كالزكاة والخمس والصدقات ، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات ، كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها ، كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة ، إذ فيه هجران أوطان ، وإتعاب ابدان ، وانفاق اموال ، وانقطاع آمال ، وتحمل مشاق ، وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ، ويتحقق فى أعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات ، مع كون أعماله اموراً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدى الى معانيها العقول ، كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن سائر العبادات اعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل ، فللنفس اليها ميل ، وللطبع بها انس .

وأما بعض أعمال الحج ، كرمى الجمار وترددات السعى ، فلا حظ للنفس ولا انس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث إنه امر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه ، فإن كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال ، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال النبى ﷺ فى الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقا ! » ، ولم يقل ذلك فى غيره من العبادات . فمثل هذه العبادة — أى ما لم يهتد العقل الى معناه ووجهه — أبلغ انواع العبادات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغى الى الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل باسرار التعبدات ، وهذا هو السر فى وضع الحج ،

مع دلالة كل عمل من اعماله على بعض أحوال الآخرة ، أو فى بعض أسرار أخر — كما يأتى — ما فيه من اجتماع أهل العالم فى موضع تكرر فيه نزول الوحى ، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم ، ومن قبله على خليله المعظم — عليهما أفضل الصلاة — ، بل لايزال مرجعاً ومنزلا لجميع الأنبياء ، من آدم الى خاتم ، ومهبطاً للوحى ، ومحلا لنزول طوائف الملائكة . وقد تولد فيه سيد الرسل ﷺ وتوطأت أكثر مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء ، ولذلك سمى بـ (البيت العتيق) ، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حواليه حرما لبيته ، وتفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك ، فقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثاء غبراء ، متواضعين لرب البيت ، ومستكنين له ، خضوعا لجلاله ، واستكانة لعزته وعظمته ، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد .

ولا ريب فى أن الاجتماع فى مثل هذا الموضع ، مع ما فيه من حصول الموالفة والمصاحبة ، ومجاورة الأبدال والأوتاد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد ، وتظاهر الهمم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة ، بذكر النبى ﷺ واجلاله ، ونزول الوحى عليه ، وغاية سعيه واهتمامه فى إعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ، فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس . ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة ، جعل بمنزلة الرهبانية فى الملل السالفة ، فان الامم الماضية اذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف واشقها على النفس ، انفردوا عن الخلق ،

وانحازوا الى قلل الجبال ، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ، والتجرد له فى جميع الحركات والسكنات ، فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا انفسهم الرياضات الشاقة ، طمعاً فى الآخرة ، وقد اثنى الله عليهم فى كتابه ، وقال :

« ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ » (١). وقال تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » (٢) .

ولما اندرس ذلك ، واقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها ، بعث الله تعالى من سرة البطحا محمداً ﷺ ، لاحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها ، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياحة فى دينه ، فقال ﷺ : « ابدلنا بالرهبانية الجهاد ، والتكبير على كل شرف — يعنى الحج — ، وابدلنا بالسياحة الصوم » . فانعم الله على هذه الأمة ، بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات فى الملل السابقة .

فصل

(ما ينبغى فى الحاج)

ينبغى للحاج ، عند توجهه الى الحج ، مراعات امور :

الأول — أن يجرّد نيته لله ، بحيث لا يشوبها شىء من الأغراض الدنيوية ، ولا يكون باعثه على التوجه الى الحج إلاّ امتثال أمر الله ، ونيل

(١) المائدة ، الآية : ٨٥ .　(٢) الحديد ، الآية : ٢٧ .

ثوابه ، والإستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر ، مكنون فى بعض زوايا قلبه ، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لو لا يحج ، أو الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج ، لما اشتهر من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والإدبار) ، أو قصد التجارة أو شغل آخر ، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود ، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التى يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد ، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة ، فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة ، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلاّ الخالص ، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره ، فليصحح فى نفسه العزم ، وتصحيحه باخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة .

الثانى — أن يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويردّ المظالم ، ويقطع علاقة قلبه عن الإلتفات الى ما وراءه ، ليكون متوجهاً الى الله بوجه قلبه ، ويقدر أنه لا يعود ، وليكتب وصيته لأهله وأولاده ، ويتهيأ لسفر الآخرة ، فإن ذلك بين يديه على قرب ، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر ، فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغى أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة .

الثالث — أن يعظم فى نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان ، وفارق الأحبة والبلدان ، للعزم على أمر رفيع شأنه ، خطير أمره : اعنى زيارة بيت الله الذى جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لا يضاهى أسفار الدنيا . فليحضر فى قلبه ما ذا يريد ، وأين يتوجه ، وزيارة من

يقصد ، وأنه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه ، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا ، ودعوا فقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه ، تسلياً بلقاء البيت عن لقاء صاحبه ، الى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظماً لهما ، ناوياً إن لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافداً اليه بمقتضى وعده .

الرابع — أن يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب ، ويفرق الهم في الطريق ، أو المقصود ، من معاملة أو مثلها ، حتى يكون الهم مجرداً لله ، والقلب مطمئناً منصرفاً الى ذكر الله وتعظيم شعائره ، متذكراً عندكل حركة وسكون أمراً اخروياً يناسبه .

الخامس — أن يكون زاده حلالاً ، ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يغتم ببذله وإنفاقه ، بل كان طيب النفس به ، إذ انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله ، والدرهم منه بسبعمائة درهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر » . وكان السجاد عليه السلام إذا سافر الى الحج ، يتزود من أطيب الزاد ، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى . وقال الصادق عليه السلام : « إذا سافرتم ، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها » . وفي رواية : « أنه يكره ذلك في زيارة الحسين عليه السلام » . نعم ينبغي أن يكون الإنفاق على الإقتصاد من دون تقتير ولا إسراف ، والمراد بالإسراف التنعم بأطائب الأطعمة ، والترفه بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين ، وأما كثرة البذل على المستحقين ، فلا إسراف فيه ، إذ لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير . وينبغي — ايضاً — أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن ، لأن ذلك من دلائل

قبول حجه ، فإن ذهاب المال فى طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة فى سبيل الله ، فالمصيبة فى طريق الحج بمثابة الشدائد فى طريق الجهاد ، فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عندالله .

السادس — أن يحسن خلقه ، ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب سوء الخلق والغلظة فى الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله ، والجدال هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق . قال رسول الله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، فقيل : يا رسول الله ، ما بر الحج ؟ قال : « طيب الكلام وإطعام الطعام » . فلا ينبغي أن يكون كثير الإعتراض على رفيقه وجماله ، وعلى غيرهما من اصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين الى بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى ، بل احتمال الأذى ، وقيل : سمي السفر سفراً ، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال .

السابع — أن يكون أشعث أغبر ، غير متزين ولا مائل الى اسباب التفاخر والتكاثر ، فيكتب فى المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين ، ويمشي إن قدر ، خصوصاً بين المشاعر . وفى الخبر : « ما عبد الله بشيء أفضل من المشي » . وينبغي ألا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة ، بل التعب والرياضة فى سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار ، فالركوب أفضل . وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشي ، وساء خلقه ، وقصر فى العمل ، ففي الخبر : « تركبون أحب إلي ، فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة » . وكان الحسن بن علي — عليهما السلام — يمشي وتساق معه المحامل والرحال .

وإذا حضرت الراحلة ليركبها ، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب ، لتتحمل عنه الأذى ، وتخفف عنه المشقة . وينبغي أن يرفق بها ، فلا يحملها ما لا تطيق .

فصل

(الميقات)

إذا خرج عن وطنه ، ودخل الى البادية ، متوجهاً الى الميقات ، وشاهد العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة ،وما بينهما من الاهوال والمطالبات،وليتذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير،ومن سباع البوادى وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن إنفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته ، وليكن فى هذه المخاوف فى أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

فصل

(ما ينبغي فى الميقات)

إذا دخل الميقات ، ولبس ثوبى الإحرام ، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه ، وأنه سيلقى الله ملفوفاً فى ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزى يخالف عادته ، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا فى زى يخالف زى الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب ، إذ ليس مخيطاً ،كما أن الكفن أيضاً ليس مخيطاً. واذا أحرم وتلبى،فليعلم أن الإحرام والتلبية اجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولاً،وليخش أن يكون مردوداً، فيقال: لا لبيك ولا سعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً ، وعن حوله وقوته متبرأ ، وعلى فضل الله وكرمه متكلاً . فان وقت التلبية هو

بداية الأمر ، وهو محل الخطر . وقد روى : « أن علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ لما أحرم ، واستوت به راحلته ، اصفر لونه وانتقص ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبي . فقيل له : لم لا تلبي ؟ فقال : أخشى ان يقول ربي : لا لبيك ولا سعديك ! فلما لبى غشى عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه » . فليتذكر الملبي عند رفع الأصوات فى الميقات خائفاً راجياً ، أنه إجابة لنداء الله تعالى ، إذ قال تعالى :

« وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً » (١)

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم فى عرصات القيامة لنداء الله ، ومنقسمين الى مقربين ومبعدين ، ومقبولين ومردودين ، ومرددين فى اول الأمر بين الخوف والرجاء ، مثل تردد الحاج فى الميقات ، حيث لايدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا .

فصل

(ما ينبغي عند دخول مكة)

ينبغي أن يتذكر عند دخول مكة : أنه قد انتهى الى حرم من دخله كان آمناً ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلاً للقرب والقبول ، فيكون بدخول الحرم خائباً مستحقاً للمقت ، وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات غالباً ، إذ شرف البيت عظيم ، ورب البيت كريم ، والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائذ المستجير غير مردود . وإذا وقع البصر على البيت ، فليحضر فى قلبه عظمته ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه ،

(١) الحج ، الآية : ٢٧ .

وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته ، وليشكر الله على تبليغه اياه الى بيته ، والحاقه إياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم الى مأذونين فى الدخول ومصروفين عنها ، إنقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .

فصل

(ما ينبغى عند الطواف)

وينبغى عند الطواف أن يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ، ويعلم إنه فى الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم إن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت ، دون مجرد طواف جسمه بالبيت ، فليبتدىء الذكر به ويختم به ، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت . فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، والبيت مثال ظاهر فى عالم الشهادة لتلك الحضرة التى لا تشاهد بالبصر ، وهو عالم الغيب وعالم الملك الشهادة ، مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب . وما ورد من ان البيت المعمور فى السماوات بإزاء الكعبة ، وان طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت ، ربما كان اشارة الى ما ذكرناه من المماثلة ، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف ، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان ، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

(ما ينبغى عند إستلام الحجر)

ينبغى أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود ، أنه بمنزلة يمين الله فى أرضه ، وفيه مواثيق العباد . قال رسول الله ﷺ : « استلموا الركن ، فإنه

يمين الله فى خلقه ، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل ، ويشهد لمن استلمه بالموافاة » ، ومراده ﷺ بالركن : الحجر الأسود ، لأنه موضوع فيه ، وإنما شبه باليمين لأنه واسطة بين الله وبين عباده فى النيل والوصول والتحبب والرضا ، كاليمين حين التصافح . وقال الصادق ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد ، أمر الحجر فالتقمها ، فلذلك يقال : أمانتى اديتها ، وميثاق عاهدته ، لتشهد لى بالموافاة » . وقال ﷺ : « الركن اليمانى باب من أبواب الجنة ، لم يغلقه الله منذ فتحه » . وقال ﷺ : « الركن اليمانى بابنا الذى يدخل منه الجنة ، وفيه نهر من الجنة تلقَ فيه أعمال العباد » ، قيل : إنما شبه بباب الجنة ، لأن إستلامه وسيلة الى وصولها ، وبالنهر ، لأنه تغسل به الذنوب . ثم لتكن النية فى الاستلام والإلتصاق بالمستجار ، بل المماسة لكل جزء من البيت ، طلب القرب حباً وشوقا للبيت ولرب البيت ، وتمسكا وتبركاً بالمماسة ، ورجاء للتحصن عن النار فى كل جزء لا فى البيت ، ولتكن نيته فى التعلق بأستار البيت الإلحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان ، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر فى حقه ، المتضرع اليه فى عفوه عنه ، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا اليه ، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه ، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الأمان فى المستقبل.

فصل

(السعى)

السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت ، يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك ، جائياً وذاهباً مرة بعد اخرى ، إظهاراً للخلوص فى الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدرى ما

الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أورد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى ، يرجو أن يرحمه فى الثانية إن لم يرحمه فى الأولى ، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين ، ناظراً الى الرجحان والنقصان ، مردداً بين العذاب والغفران .

فصل

(ما ينبغى عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من إزدحام الخلق ، وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ،واتباع الفرق أئمتهم فى التردد على المشاعر : عرصات يوم القيامة وأهوالها ، وانتشار الخلائق فيها حيارى ، واجتماع الامم مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل امة نبيهم ، وطمعهم فى شفاعته لهم ، وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول.واذا تذكر ذلك، فليتضرع الى الله تعالى ويبتهل اليه ، ليقبل حجه ويحشره فى زمرة الفائزين المرحومين . وينبغى أن يحقق رجاءه.إذ اليوم شريف و الموقف عظيم،والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة ، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة ، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة ، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة ، وايديهم الى حضرة الربوبية مرتفعة ، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة ، وأعناقهم الى عظيم لطفه وبره ممتدة ،ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين ، وأرباب القلوب والمتقين ، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه ، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة ، والنفوس القادسة الشريفة ، الى كافة الخليقة . ولا تظن أنه يخيب آمال الجميع ، ويضيع سعيهم ، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم

عن الأهل والأوطان ، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يضن به فى مثل هذه الحالة ، ولذا ورد : أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له .

فصل

(المشعر)

واذا فاض من عرفات ودخل المشعر ، فليتذكر عند دخوله فيه : أن الله سبحانه قد أذن له فى دخول حرمه بعد أن كان خارجا عنه ، إذ المشعر من جملة الحرم ، وعرفات خارجة عنه ، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه ، بأن الله سبحانه قربه اليه وكساه خلع القبول ، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد ، وجعله من أهل الجنة والقرب .

فصل

(ما ينبغى عند الرمى والذبح)

واذا ورد منى ، وتوجه الى رمى الجمار ، فليقصد به الانقياد والامتثال، اظهاراً للرق والعبودية ، وتشبيهاً بالخليل الجليل ﷺ ، حيث عرض له ابليس اللعين فى هذا الموضع ليفسد حجه ، فامره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله . وينبغى أن يقصد أنه يرمى الحصا الى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه ، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم أنفه . واذا ذبح الهدى ، فليستحضر أن الذبح اشارة الى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الأمارة وقتلهما ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد : أنه يعتق بكل جزء من الهدى جزء منه النار . فليجتهد فى التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال

القبيحة ، حتى يصير حاله أحسن من سابقه ، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الأمارة فى الجملة ، ولا يكون فى عمله من الكاذبين . ولذلك ورد : أن علامة قبول الحج :أن يصير حاله بعد الحج :أحسن مما كان عليه قبله .وفى الخبر : أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصى ، وأن يستبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

تتميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق ﷺ خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه ، فلنذكره تيمناً بكلماته الشريفة :

قال ﷺ : « اذا أردت الحج ، فجرد قلبك لله عز وجل ، من قبل عزمك ، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب ، وفوض امورك كلها الى خالقك ، وتوكل عليه فى جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك ، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً ، فإن من ادعى رضا الله ، واعتمد على شيء ما سواه ، صيره عليه عدواً ووبالاً ، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه ، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه ﷺ ، وما يجب عليك من الأدب ، والاحتمال ، والصبر ، والشكر ، والشفقة ، والسخاوة ، وإيثار الزاد

على دوام الأوقات ، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته ، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل فى دعوتك له ، متمسكا بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت . وهرول هرولة فرآ من هواك ، وتبرأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك الى منى ، ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه ، واعترف بالخطأ بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه واتقه بمزدلفه ، واصعد بروحك الى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمى الجمرات ، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل فى أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم ، وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله ، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته ، وودع ماسواه بطواف الوداع ، وصفّ روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن ذامرة من الله بفناء أوصافك عند المروة ، واستقم على شروط حجتك ، ووفاء عهدك الذى عاهدت ربك ، واوجبت له الى يوم القيامة ، واعلم بان الله لم يفترض الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات بالأضافة الى نفسه بقوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)(١).

(١) آل عمران ، الآية : ٩٧ .

ولا شرع نبيه ﷺ سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه ، إلا للاستعداد والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها ، بمشاهدة مناسك الحج من أولها الى آخرها ، لاولى الألباب واولى النهى » (١) .

خاتمة

(زيارة المشاهد)

في الاشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد

اعلم ان النفوس القوية القدسية ، لاسيما نفوس الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - اذا نفضوا أبدانهم الشريفة ، وتجردوا عنها ، وصعدوا الى عالم التجرد ، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم ، فامور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة ، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم ، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه ، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية ، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية ، فإنهم هناك يشهدون ،

« بَلْ أَحياءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » (٢)

وبما آتاهم الله من فضله فرحون ، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم ، وحاضري مراقدهم ، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع ، فتهب عليهم نسمات ألطافهم ، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم ، ويشفعون الى الله في قضاء حوائجهم ، وإنجاح

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢١ .
(٢) آل عمران ، الآية : ١٦٩ .

مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف كروبهم . فهذا هو السر فى تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم ، وإدخال السرور عليهم ، وتجديد عهد ولا يتهم . وإحياء امرهم ، وإعلاء كلمتهم ، وتبكيت أعدائهم . وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه . وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف الطاعات ، مع أن زيارة المؤمن — من جهة كونه مؤمناً فحسب — عظيم الأجر جزيل الثواب ، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الأحياء الى قبور أمواتهم للزيارة ، وتعارف ذلك بينهم ، حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه . واذا كان الحال فى المؤمن من حيث إنه مؤمن ، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله الى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة على العالمين ، وارتضاه إماماً المؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خلق السماوات والأرضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذى يؤتى منه ، ونوره الذى يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل بينه وبين عباده ، من رسل وأنبياء وأئمة واولياء .

ثم ، الأخبار الواردة فى فضيلة زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - مما لا تحصى كثرة . قال رسول الله ﷺ : « من زار قبرى بعد موتى كان كمن هاجر إلي فى حياتى ، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام ، فإنه يبلغنى » . وقال ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام : « يا أبا الحسن ، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة ، وعرصة من عرصاتها ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده ، تحن اليكم ، وتحتمل المذلة

والأذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقربا منهم الى الله ، ومودة منهم لرسوله ، أوآلئك يا علي المخصوصون بشفاعتي ، والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة. يا علي ، من عمر قبورهم وتعاهدها ، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام ، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه . فابشر ، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين ، بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم ، كما تعير الزانية بزناها . اوآلئك شرار امتي ، لا تنالهم شفاعتي ، ولا يردون حوضي »(١) . وقال الصادق ﷺ : « لو أن احدكم حج دهره ، ثم لم يزر الحسين بن علي - عليهما السلام - ، لكان تاركا حقاً من حقوق رسول الله ﷺ ، لأن حق الحسين ﷺ فريضة من الله واجبة على كل مسلم » . وقال الرضا ﷺ : « إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته ، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقاً بما رغبوا فيه ، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة » . والأخبار في فضل زيارة النبي والأئمة المعصومين ، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا — عليهم أفضل التحية والثناء — ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد ، اكثر من أن تحصى ، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا ، فلا حاجة الى ايرادها هنا .

---

(١) صححنا الحديث على (مستدرك الوسائل) : ٢ / ١٩٥ — ١٩٦ ، كتاب الحج ، ١٠ ، ابواب المزار وما يناسبه .

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة)

واذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم ، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول فى بلادهم ، ومراقدهم المنورة ، ومشاهدهم المكرمة ، وتستحضر فى قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدهم وسعيهم فى ارشاد الناس وإعلاء كلمة الله .

فاذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها ، تذكر أنها البلدة التى إختارها الله لنبيه ﷺ ، وجعل اليها هجرته ، وأنها البلدة التى فيها شرع فرائض ربه وسننه ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، ولم يزل قاطناً بها الى أن توفاه الله ، وجعل تربته فيها .

ثم مثل فى نفسك أقدام رسول الله ﷺ عند ترددانك فيها ، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل ، وكن متذكراً لمشيه وتخطيه فى سككها ، وتصور سكينته ووقاره ، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله فى قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين ، وأحبط عمل من هتك حرمته ،ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر مامن الله به على الذين ادركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته ، وتضرع الى الله ألا تفوتك صحبته فى الآخرة ، ولتعظم رجاءك فى ذلك ، بعد أن رزقك الله الايمان ، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته ، محبة له ، وتشوقا اليه .

ثم اذا دخلت مسجده ، فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة ، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حياً وميتاً ، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظما ، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن .

ثم اذا أتيته للزيارة ، فينبغي ان تقف بين يديه خاضعاً خاشعاً خائفاً ، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً ، إذ لا فرق بين ميته وحيه ، ولو وجدت التفرقة فى قلبك لما كنت مؤمناً ، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك . فمثل صورته الكريمة فى خيالك ، جالساً على سرير العظمة بحذائك ، وأحضر عظيم رتبته فى قلبك ، وقد ورد : أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من امته . وهذا فى حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الأهل والوطن ، وقطع البوادى شوقا الى لقائه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور ، إذ فاتته مشاهدة طلعته البهية ، وغرته الكريمة . وقد قال ﷺ : « من صلى عليّ مرة ، صليت عليه عشراً » . فهذا جزاؤه عليه فى الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟

واذا فرغت من زيارته ، فأت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برمانتيه ، وامسح بهما وجهك وعينيك ، وتضرع الى الله ، وابتهل اليه ، واسأل حاجتك . وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر ، ومثل فى قلبك طلعته البهية ، قائماً على المنبر ، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار ، وهو يحمد الله بافصح الكلمات واللغات ، ويحث الناس على طاعة الله . واسأل الله ألا يفرق فى القيامة بينه وبينك ، ويجعلك فى جواره ، ويعطيك منزلا فى قرب داره .

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء)

واذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام ، تذكر أنها وادى السلام ، ومجمع أرواح المؤمنين ، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع ، وجنة المؤمنين . فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتى روحه اليها ، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين ، الى أن يدخلوا دار كرامته العظمى فى القيامة الكبرى . وقد أكد شرافتها وعظم قدرها ، بأن جعلها مدفن وصى رسوله ، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر ، ونوح شيخ المرسلين — عليهما السلام — . فاسأل الله أن يأتى بروحك اليها ، ويدخلك فى زمرة المؤمنين ، ويجعلها محل دفنك ، لتنالك شفاعة مولاك عليه السلام ، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة فى وادى برهوت .

واذا أتيت لزيارته ، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله ، وراع الآداب التى ذكرناها فى زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله .

واذا أردت أرض كربلاء ، لزيارة سيد الشهداء عليه السلام ، فتذكر أن هذه الأرض هى التى قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده ، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته ، فجدد الحزن على قلبك ، وادخلها أشعث اغبر ، منكسر الحال ، محزون القلب ، كئيباً حزيناً باكياً ، وأحضر فى قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها ، فإنها الأرض التى فى تربتها الشفاء ، ولا يرد فيها الدعاء ، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة ، فتردد فيها على سكينة ووجل .

ثم اذا دخلت الحائر للزيارة ، ووقع بصرك على ضريحه المنور ، ثم

على ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين فى موضع واحد فى جواره ، فمثل فى قلبك اشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن ، واحضر فى نفسك أبا عبد الله الحسين عليه السلام واقفاً فى عرصة كربلاء ، ويأتى أصحابه واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد ، قائلا : السلام عليك يا أبا عبد الله ! وهو يأذن له ، ويلقى نفسه فى الميدان على الجم الغفير ، فيقتل فى سبيله ، واذا أيس من حياته ، ينادى بأعلى صوته : ادركنى يا أبا عبد الله ! وهو عليه السلام يسرع اليه كالصقر المنقض ، ويأخذ جثته من الميدان ، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء . فمثل فى نفسك أمثال ذلك ،وجدد عليهم الحزن والبكاء ، وتمن كونك معهم فى تلك العرصة ، وقل : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما !

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته عليه السلام ، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة ـ عليهم السلام ـ ، فإنه ينبغى لك أن تستحضر ، عند حضورك كل واحد منهم ، جلالة شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتتذكر ما يناسب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر فى قلبك ما يترتب عليه ، من التعظيم ، والإجلال ، والخوف ، والحزن ، والفرح ، وامثال ذلك .

° ° °

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) ، والحمد لله على إتمامه،واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه . وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه ، فى سلخ شهر ذى القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها الف الف سلام وتحية .

° ° °

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثالث من (جامع السعادات)

الطبعة الثالثة

مطبعة النجف ـ النجف الاشرف

رجب ــ ١٣٨٣ هـ